ثناء المولى سبحانه وتعالى على أصحاب نبيه ﷺ

في القرآن الكريم

صالح بن عبد الله الدرويش

القاضي في محكمة استئناف مكة سابقًا

دار ابن الجوزي

ح دار ابن الجوزي للنشر و التوزيع ، ١٤٤٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الدرويش ، صالح بن عبد الله
ثناء المولى سبحانه وتعالى على اصحاب نبيه في القرآن
الكريم. / صالح بن عبد الله الدرويش .- الدمام ، ١٤٤٢هـ
٤٦٥ ص ؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك: ٧-٦٥-٨٢٩٨-٦٠٣-٩٧٨
١- الصحابة و التابعون ٢- فضائل الصحابة أ.العنوان
ديوي ٢٣٩,٩ ١٤٤٢/٢٦٨٢

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٢٦٨٢
ردمك: ٧-٦٥-٨٢٩٨-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
(١٤٤٢ هـ)

الباركود الدولي: 9786038298657



دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
٨٤١٢١٠٠
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي : ٤٩٧٣
الرياض - ت: ٠٥٩٢٦٦٢٤٩٥
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net



إهــــداء

إلـى كـل مـؤمن بـالقرآن العزيـز العظـيم الكـريم معجـزة الرسـول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، كلام الله جَلَّ جَلَالُهُ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفـه، تنزيـل مـن حكـيم علـيم، فيـه الهـدى والنـور، والشـفاء لمـا في الصدور، من حَكَم به عدل، ومن آمن به نجا، عجز الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بسورة مثله، فيه الآيات البينات، والبراهين الشافية، لكل مـن أراد طريـق الهدايـة والنـور والحـق، ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء:٩]. - أُهْدي هذه الآيات البينات الواضحات مع شرح مـوجز في ثنـاء الله جَلَّ وَعَلَا علـى أصـحاب خيـر الرسـل منزلـة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، الذي اصطفاه الله من البشر وبعثه في خير بقـاع الأرض، وجعـل هجرتـه في خير مهاجر، ونسبه خير الأنساب، ولغته أفصح اللغـات، أفـلا يجعـل صحبه وآله خير الصحب والآل؟ بلى! إن ربي حكـيم علـيم، جلَّ ذكـره وتقدَّست أسماؤه.



مقـدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فالأمة اليوم بأمسِّ الحاجة لمعرفة الأدلة المتكاثرة التي لا يخالطها ريب ولا يشوبها شك على عدالة الصحابة وعلو شأنهم وكرامة مقامهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.. في الوقت الذي كرَّست الدولة الصفوية -وكل من دار في فلكها- جُلَّ جهودها لصرف المسلمين عن دينهم وتشكيكهم في ثوابتهم ومسلَّمات عقيدتهم؛ استهدافًا لدين محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الذي نقله إلينا صحابته الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ليصلوا -ومَن وراءهم- من خلال القدح في الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى هدم الدين وإبطال الملة؛ إذ إن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هم الباب، فإن سقطت مكانتهم في الأمة فكل ما جاء عن طريقهم سيكون محل شكٍّ وبطلان، باستثناء ما يدعم ويؤصل العقيدة الصفوية المجوسية، قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: "من أراد كيدًا للإسلام أظهر التشيع والمحبة لآل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ استجذابًا لقلوب الناس؛ لأن هذا أمر يرغب فيه كل مسلم، وقصدًا

للتغرير عليهم، ثم أظهر للناس أنه **لا يتم القيام بحق القرابة إلا بترك حق الصحابة**، ثم جاوز ذلك إلى إخراجهم -صانهم الله- عن سبيل المؤمنين.

ومعظم ما يقصده بهذا هو الطعن على الشريعة وإبطالها؛ لأن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هم الذين رووا للمسلمين علم الشريعة من الكتاب والسنة، فإذا تم لهذا الزنديق القدح في الصحابة وتكفيرهم والحكم عليهم بالردة بطلت الشريعة بأسرها؛ لأن هؤلاء هم حملتها الراوون لها عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

فهذا هو العلة الغائية لهم، وجميع ما يتظهرون به من التشيع كذب وزور، ومن لم يفهم هذا فهو حقيق بأن يتهم نفسه، ويلوم تقصيره"[(١)].

وبما أن جميع المسلمين يؤمنون بحفظ القرآن، فلا يناله نقص ولا زيادة، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر:٩]، وحيث إن جمهور الشيعة (العامة) يؤمنون أيضاً بالقرآن الكريم، ويعتقدون عصمته من التحريف والزيادة والنقصان؛ فإن بيان عدالة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وكذب الافتراءات الشيعية على أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من خلال القرآن الكريم، يُعتبر أقوى السبل لكشف

---

(١) أدب الطلب ومنتهى الأرب، للشوكاني (ص:٩٦) بتصرف يسير.

زيفهم، وإلزامهم بأحد أمرين لا ثالث لهما: إمَّا أن يقولوا بتحريف القرآن؛ وبذلك ينكشف سترهم، ويُفْضَح أمرهم، ويبوؤون بخزي تَقِيَّتهم، وإما أن يُسلِّموا بعدالة الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ حسب مقتضى الآيات المتكاثرة الدالة -صراحةً أو تلميحًا، خصوصًا أو عمومًا- على عدالتهم وعلو شأنهم، وكرامة قدرهم.

والآيات في فضلهم كثيرة جدًا:

فمنها ما يثني عليهم ويذكر من جميل أوصافهم وحسن أفعالهم، **ومنها** ما يشهد لهم بالإيمان ويفرق بينهم وبين المنافقين، **ومنها** ما يبشرهم بفضل الله تعالى ونصره وتأييده، **ومنها** ما يدافع عنهم ويأمر الرسول أن يحسن معاملتهم، **ومنها** ما يأتي بالتوجيه والإرشاد لهم بكل رحمة ولطف، **ومنها** ما ينزل بالعفو والرحمة من الله تعالى، **ومنها** ما يأتي بفضائل مخصوصة لأفراد أو فئات منهم.

وهذه الآيات **منها** الصريح بفضلهم، **ومنها** ما يتضمن ذلك بالإشارة والتنبيه، **ومنها** ما يرتبط فهمه بمعرفة سبب النزول.

وسِرُّ كثرة الآيات في الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ هو أن الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ عاش معهم وبينهم، فهم طلابه، وجنده، وقادته،

وجماعة مسجده، وأصهاره وجيرانه، فحياته هم ميدانها عامة، ووقته معهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فلا غرو أن تنزل آيات كثيرة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وهم طرف فيها، وآيات أخرى خاصة به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

وحُقَّت لهم هذه المنزلة، فلهم فضائل لا يدركها أحد بعدهم أبداً، وما أجمل ما قاله أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في شأنهم: "فضيلة الصحبة لا يَعْدِلها عملٌ، وهو الحق الذي لا ينبغي أن يصار لغيره؛ لأمور:

أولها: مزية الصحبة ومشاهدة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

وثانيها: فضيلة السبق للإسلام.

وثالثها: خصوصية الذب عن حضرةِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

ورابعها: فضيلة الهجرة والنصرة.

وخامسها: ضبطهم للشريعة وحفظها عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

وسادسها: تبليغها لمن بعدهم.

وسابعها: السبق في النفقة في أول الإسلام.

وثامنها: أن كل خير وفضل وعلم وجهاد ومعروف فُعِل في الشريعة إلى يوم القيامة، فحظهم منه أكمل حظٍ، وثوابهم فيه أجزل ثواب؛ لأنهم سَنُّوا سنن الخير، وافتتحوا أبوابه، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة»[1]، ولا شك في أنهم - مع إمامهم رسول الهدى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - الذين سنوا جميع السنن، وسابقوا إلى المكارم. ولو عُدِّدَت مكارِمُهم، وفُسِّرَت خواصهم وحُصِرت لملأت أسفارًا، ولكَلَّت الأعينُ بمطالعتها حيارى.

وكفى من ذلك كله ثناء الله تعالى عليهم جملة وتفصيلاً، وتعيينًا وإبهامًا، ولم يحصل شيء من ذلك لمن بعدهم"[2].

وقد حرصت على التركيز على أوجه الثناء عليهم، واقتصرت على الواضح منها، وقد يحصل فيها تكرار؛ لأن بعض الآيات تكرر فيها ذات المعنى.

وقد جاءت فكرة هذا الكتاب في مجلس مدارسة مع بعض الطلاب،

(١) مسلم (٢/ ٧٠٤ رقم ١٠١٧).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/ ٥٠٢-٥٠٣).

حيث وقف بنا الحديث عند قول الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾[الفرقان:٥٢] ودلالته على كفاية القرآن في الرد على شبهات المخالفين من أهل البدع وغيرهم، وأنَّ مَنْ أَحْسَنَ التدبر والتفكر في كتاب الله تعالى اتضح له الحق وانكشف له ضلال المبطلين وعرف به فساد شبهاتهم، ومن أوضح الأمثلة على هذا المعنى: عدالة الصحابة الكرام والرد على الطاعنين فيهم، فأَخَذَت الآيات تتابع في المجلس حتى انبثقت فكرة جمع كتاب يحويها ويبين دلالاتها، لتكون ثباتاً لأهل الإيمان وحجة على أهل الباطل وهداية لمبتغي الحق والصواب، فكان ما أراد الله جَلَّ وَعَلَا أن يكون، وتم الكتاب، وها هو بين أيديكم بفضل الكريم جلَّ في علاه.

وفي الختام أتقدم بالشكر لكل من ساهم معي في إنجاز هذا الكتاب، وهذا بريدي الإلكتروني أسعد فيه بالتواصل لتصويب أي خلل أو خطأ أو مقترح حول الكتاب:

salehalderweesh@gmail.com

أسأل الله أن ينفع به، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.



موقف الشيعة من آيات الثناء على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

لم يأخذ الشيعة بمدلول آيات الثناء على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقالوا: بأنها خاصة بالعهد المكي، وقالوا: إنها فقط تخص أهل البيت والنزر اليسير من الصحابة، وقالوا: إنها قبل الفتح؛ كل ذلك ليجدوا مسوغات للطعن في بعض الصحابة ممن تأخر إسلامهم.

وما هي إلا مقدمات؛ فإنهم لن يكتفوا بالطعن في المتأخرين من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. إنهم يحاولون الوصول من خلال ذلك للطعن في كل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فيطعنون في فاروق الأمة عمر بن الخطاب لأجل معاوية، ويطعنون في الصديق أبي بكر لأجل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، ورد الله جَلَّ وَعَلَا كيد الشانئين وأقماهم وأهانهم في الدنيا والآخرة.

فهم لا يرون لصحابي كرامةً، ولا عدالةً، ولا لعرضه حقًّا.. وإن سلَّموا ببعض أدلة الثناء دون بعض، وأنزلوها على بعض الصحابة دون بعض، فليس ذلك ناتج عن اعتقاد عدالة بعضهم، وإنما هو تدرُّج للوصول إلى

الطعن في الصحابة جميعًا، عدا أهل البيت، ثم الطعن في أهل البيت حيث لم ينكروا على بقية الصحابة، ثم الطعن في النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ وعرضه الشريف، وإبطال الدين والقرآن والرسالة.

بينما نجد آيات القرآن في الثناء على الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ – وهي كثيرة – لم تقتصر على عهد دون عهد، ولا وقت دون وقت، فكما أن القرآن أثنى عليهم في عهد الاستضعاف والتعذيب في مكة، كذلك أثنى عليهم في عهد التمكين في المدينة، كما سيأتي في ثنايا هذا البحث، بل إن التفاضل بين الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ من حيث الأقدمية –سواءً باعتبار فتح مكة أو غيره– لم ينفِ فضل المتأخر منهم في إسلامه، كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[الحديد:١٠]، وقوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[الأنفال:٧٥].

وهاهي الآيات بين يديك أخي القارئ، لتنظر بنفسك وترى كيف أثنى الله تعالى على صحابة نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ.



أولاً: ثناء المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ومكانتهم عنده



تمهيـد

من أبـرز علامـات فضـل الشـخص ومكانتـه: ثنـاء الآخـرين عليـه، وكلـما ازداد الثناء وعظُم كلما دلَّ هذا على عظيم الفضـل والمكانـة، خاصـة إذا كـان المادح عليمًا بأحوال المُثْنَى عليه، حكيمًا متزنًا في قولـه وتعبيـره، لا يبـالغ في المـدح ولا يـبخس النـاس أشـياءهم، فصـيحًا بليغًـا يضـع الكـلام في مواضـعه ويعرف معنى ودلالة ومفهوم كل كلمة يتلفظ بها، فـإن المـدح حينهـا سـيكون أعظم وقعًا وأكثر دلالة على الشرف والمكانة.

فكيف إذا كان هذا المادح والمُثْني هو الله جَلَّوَعَلَا!!

حين يجد المسلم أن الله جَلَّوَعَلَا يشـهد لقـوم بالعدالـة والوسـطية، ويخـبر برضاه عنهم، ويبشرهم بأنواع البشارات، ويَعِدُهم بـالوعود العظيمـة، ويخـبر عن تأييده ونصره لهم، ويذكر ثوابه لهم، ويصفهم بـالعلم والصـدق، ويمـدح عبادتهم وجهادهم وبذلهم، ويثني عليهم عموما وخصوصا، بل ويذكر أنه لـم يمدحهم فقط في القرآن، بل أثنى عليهم كـذلك في التـوراة والإنجيـل... حـين يجد المرء كل هذا، هل يبقى في قلبه بعد ذلك شك في أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى قـد أحبهم ورضي عنهم؟!

فيما يأتي من الآيات تفصيل هذا كله وأكثر.



الآية ١٤٣ من سورة البقرة

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾

الآية الكريمة مرتبطة بالآية قبلها وهي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾[البقرة:١٤٢] في سياق تحول القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام بمكة المكرمة، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قيل: المراد بالسفهاء هاهنا: مشركو العرب، وقيل: أحبار يهود، وقيل: المنافقون، والآية عامة في هؤلاء كلهم، وقد جاء في هذا الباب أحاديث كثيرة، وحاصِلُ الأمر: أنه قد

كان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِوَسَلَّمَ أُمِرَ باستقبال الصخرة من بيت المقدس، فكان بمكة يُصَلِّي بين الركنين، فتكون بين يديه الكعبة، وهو مستقبلٌ صخرة بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة تَعَذَّر الجمعُ بينهما، فأمره الله عَزَّوَجَلَّ بالتوجُّه إلى بيت المقدس، فاستمرَّ الأمرُ على ذلك بضعة عَشَرَ شهرًا، وكان يكثر الدعاءَ والابتهالَ أنْ يُوَجَّه إلى الكعبة، التي هي قبلة إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، فأُجيبَ إلى ذلك، وأُمر بالتوجُّه إلى البيت العتيق، فخطب رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِوَسَلَّمَ الناس، وأعلمهم بذلك.

ولما وقع هذا حصل لبعض الناس - من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود - ارتياب وزيغ عن الهدى وتخبيط وشك، وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾ أي: قالوا: ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا، وتارة يستقبلون كذا؟ فأنزل الله جَلَّوَعَلَا جوابهم في قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾ أي: الحكم والتصرف والأمر كله لله، وحيثما تولوا فثمَّ وجه الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، و﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾[البقرة:١٧٧] أي: الشأن كله في امتثال أوامر الله عَزَّوَجَلَّ، فحيثما وجَّهَنا توجَّهْنَا، فالطاعة في امتثال أمره، ولو وجَّهَنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة، فنحن عبيده وفي تصريفه، وهو تعالى له بعبده ورسوله محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِوَسَلَّمَ وأمته عناية عظيمة؛ إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، وجعل توجههم

إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له، أشرف بيوت الله عَزَّوَجَلَّ في الأرض، إذ هي بناء إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولهذا قال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، يقول تعالى: إنما حَوّلناكم إلى قبلة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، واخترناها لكم لنجعلكم خِيَار الأمم، لتكونوا يوم القيامة شُهَداء على الأمم؛ لأن الجميع معترفون لكم بالفضل. والوسط هاهنا: الخيار والأجوَد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ يقول تعالى: إنما شرعنا لك -يا محمد- التوجُّه أولًا إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنه إلى الكعبة، ليظهر حالُ من يَتَّبعك ويُطيعك ويستقبل معك حيثما توجهتَ ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ﴾ أي: مُرْتَدًّا عن دينه ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أي: هذه الفعلة، وهو صرف التَّوجُّه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أي: وإن كان هذا الأمر عظيمًا في النفوس إلا على الذين هدى الله عَزَّوَجَلَّ قلوبهم - الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ - وأيقنوا بتصديق الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وأنَّ كلَّ ما جاء به فهو الحقّ الذي لا مِرْيَة فيه، وأن الله عَزَّوَجَلَّ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فلَهُ أن يكلّف عباده بما شاء، وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك، بخلاف الذين في قلوبهم مرض، فإنه كلما حدث أمرٌ أحدَث لهم شكًّا، كما يحصلُ للذين آمنوا إيقان وتصديق.

كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾[التوبة:١٣٤-١٣٥]، ولهذا كان من ثبت على تصديق الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ واتباعه في ذلك، وتوجه حيث أمره الله عَزَّوَجَلَّ من غير شك ولا ريب، من سادات الصحابة.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ﴾ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك، لا يضيع ثوابها عند الله عَزَّوَجَلَّ.

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: كان أوّل ما نُسِخَ من القرآن القبلة، وذلك: أنّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ لما هاجرَ إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود، فأمره الله عَزَّوَجَلَّ أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بِضْعَةَ عَشَرَ شهرًا، وكان يحب قبلة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فكان يدعو إلى الله عَزَّوَجَلَّ وينظر إلى السماء، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ﴾ إلى قوله: ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ﴾"[1].

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٥٢-٤٥٨) مختصراً.

إن هذه الأمة - الأمة الوسط وعلى رأسها الصحابة الكرام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ - هي التي تشهد على الناس جميعًا، فتقيم بينهم العدل والقسط وتضع لهم الموازين والقيم، وتبدي فيهم رأيها فيكون هو الرأي المعتمد وتَزِن قِيَمَهم وتصوراتهم وتقاليدهم وشعاراتهم فتفصل في أمرها، وتقول: (هذا حق منها وهذا باطل)، لا التي تتلقى من الناس تصوراتها وقيمها وموازينها.

وهي شهيدة على الناس، وفي مقام الحَكَم العَدْل بينهم.. وبينما هي تشهد على الناس هكذا، فإن الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ هو الذي يشهد عليها فيقرر لها موازينها وقيمها ويحكم على أعمالها وتقاليدها ويزن ما يصدر عنها، ويقول فيه الكلمة الأخيرة..

وبهذا تتحدد حقيقة هذه الأمة ووظيفتها.. لتعرفها، ولتشعر بضخامتها. ولتقدر دورها حق قدره، وتستعد له استعدادًا لائقًا.

أوجه الثناء:

- عدالة الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، فقد جعلهم الله عَزَّوَجَلَّ وسطًا، أي: عدولًا.

- أن الله تعالى نص على هداية الصحابة حين أن نقل قبلتهم من المسجد الأقصى إلى مسجد الكعبة، ولم يترددوا في ذلك، ولم يناقشوا، ولم يقولوا: لماذا؟ وكيف؟

- جعل الله عَزَّوَجَلَّ الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ خيار الناس وأجودهم، وجعلهم شهداء على الناس يوم القيامة. وهذه العدالة والخيرية والشهادة على الأمم إنما حازوها عندما حققوا الاتباع والانقياد لأمر الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ في أمر القبلة وفي غيرها من الأمور، وهذه هي الخصلة التي أوصلتهم إلى هذا المقام العالي الرفيع، وليس هذا الانقياد موقف عابر بل هو منهج عرفوا به وصار سمة بارزة فيهم، وهو من هداية الله تعالى لهم ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾.

- رسوخ إيمان الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، فقد قاد اليهود حملة تشويه وتشكيك كبيرة، فلم يعبأوا بها رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

- لما نجح الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ في الابتلاء، ولم يتأثروا بالطعن، أكرمهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بما أنزله من آيات في هذا الخصوص، وردَّ جَلَّوَعَلَا على شبهات اليهود ليكون هذا مزيد تثبيت للمؤمنين وتقوية لحجتهم على خصومهم.

- الحكمة من الصلاة إلى بيت المقدس مدةً ثم التحول إلى الكعبة: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، والصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ حققوا الاتباع للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ولم ينقلب أحد على عقبيه ويرتد، فاجتازوا بذلك الاختبار بنجاح.

- ثناء الله جَلَّ جَلَالُهُ عليهم أنهم ذوو إيمان، وأنه لن يضيع إيمانهم؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾[البقرة:١٤٣] أي: صلاتكم، فجعل الله عَزَّوَجَلَّ الصلاة إيمانًا.



٢- صفات الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ في القرآن والتوراة والإنجيل

الآية ٢٩ من سورة الفتح

﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا
سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ
ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ
فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: "يُخْبِر تعالى عن محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ أنه رسوله حَقًّا بلا شكٍّ ولا ريب، فقال: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾، وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كل وَصْف جميل، ثم ثَنَّى بالثناء على أصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ وهذه صفة المؤمنين، أن

يكون أحدهم شديدًا عنيفًا على الكفار، رحيمًا بَرًّا بالأخيار، غضوبًا عبوسًا في وجه الكافر، ضَحُوكًا بشوشًا في وجه أخيه المؤمن.

وقوله: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ وَصَفَهم بكثرة العمل وكَثرة الصلاة، وهي خير الأعمال، ووَصَفَهم بالإخلاص فيها لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، والاحتساب عند الله عَزَّوَجَلَّ جزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله عَزَّوَجَلَّ، وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه تعالى عنهم وهو أكبر من الأول، كما قال: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾[التوبة:٧٢].

وقوله: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم﴾ يعني: السَّمْت الحَسَن. وقال مجاهد وغير واحد: يعني: الخشوع والتواضع. وقال السُّدِّي: الصلاة تُحَسِّنُ وُجُوهَهم. وقال بعض السلف: من كَثُرَتْ صَلَاتُه بالليل حَسُنَ وجهه بالنهار. وقال بعضهم: إن للحسنةِ نورًا في القلب، وضياءً في الوجه، وسَعَةً في الرزق، ومَحَبَّةً في قلوب الناس، وقال أمير المؤمنين عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: [ما أَسَرَّ أحدٌ سريرةً إلا أبداها الله عَزَّوَجَلَّ على صَفَحَات وجهه، وفَلَتَات لسانه]. والغرض أن الشيء الكامن في النفس يَظْهَر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله عَزَّوَجَلَّ أصلحَ الله عَزَّوَجَلَّ ظاهره للناس، كما رُوي عن عمر بن الخطاب، أنه قال: من أَصْلَحَ سريرته أَصْلَحَ الله عَزَّوَجَلَّ علانيته.

فالصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ خَلُصَتْ نياتهم وحَسُنَتْ أعمالهم، فكلُّ من نَظَر إليهم أعجبوه في سَمْتِهم وهَدْيِهم. وقال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا]. وصدقوا في ذلك، فإن هذه الأمة معظَّمَة في الكتب الـمُتَقَدِّمَة، وأَعْظَمُها وأَفْضَلها أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

وقد نَوَّه الله عَزَّوَجَلَّ بِذِكْرِهم في الكُتُب الـمُنْزَلَة والأخبار الـمُتَدَاوَلَة؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾، ثم قال: ﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾ أي: فراخه، ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي: شَدَّهُ ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ أي: شَبَّ وطال، ﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ أي: فكذلك أصحاب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ آزروه وأيَّدُوه ونَصَرُوه فهُم معه كالشَّطْءِ مع الزرع، ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾.

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك -في رواية عنه- بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، قال: لأنهم يَغِيظُونهم - أي: يغضبونهم ويثيرون حنقهم-، ومن غاظه الصحابة فهو كافر لهذه الآية. ووافقه طائفة من العلماء على ذلك، والأحاديث في فضائل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ والنهي عن التَّعَرُّض لهم بمساءة كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عَزَّوَجَلَّ عليهم، ورضاه عنهم.

ثم قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم﴾ (مِن) هذه لبيان الجنس، ﴿مَّغۡفِرَةً﴾ أي: لذنوبهم، ﴿وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ أي: ثوابًا جزيلًا ورزقًا

كريمًا، ووَعْد الله عَزَّوَجَلَّ حقٌّ وصِدْق، لا يُخْلَفُ ولا يُبَدَّل، وكل من اقتفى أثر الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسَّبْق والكمال الذي لا يَلحَقُهم فيه أحد من هذه الأمة، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وأرضاهم، وجَعَل جنات الفردوس مأواهم، وقد فَعَل"[(١)].

أوجه الثناء:

- عطفُ الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ على محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ومشاركتهم إياه في أوصاف ومكرمات.

- وصْفُ الصحابة البهي الجميل في التوراة والإنجيل، والثناء عليهم في الكتب المقدسة المنزلة على موسى وعيسى عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ، ويَعرِف هذا كل من آمن بالتوراة والإنجيل من الأمم السابقة.

- مدْحُهم ببلوغهم الكمال؛ في تعاملهم مع الكفار وتعاملهم فيما بينهم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، وتأمل في قوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ الذي يشير إلى أن لهم السطوة والقوة، حتى خضعت لهم القبائل والدول وممالك كسرى وقيصر ومن وراءهم، وتأمل في قوله: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ الذي هو شهادة من الله عَزَّوَجَلَّ للصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ بهذا الوصف الرقيق في القرآن.

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٦٠-٣٦٣) مختصراً.

فاختر أيها القارئ الكريم تصديقَ هذه الشهادة والإيمان بها، بأنهم رحماء بينهم، أو ردَّ هذه الآية و غيرها من الآيات بسبب روايات مكذوبة لا أسانيد لها وأساطير مختلقة، نعوذ بالله من ذلك.

- تكريمُهم بذكر أشرف الأحوال ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ حيث اختار من هيئاتهم وحالاتهم هيئة الركوع والسجود وحالة العبادة: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾، والتعبير يوحي وكأنما هذه هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حيثما رآهم، ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة، وهي الحالة الأصلية لهم في حقيقة نفوسهم فعبر عنها تعبيراً يثبتها كذلك في زمانهم، حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعًا سجداً، وهذا شأنهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ، رهبان بالليل فرسان بالنهار.

- شهادة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لهم بنقاء قلوبهم ونبل مقصدهم ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾، فهل أدرك من كره الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ ذلك الأمر وقبلوا شهادة الله عَزَّ وَجَلَّ في آيات متعددة، وردوا الروايات والأساطير التي لا أسانيد لها؟!

- شهادة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لهم بصدق العبادة والتوجه إليه في سمتهم وسحنتهم وسماتهم: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾.

- ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ﴾ وهذا المثل ليس مستحدثـًا، فهو ثابت في صفحة القَدَر، ومن ثَمَّ ورد ذكره قبل أن يجيء محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ ومن معه إلى هذه الأرض، وثابت في التوراة والإنجيل في بشارتهما بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ ومن معه حين يجيئون.

- إعجاب الناس بهم، ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ فثمار غرس الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ في نفوسهم مثل أثر نمو الغرس، وحسنه يقع في نفوس خبراء الزرع العارفين بالنامي منه والذابل، المثمر منه والبائر، وَقْعَ البهجة والإعجاب: ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ ورسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ هو صاحب هذا الزرع النامي القوي المخصب البهيج.

- وقْعُ ثمار غرس الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ في نفوس الكفار هو على العكس؛ فهو وقْعُ الغيظ والكمد والحسرة، ولا يخفى بأن تعمد إغاظة الكفار يبين أن هذه الزرعة هي زرعة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ.

- الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ هم غرس رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ وثمرته، فرعايتهم واحترامهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ هو من رعايته واحترامه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ.

- وفوق هذا التكريم كله، وعدهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالمغفرة والأجر العظيم: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٣٥﴾ ..



وهو وعد يجيء في هذه الصيغة العامة بعد ما تقدم من صفتهم التي تجعلهم أول الداخلين في هذه الصيغة العامة، و(مِن) هنا بيانية، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾[الحج:٣٠].

- ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهذه المغفرة والتكريم وحده حسْبُهم، ووصف الله عَزَّوَجَلَّ للأجر بأنه عظيم – نكرة عامة – فيشمل الرضا ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[التوبة:٧٢]، والنظر إلى وجهه الكريم، وعطايا الرحمن سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا حصر لها.

- في الآية قبلها: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[الفتح:٢٨]؛ دليل على أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أظهر هذا الدين وأعلاه على بقية الأديان بهؤلاء الصحابة الكرام الذين وصفهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الآية الأخيرة.

- إذا نظرنا إلى التوافق بين افتتاح السور واختتامها نجد أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ابتدأها بالفتح، وختمها بذكر الأصحاب، وكأنها إشارة إلى أن الفتح إنما حصل بعد فضل الله تعالى بهؤلاء الأصحاب الذين لهم هذه الصفات العظيمة، وصدق الإمام الشافعي رَحِمَهُٱللَّهُ وهو يتحدث عن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ من وحي هذه الآية فيقول: "أثنى الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ على

أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في القرآن والتوراة والإنجيل، وسبق لهم لسان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من الفضل ما ليس لأحد بعدهم، فرحمهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهنأهم بما آتاهم من ذلك ببلوغ أعلى منازل الصديقين والشهداء والصالحين، فهم أدوا إلينا سُنن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وشاهدوه والوحي ينزل عليه، فعلموا ما أراد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عامًّا وخاصًّا وعزمًا وإرشادًا، وعرفوا من سُنته ما عرفنا وجهلنا، وهم فوقنا في كل علم واجتهاد، وورع وعقل، وأمر استدرك به علم واستنبط به، وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من آرائنا عندنا لأنفسنا والله أعلم"[1].

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٤٤٢).



٣- رضوان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على السابقين من المهاجرين والأنصار والمتبعين لهم بإحسان

الآية ١٠٠ من سورة التوبة

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ١٠٠﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يخبر تعالى عَزَّوَجَلَّ عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم.

قال الشعبي: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية. وقال أبو موسى الأشعري والحسن وقتادة: هم الذين

صلّوا إلى القبلتين مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضهم أو سَبَّهم أو أبغض أو سبَّ بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم، أعني الصدِّيق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يُعادون أفضل الصحابة ويُبغضونهم ويَسُبُّونهم، عياذًا بالله من ذلك.

وهذا يدلُّ على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن؛ إذ يسبُّون من رضي الله عنهم؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضّون عمَّن رضي الله عنه، ويسبُّون من سبَّه الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله، ويوالون من يوالي الله عَزَّوَجَلَّ، ويعادون من يعادي الله عَزَّوَجَلَّ، وهم مُتَّبِعُون لا مُبتَدِعون، ويَقتَدُون ولا يَبْتَدون، ولهذا هُم حزب الله عَزَّوَجَلَّ المفلحون وعباده المؤمنون"[(١)].

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ فيهم ستة أقوال:

أحدها: أنهم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ،

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٣) مختصراً.

قاله أبو موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وسعيد بن المسيب، وابن سيرين، وقتادة.

والثاني: أنهم الذين بايعوا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بيعة الرضوان، وهي الحديبية، قاله الشعبي.

والثالث: أنهم أهل بدر، قاله عطاء بن أبي رباح.

والرابع: أنهم جميع أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، حصل لهم السبق بصحبته. قال محمد بن كعب القرظي: "إن الله عَزَّ وَجَلَّ قد غفر لجميع أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وأوجب لهم الجنة محسنهم ومسيئهم في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾".

والخامس: أنهم السابقون بالموت والشهادة، سبقوا إلى ثواب الله تعالى. ذكره الماوردي.

والسادس: أنهم الذين أسلموا قبل الهجرة، ذكره القاضي أبو يعلى"[1].

وقال الفخر الرازي: "قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ قال عطاء عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: يريد: يذكرون المهاجرين والأنصار بالجنة والرحمة والدعاء لهم، ويذكرون محاسنهم، وقال في رواية أخرى: والذين اتبعوهم بإحسان على دينهم إلى يوم القيامة.

(١) زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٢٩١-٢٩٢).

واعلم أن الآية دلت على أن من اتبعهم إنما يستحقون الرضوان والثواب، بشرط كونهم متبعين لهم بإحسان، وفسرنا هذا الإحسان بإحسان القول فيهم، والحكم المشروط بشرط، ينتفي عند انتفاء ذلك الشرط، فوجب أن من لم يحسن القول في المهاجرين والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لا يكون مستحقًا للرضوان من الله تعالى، وأن لا يكون من أهل الثواب لهذا السبب، فإن أهل الدين يبالغون في تعظيم أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ولا يطلقون ألسنتهم في اغتيابهم وذكرهم بما لا ينبغي"(١).

أوجه الثناء:

- أن الله تعالى جعل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قسمين -بناء على أن السابقين ليسوا جميع الصحابة-: قسم سابق، وقسم متبع له يدخل فيه غير السابقين من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وهذا يدل على أنهم ليسوا على درجة واحدة، وهذا مقرر عند أهل السنة، أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتفاوتون فيما بينهم في الفضل، لكنهم كلهم لهم منزلة الصحبة.

- أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا من أهل الإحسان، بدليل أن الرضوان يشمل من تبعهم بإحسان، فدل على أن

(١) تفسير الرازي (١٦/ ١٣٠).

الإحسان كائن في المتبوع منهم ومن يتبعه.

- السَّبقُ يشمل سبق الصفة وهي الإيمان، وسبق الزمان وهو الدخول في الإسلام قبل غيرهم، وسبق المكان بتبوء دار الإيمان قبل غيرهم، وهذه كلها اجتمعت في الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وأعظمها: سبق الصفة، فهم أعظم الناس إيمانًا، وهم القدوة فيه.

- ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ رضا الرحمن جَلَّجَلَالُهُ أسمى مطلوب الرسل والنبيين، قال الله عَزَّوَجَلَّ عن موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾[طه:٨٤]، وعن سليمان عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾[النمل:١٩]، فقد طلب الرسل بلوغ هذا الوعد الذي بشر الله عَزَّوَجَلَّ به السابقين، فتأمل هذا يا رعاك الله.

- أعظم بشارة يسمعها أهل الجنة ما يقوله تعالى لهم -كما في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «إن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك؟! فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا رب! وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده

أبـدًا»[1].. فكيـف بمـن جـاءتهم هـذه البشـارة ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ وهم لا زالوا في الدنيا.

- ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، وفي ذلك ردّ على الشيعة الذي يزعمون ردة الصحابة!!، فكيف يُعِدُّ الله عَزَّوَجَلَّ لهـم جنـات ونعـيم، ويَعِـدُهم بـالخلود فيهـا أبـدًا؟!! والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلم بأنهم سيموتون على الكفر أو الفسق؟!

- الرضـوان الممتـد علـى طـول طريـق الصـحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ منـذ اتبـاعهم للحبيب صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ حتى الفردوس الأعلى؛ يوجب على كل مؤمن بالقرآن أن يعتقد عدالتهم، وكرامتهم عند الله تعالى، وإلا فكيف له أن يكون تابعًا بإحسان؛ إن كان المتبوع على غير الإحسان؟!!

- أن السابقين الأولين هم القدوات الذين يقتدى بهم مع سيدهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ الأخيـار، فـأمعِن النظـر في قولـه تعـالى: ﴿ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾، وقوله تعالى في سورة الحشر ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾[الحشر:١٠] فـإذا أردت الفـوز بالرضوان واللحوق بالركب فحقق الشرط وهو اتباعهم بإحسان.

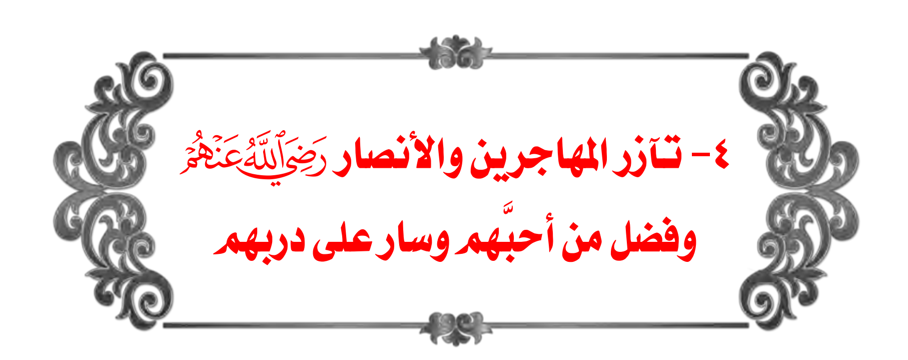
(١) البخاري (٨/ ١١٤ رقم ٦٥٤٩)، مسلم (٤/ ٢١٧٦ رقم ٢٨٢٩).

- هؤلاء هم أصحاب محمد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، أصحاب المقام الأسمى والمكانة الأعلى بين الأمم في الدنيا والآخرة، ولا ينتقص من مقامهم وجود منافقين حول المدينة، أو فيها؛ فكبار الصحابة وأصحاب بدر وبيعة الرضوان يمثلون جمهور المجتمع وأغلبية أهل المدينة، وهم أئمة الهدى ومصابيح الدجى، قال الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مقام أحدهم مع رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، ساعة واحدة خير من عمل أحدنا جميع عمره وإن طال"(١)، وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ثم أصحاب رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، بعد الأربعة خير الناس، ولا يجوز لأحد أن يذكر شيئًا من مساوئهم ولا يطعن على أحد منهم بعيب ولا بنقص، فمن فعل ذلك فقد وجب على السلطان تأديبه وعقوبته، ليس له أن يعفو عنه"(٢).

---

(١) مناقب أبي حنيفة للمكي (ص:٧٦).

(٢) السنة للإمام أحمد (ص:٧٧-٧٨).



٤- تآزر المهاجرين والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وفضل من أحبَّهم وسار على دربهم

الآيات ٨-١٠ من سورة الحشر

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أي: خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ ورضوانه ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي: هؤلاء الذين صَدَّقوا

قولهم بفعلهم، وهؤلاء هم سادات المهاجرين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ثم قال تعالى مادحًا للأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومبينًا فضلَهم وشرفَهم وكرَمَهم وعدم حَسَدهم، وإيثارَهم مع الحاجة: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: سكنوا دار الهجرة من قبْل المهاجرين وآمنوا قبْل كثير منهم.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح. عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «واتقوا الشُّحَّ، فإن الشّحَّ أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سَفَكُوا دماءهم واستَحلُّوا محارمهم»[رواه مسلم].

قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء، وهم المهاجرون ثم الأنصار، ثم التابعون لهم بإحسان، كما قال في آية براءة: ﴿وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾[التوبة:١٠٠]، فالتابعون لهم بإحسان هم: المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة، الداعون لهم في السر والعلانية؛ ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ﴾ أي: قائلين: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا الَّذِينَ

سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ أي: بغضًا وحسدًا ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ من هذه الآية الكريمة: أن الرافضي الذي يسبّ الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب؛ لعدم اتصافه بما مدح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به هؤلاء في قولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: أُمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فسببتموهم، سمعتُ نبيكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: «لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرُها أوَّلَها»[رواه البغوي] "[(١)].

أوجه الثناء:

- إكرام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إياهم بأن خصَّهم بذِكر استحقاقهم الفيء دون غيرهم.

- وَصَف الله جَلَّ جَلَالُهُ المهاجرين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وصفًا ذا دلالة عميقة، وفيه شهادة من الله تعالى بما في قلوبهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في أمرين عظيمين:

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٦٨-٧٣) مختصراً.

١ - في دوافع الهجرة، أنهم: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾.

٢ - وغايتها، وهي: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

- الوصف البليغ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وجملة ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ مفيدة القصر لأجل ضمير الفصل، وهو قصر ادِّعائي للمبالغة في وصفهم بالصدق الكامل، كأنَّ صِدْق غيرهم ليس صدقًا في جانب صدقهم"(١).

- تمسَّك بعض العلماء بهذه الآية على إمامة أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقال: هؤلاء الفقراء من المهاجرين والأنصار كانوا يقولون لأبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: يا خليفة رسول الله ، والله يشهد على كونهم صادقين، فوجب أن يكونوا صادقين في قولهم: يا خليفة رسول الله، ومتى كان الأمر كذلك وجب الجزم بصحة إمامته(٢).

- أن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ شهد لهم بالإيمان، وليس بالإيمان فقط؛ بل بالصدق في الإيمان.

- ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾ الأنصار سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمۡ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٨٩).

(٢) تفسير الرازي (٢٩/ ٥٠٧).

أجمعين، وآمنوا قبل كثير منهم.

- ﴿وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ كأن الإيمان بالنسبة لهم مسكن ومأوى؛ لقوة إيمانهم.

- ﴿يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: مِنْ كَرَمِهم وشرف أنفسهم، يُحبّون المهاجرين رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ ويواسونهم بأموالهم إظهارا للأخوة الإسلامية، وهذه المحبة الإيمانية ليست مدّعاة بل هي حقيقية، ولهذا أثنى الله تعالى عليهم بها.

- ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ أي: ولا يجدون في أنفسهم حسدًا للمهاجرين رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ فيما فضَّلَهم الله به من المنزلة والشرف، والتقديم في الذِّكر والرُّتبة، وذلك لصدق إيمانهم وصفاء قلوبهم.

- قوله: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ﴾ يعني: حاجة، أي: يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدؤون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك.

وهذا المقام أعلى من حال الذين وَصَفَ اللهُ بقوله: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾[الإنسان:٨]. فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه، عن أبي هُرَيرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: أتى رجل رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ فقال: «ألا رجل يُضَيّفُ هذا الليلة؟». فقام رجل من

الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فذهب إلى أهله فقال لامرأته: هذا ضَيفُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لا تَدّخريه شيئًا. فقالت: والله ما عندي إلا قوتُ الصبية. قال: فإذا أراد الصبيةُ العَشَاء فنوّميهم، وتعالي فأطفئي السراج، ونَطوي بطوننا الليلة. ففعلَت، ثم غدا الرجل على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فقال: «لقد عجب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -أو: ضحك- من فلان وفلانة»، وأنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[رواه البخاري ومسلم][1].

- وقاهم الله عَزَّوَجَلَّ الشُّح حسب مفهوم الآية، فهم من المفلحين؛ حيث إنَّ من سَلِم من الشح فقد أفلح وأنجح.

- مَدْح الله تعالى التابعين ومن جاء بعدهم إلى قيام الساعة لطلبهم المغفرة للسابقين من المهاجرين والأنصار، ولو لم يكن الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أهل صدق وإيمان لما كان المستغفر لهم ممدوحا.

- المهاجرون والأنصار رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ هم أصحاب السبق بالإيمان، فالله سبحانه ذكر المهاجرين في الآية الأولى، ثم الأنصار في الآية الثانية، وفي الآية الثالثة ذكر بقية المؤمنين قائلا: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ فبقية أهل

---

(١) هذه الوجوه من تفسير ابن كثير (٨/ ٦٩-٧١).

الإيمان يأتون بعد المهاجرين والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

- وَصْفُ الله تعالى التابعين ومن جاء بعدهم إلى قيام الساعة بدعائهم بارئهم تعالى أن ينزع من قلوبهم الغل والحسد والحقد على المؤمنين بإطلاق، وأول المؤمنين وأكرمهم صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ و رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

- لا إيمان لمن لم يُطهِّر قلبه تجاه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فالآيات فيها تقسيم للذين يستحقون الفيء من المؤمنين إلى ثلاثة أقسام: المهاجرون، والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان.

- هذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لأنه جعل لمن بعدهم حظًا في الفيء ما أقاموا على محبة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وموالاتهم والاستغفار لهم، ومن سبَّهم أو واحدًا منهم أو اعتقد فيه شرًا فلا حق له في الفيء، روي ذلك عن مالك وغيره(١).

- الأمر بالاستغفار للصحابة.. قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "أُمِروا أن يستغفروا للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: [أمر الله تعالى بالاستغفار لأصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ،

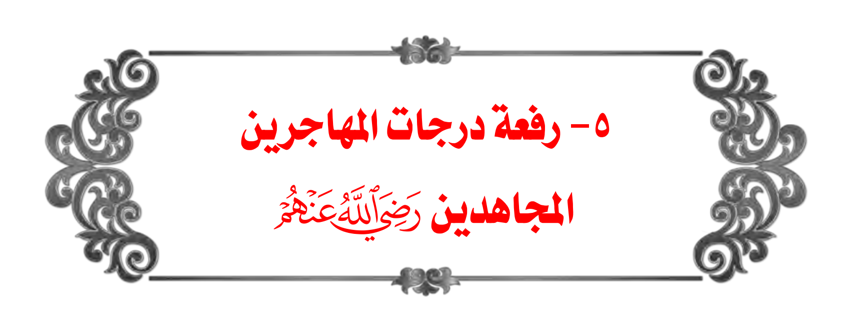
---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٣٢).

وهو يعلم أنهم سيُفْتنون]. وقالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: [أُمِرتم بالاستغفار لأصحاب محمد فسببتموهم]. وقال العوام بن حوشب: [أدركت صدر هذه الأمة يقولون: اذكروا محاسن أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ حتى تألف عليهم القلوب، ولا تذكروا ما شجر بينهم فتُجسِّروا[1] الناس عليهم]. وقال الشعبي: تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة، سئلت اليهود: من خير أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب موسى. وسئلت النصارى: من خير أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب عيسى. وسئلت الرافضة من شر أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب محمد، أُمِروا بالاستغفار لهم فسبوهم، فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة، لا تقوم لهم راية، ولا تثبت لهم قدم، ولا تجتمع لهم كلمة كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله عَزَّوَجَلَّ بسفك دمائهم وإدحاض حجتهم. أعاذنا الله وإياكم من الأهواء المضلة"[2].

(١) الجسارة: هي الجراءة والإقدام على الشيء. النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٢٧٢)، والمعنى: لا تذكروا ما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم فيؤدي هذا إلى جرأة الناس على انتقادهم والإساءة إليهم.

(٢) تفسير القرطبي (١٨/ ٣٣) مختصراً.



٥- رفعة درجات المهاجرين المجاهدين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ

الآيات ٢٠-٢٢ من سورة التوبة

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أنه تعالى ذكر ترجيح الإيمان والجهاد على السقاية وعمارة المسجد الحرام على طريق الرمز، ثم أتبعه بذكر هذا الترجيح على سبيل التصريح في هذه الآية، فقال: إن من كان موصوفًا بهذه الصفات الأربعة كان أعظم درجةً عند الله عَزَّوَجَلَّ ممن اتصف بالسقاية والعمارة، وتلك الصفات الأربعة هي هذه: فأولها الإيمان، وثانيها: الهجرة،

وثالثها: الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ بالمال، ورابعها: الجهاد بالنفس.

وإنما قلنا: إن الموصوفين بهذه الصفات الأربعة في غاية الجلالة والرفعة؛ لأن الإنسان ليس له إلا مجموع أمور ثلاثة: الروح، والبدن، والمال. أما الروح فلما زال عنه الكفر وحصل فيه الإيمان، فقد وصل إلى مراتب السعادات اللائقة بها، وأما البدن والمال فبسبب الهجرة وقعا في النقصان، وبسبب الاشتغال بالجهاد صارا معرضين للهلاك والبطلان، ولا شك أن النفس والمال محبوب الإنسان، والإنسان لا يعرض عن محبوبه إلا للفوز بمحبوب أكمل من الأول، فلولا أن طلب الرضوان أتم عندهم من النفس والمال، وإلا لما رجحوا جانب الآخرة على جانب النفس والمال، ولما رضوا بإهدار النفس والمال لطلب مرضاة الله تعالى، فثبت أن عند حصول الصفات الأربعة صار الإنسان واصلًا إلى آخر درجات البشرية وأول مراتب درجات الملائكة، وأي مناسبة بين هذه الدرجة وبين الإقدام على السقاية والعمارة لمجرد الاقتداء بالآباء والأسلاف ولطلب الرياسة والسمعة؟

فثبت بهذا البرهان اليقين صحة قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾.

واعلم أنه تعالى لم يقل: أعظم درجةً من المشتغلين بالسقاية والعمارة؛

لأنه لو عيَّن ذكرهم لأوهم أن فضيلتهم إنما حصلت بالنسبة إليهم، ولمَّا ترك ذكر المرجوح، دل ذلك على أنهم أفضل من كل من سواهم على الإطلاق، لأنه لا يعقل حصول سعادة وفضيلة للإنسان أعلى وأكمل من هذا الصفات"[1].

يقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم﴾ جوداً منه، وكرمًا وبراً بهم، واعتناءً ومحبةً لهم، ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾ أزال بها عنهم الشرور، وأوصل إليهم بها كل خير.

﴿وَرِضۡوَٰنٖ﴾ منه تعالى عليهم، الذي هو أكبر نعيم الجنة وأجله، فيحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبداً.

﴿وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١﴾ من كل ما اشتهته الأنفس، وتلذ الأعين، مما لا يعلم وصفه ومقداره إلا الله تعالى، الذي أعد للمجاهدين في سبيله مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، ولو اجتمع الخلق في درجة واحدة منها لوسعتهم.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ﴾ لا ينتقلون عنها، ولا يبغون عنها حِوَلاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٢﴾ لا تُستَغرب كثرتُه على فضل الله عَزَّوَجَلَّ ولا يُتَعَجَّب من

(١) تفسير الرازي (١٦/ ١٣-١٤).

عِظَمه وحُسْنه على من يقول للشيء: كن، فيكون"[1].

أوجه الثناء:

- الثناء على المهاجرين بذكرهم بوصف الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾.

- أن إيمانهم تجسد في أعظم صور البذل والتضحية، وتقديم أغلى الأثمان في تحقيق إيمانهم وهو الأنفُس والأموال ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، والأنصار يشاركون إخوانهم المهاجرين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ جميعاً في التضحية بالنفس والمال وكذلك الديار، حتى عَرَّضوا ديارهم في المدينة للهجوم عليها من الكفار كما حصل في أحد والخندق.

- شهد الله تعالى لهم بأنهم هاجروا في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ وتركوا أموالهم وديارهم وعشيرتهم وخلّانهم ابتغاء مرضاة الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، جاهدوا وقاتلوا في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، وقد شهد جَلَّجَلَالُهُۥ بصدق نيتهم في ذلك. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وقلّ أن يحوز بشر مثل هذه الشهادة العظيمة.

---

(١) تفسير السعدي (ص:٣٣٢).

- ﴿أَعۡظَمُ دَرَجَةً﴾ ناهيك بها من رفعة، وشرف كبير، وتفضيل لهم على غيرهم، وقد تقدم قول الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولما ترك ذكر المرجوح، دل ذلك على أنهم أفضل من كل من سواهم على الإطلاق".

- ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ هم أعظم درجة عند الله عَزَّوَجَلَّ، فكيف مكانتهم بين الأمم السابقين واللاحقين، وهذه الإضافة (عند الله) تساوي كنوز الدنيا كلها، ولا يلحق بهذه المنزلة إلا الخُلَّص ممن سار على نهجهم.

- ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ حصْر وقصْر للفوز على المهاجرين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ تشريفًا لهم، وإن كان هناك فائزون غيرهم، إلا أن فوزهم هو الأعظم، حتى كأنه لا فوز إلا فوزهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ، ويلحق بهم الأنصار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ في ذلك.

- وتتوالى المكرمات لسادات الأرض، الذين استخلفهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها ومكن لهم دينهم، ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾ ويا لها من بشرى يصيخ[1] لها الدهر، وما أدراك ما رحمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ؟!

- ﴿وَرِضۡوَٰنٖ﴾ والرضوان كمال الرضا من الله تعالى عن أوليائه، ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾[التوبة:٧٢].

(١) يصيخ: يستمع وينصت. لسان العرب (٣/ ٣٥).

- ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٢﴾؛ فهنيئًا لهم تلك المكارم والمعالي، التي لم ينالوها بالأماني ولا بالتواني، وإنما ببذل كل شيء يقدرون عليه في سبيل مرضاة ملك الملوك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولا نستغرب قيام فئام من الناس بسبِّهم وشتمهم من يهود ونصارى ومجوس بسبب زوال ملكهم وانكسار دولهم وظهور التوحيد، لكن العجب كل العجب أن يتأثر بهم من ينتسب إلى الإسلام وهو يقرأ هذه النصوص الواضحة في فضلهم!!



٦- البشارة لأهل أُحُد شهدائهم وأحيائهم رضي الله عنهم

الآيات ١٦٩-١٧٤ من سورة آل عمران

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قُتلوا في هذه الدار فإن أرواحهم حيَّة مرزوقة في دار القرار.

وعن مسروق قال: سألنا عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك؟ فقال: «أرواحهم في جوف طيرٍ خضرٍ، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل» [رواه مسلم]، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «الشهداء على بارقٍ - نهرٍ بباب الجنة - في قبةٍ خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرةً وعشياً» [رواه أحمد].

وكأن الشهداء أقسام: منهم من تسرح أرواحهم في الجنة، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر فيجتمعون هنالك، ويُغدَى عليهم برزقهم هناك ويُراح.

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: الشهداء الذين قُتلوا في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ أحياءٌ عند الله عَزَّوَجَلَّ، وهم فَرحون مما هم فيه من النعمة والغبطة، ويستبشرون بإخوانهم الذين يُقتلون بعدهم في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ: أنهم يَقدُمون عليهم، وأنهم لا يخافون مما أمامهم، ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم.

ثم قال: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: قال محمد بن إسحاق: استبشَروا وسُرُّوا لما عاينوا من وفاء الموعود وجزيل

الثواب، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم، سواء الشهداء وغيرهم، وقَلَّما ذكر اللهُ فضلًا ذكر به الأنبياء وثوابًا أعطاهم إلا ذكر ما أعطى الله المؤمنين من بعدهم.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ﴾: هذا كان يوم (حمراء الأسد)، وذلك أن المشركين لـمّا أصابوا ما أصابوا من المسلمين كرُّوا راجعين إلى بلادهم، فلما استمروا في سيرهم تَنَدّمُوا لـمَ لا تَمَّموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصَلة! فلما بلغ ذلك رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليُرْعِبَهم ويُريهم أنَّ بهم قُوّةً وجلَدًا، ولم يأذنْ لأحد سوى من حضر الوقعة يوم أحد، سوى جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان، طاعةً لله ولرسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ.

وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآية، قالت لعروة: يا ابن أختي، كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر، لمّا أصاب نبيّ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا فقال: «من يرجع في إثرهم؟» فانتدبَ منهم سبعون رجلًا فيهم أبو بكر والزبير [رواه البخاري].

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي: الذين توعَّدهم الناس بالجموع وخوَّفوهم بكثرة الأعداء، فما اكترثوا لذلك، بل توكلوا على الله عَزَّوَجَلَّ واستعانوا به ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾: [قالها إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ حين أُلْقِي في النار، وقالها محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾] [رواه البخاري]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ أي: لما توكلوا على الله عَزَّوَجَلَّ كفاهم ما أهمَّهُمْ وَردَّ عنهم بأس من أراد كيدَهم، فرجعوا إلى بلدهم ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ مما أضمَر لهم عدوهم ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾"(١).

شاء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بعد تسلية تلك القلوب المؤمنة أن يزيدها طمأنينة وراحة، فكشف لها عن مصير الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ - وليس هنالك شهداء إلا الذين يقتلون في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ خالصة قلوبهم لهذا المعنى، مجردة من كل ملابسة أخرى - فإذا هؤلاء الشهداء أحياء، لهم كل خصائص الأحياء؛ فهم ﴿يُرْزَقُونَ﴾ عند ربهم، وهم فرحون بما آتاهم الله

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٦١-١٧١) بتصرف.

سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ من فضله، وهم يستبشرون بمصائر من وراءهم من المؤمنين، وهم يحفلون الأحداث التي تمر بمن خلفهم من إخوانهم.

فهذه خصائص الأحياء: من متاع واستبشار واهتمام وتأثر وتأثير، فما الحسرة على فراقهم؟ وهم أحياء موصولون بالأحياء وبالأحداث، فوق ما نالهم من فضل الله جلَّ في علاه، وفوق ما لقوا عند الله عَزَّوَجَلَّ من الرزق والمكانة كما أخبر الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ عن ذلك في محكم التنزيل.

أوجه الثناء:

- الآيات (١٦٩-١٧١) في شهداء أحد، وقيل: في شهداء بئر معونة[(١)]، والآيات عامة، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهؤلاء من أجِلَّة الصحابة المؤمنين الذين أكرمهم الله تعالى بالشهادة، وحكم لهم بالإيمان.

- البشارة لمن بقي من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ولم يستشهد يوم أحد، فقد رأوا إخوانهم الشهداء واطلعوا على ما يسرُّ من حالهم فاستبشروا به، وجاءت هذه البشارة من الله تعالى أنه ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

- في الآيات بشارة لمن بقي من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أنه لن تصيبهم نكبة

---

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (١/ ٣٤٦-٣٤٧).

بعد ذلك اليوم، لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

- جاءت الآيات مواساة للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وتخفيفًا عنهم وردًّا على شبهة من أراد تثبيط المؤمنين وشَمَت بهم يوم أحد، فالآية قبلها: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾، ثم جاءت هذه الآيات بعدها مباشرة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ﴾...

- ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ صفة للمؤمنين في آخر الآية قبلها: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾؛ فهم مؤمنون، وقد وعدهم الله جَلَّ جَلَالُهُ أن لا يضيع أجرهم.

- استجابوا لله عَزَّوَجَلَّ والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ رغم الجراح والقرح والألم، وفداحة المصاب، وهذا دأبهم في المنشط والمكره، والعسر واليسر، ومنهجهم الذي عُرفوا به، فمهما أصابهم ومهما نزل بهم فإنه لا يحول بينهم وبين الاستجابة لأمر الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ حائل، ولا يمنعهم من ذلك مانع، وهي استجابة تامة، لا يسألون: لِمَ؟ وكيف؟ بل يستمعون الأمر فيُنَفِّذون، ولا ينتظرون من وراء ذلك نفعًا ولا مصلحة، بل كل ما يطلبونه هو طاعة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ،

فشتان ما بينهم وبين المنافقين، ومن كان في دينه رقة ممن قال تعالى فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾[الحج:١١].

- ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ وكلهم ذوو إحسان وتقوى، فكانوا جديرين بالأجر العظيم، قمنين[(١)] بالفوز الكبير، لا تزيدهم الابتلاءات إلا ثباتًا وقوةً في الإيمان وصدقًا في اليقين، ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾.

- أثابهم الله تعالى عن إيمانهم وتصديقهم موعود ربهم، ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾.

- إخبار الله تعالى عن نبل غايتهم ونقاء سريرتهم وطهارة نياتهم رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ وأرضاهم، فثوابه إياهم لأنهم اتبعوا رضوان الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾، ولفظ ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾ أصل عظيم في بيان المنهج، فهو يشمل الإخلاص وصدق المتابعة.

- شهداء أحد يزورهم الشيعة، مع أنهم لم يكونوا ممن يؤمنون بالإمامة والولاية حسب معتقد الشيعة، فإما أنهم ليسوا بمؤمنين، أو أن الإمامة

---

(١) جمع قَمِن، بمعنى: جدير وحقيق بالشيء. المصباح المنير (٢/ ٥١٧).

والولاية ليست من الإيمان في شيء. ومعتقد الشيعة أن الولاية نادى بها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في غدير خم بعد رجوعه من حجة الوداع، فتأمل ذلك.



٧- نعمة الله تعالى على الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بتأليف القلوب والإنقاذ من النار

الآية ١٠٣ من سورة آل عمران

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٠٣ ﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ قيل: ﴿بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: بعهد الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال في الآية بعدها: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[آل عمران:١١٢]، أي: بعهد وذمة، وقيل: ﴿بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني: القرآن.

وقوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة، وقد وردت

الأحاديثُ المتعددة بالنهي عن التفرق والأمر بالاجتماع والائتلاف، منها: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا، ويسخط لكم ثلاثًا، يرضى لكم: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله عَزَّوَجَلَّ جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله عَزَّوَجَلَّ أمركم؛ ويسخط لكم ثلاثًا: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»[أخرجه مسلم].

وقوله: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ وهذا السياق في شأن الأوْس والخَزْرَج رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، فإنه كانت بينهم حُروبٌ كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة وضغائن، وإحَنٌ وذُحُولٌ[1] طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله عَزَّوَجَلَّ بالإسلام فدَخل فيه من دخل منهم، صاروا إخوانًا متحابين بجلال الله عَزَّوَجَلَّ، متواصلين في ذات الله عَزَّوَجَلَّ، متعاونين على البر والتقوى، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾[الأنفال:٦٢-٦٣]، وكانوا على شَفا حُفْرة من النار بسبب كفرهم، فأبعدهم الله منها.

(١) جمع (ذَحل) وهو الثأر. لسان العرب (١١/ ٢٥٦).

وقد امتنَّ عليهم بذلك رسولُ الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ يوم قَسَم غنائم حُنَيْنٍ، فَعتَبَ مَن عتب منهم لـمَّا فَضَّل عليهم في القِسْمَة بما أراه الله تعالى، فخطبهم فقال: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالةً فأغناكم الله بي؟» كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمَنّ"[(١)][(٢)].

فأخبر النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ هنا خبرا جليلا أن الله قد هداهم به، وهذه شهادة عظيمة من الرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ لهم.

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ثنَّى أمرهم بما فيه صلاح أنفسهم لأخراهم، بأمرهم بما فيه صلاح حالهم في دنياهم، وذلك بالاجتماع على هذا الدين وعدم التفرق ليكتسبوا باتحادهم قوة ونماء"[(٣)].



أوجه الثناء:

- منة الله تعالى ونعمته على الصحابة الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بأن ألَّف بين قلوبهم وهداهم للإيمان بعد كفرهم، وقد خلَّد الله عَزَّ وَجَلَّ ذلك في القرآن

---

(١) البخاري (٥/ ١٥٧ رقم ٤٣٣٠)، مسلم (٢/ ٧٣٨ رقم ١٠٦١).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٨٩-٩٠) مختصراً.

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ٣١).

العظيم.

- بسبب نعمة تأليف قلوبهم أصبحوا إخوة متحابين بعد العداوة والبغضاء والتنافر، والمتحابون في الله جَلَّ جَلَالُهُ على منابر من نور يوم القيامة(١).

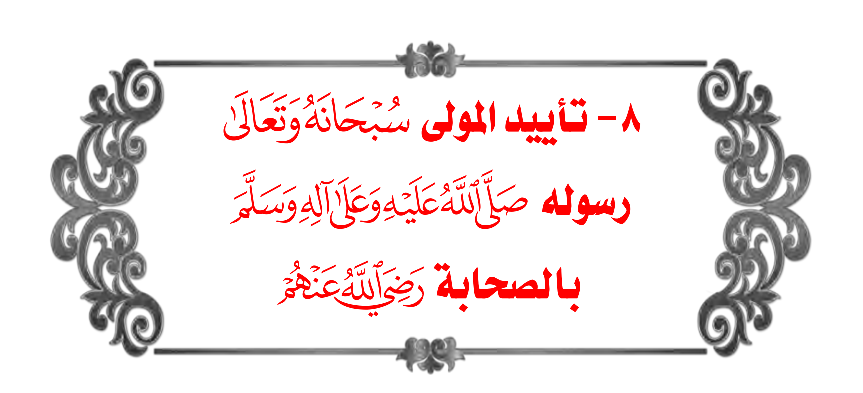
- نتيجة النعمة الثانية - وهي الإيمان- إخبار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه أنقذهم من النار التي كانوا على شفا حفرة منها، وذلك نتيجة لنعمته عليهم بالإيمان.

- مفهوم الآية أنهم من أهل الجنة؛ وذلك أنه لما أنقذهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من النار، فيلزم أنهم من أهل الجنة.

- في الآية رد على الشيعة الذين يحكمون بالنار على الصحابة، فالله جَلَّ وَعَلَا قد أنقذهم من النار، وهؤلاء يقولون بضد ذلك، نسأل الله العافية.

---

(١) جاء من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: قال الله عَزَّ وَجَلَّ: «المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء». الترمذي (٤/ ١٧٥ رقم ٢٣٩٠).



٨- تأييد المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بالصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ

الآيات ٦٢-٦٤ من سورة الأنفال

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة؛ ليتقوَّوا ويستعِدوا ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: كافيك وحده.

ثم ذكر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾

أي: جمعها على الإيمان بك، وعلى طاعتك ومناصرتك وموازرتك.

﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: لما كان بينهم من العداوة والبغضاء فإن الأنصار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل في الشر، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾[آل عمران:١٠٣].

وفي الصحيحين أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ لَـمَّا خطب الأنصار في شأن غنائم حنين قال لهم: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلّالًا فهداكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بي؟» كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنّ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ أي: عزيز الجناب، فلا يخيب رجاء من توكل عليه، حكيم في أفعاله وأحكامه.

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ الآية، قال: [هم المتحابون في الله]. وفي رواية: [نزلت في المتحابين في الله عَزَّ وَجَلَّ]. وقال مجاهد: إذا تراءى المتحابان في الله عَزَّ وَجَلَّ،

فأخذ أحدهما بيد صاحبه، وضحك إليه، تحاتت خطاياهما كما يتَحاتّ ورق الشجر. قال عبدة: فقلت له: إن هذا ليسير! فقال: لا تقل ذلك؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾. قال عبدة: فعرفت أنه أفقه مني.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ يحرض تعالى نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران، ويخبرهم أنه حسبُهم، أي: كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قلّ عدد المؤمنين، قال الشعبي في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: حسبك الله، وحسب من شهد معك. وعن عطاء الخراساني، وعبد الرحمن بن زيد مثله"[(١)].

فجعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **اختيار الصحابة وهدايتهم منة منه** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **على رسوله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها منته على رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وعلى الصحابة عامة وعلى الأنصار خاصة، بتأليف قلوبهم، ثم بعدها ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منته

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٨٤-٨٦) مختصراً.

على رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓءَالِهِۦوَسَلَّمَ وعطف بالصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ ﴿حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ حسبكم جميعًا وهو ناصركم ومولاكم.

وقال ابن عطية رَحِمَهُٱللَّهُ: "﴿يَخۡدَعُوكَ﴾ بأن يُظهِروا له السلم ويُبطِنوا الغدر والخيانة، أي: فاجنح وما عليك من نياتهم الفاسدة، ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: كافيك ومعطيك نصرة وإظهاراً، وهذا وعد محض، و﴿أَيَّدَكَ﴾ معناه: قوَّاك، و﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يريد: بالأنصار، بقرينة قوله ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ الآية، وهذه إشارة إلى العداوة التي كانت بين الأوس والخزرج في حروب بعاث فألَّف الله تعالى قلوبهم على الإسلام وردَّهم متحابين في الله عَزَّوَجَلَّ، وعددت هذه النعمة تأنيسًا لمحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓءَالِهِۦوَسَلَّمَ، أي: كما لطف بك ربك أولاً فكذلك يفعل آخراً"[(١)].

أوجه الثناء:

- منَّة الله جلَّ ثناؤه على نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓءَالِهِۦوَسَلَّمَ بتأييده بنصره وبالمؤمنين، وهم الصحابة الذين قاتلوا معه، قال ابن عطية رَحِمَهُٱللَّهُ:

---

(١) تفسير ابن عطية (٢/ ٥٤٨).

"تظاهرت أقوال المفسرين أنها في الأوس والخزرج ... ولو ذهب إلى عموم المؤمنين في المهاجرين والأنصار وجعل التأليف ما كان من جميعهم من التحاب حتى تكون ألفة الأوس والخزرج جزءا من ذلك لساغ ذلك"[١].

- منّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وعلى المؤمنين بتأليف القلوب الذي لا يُنال إلا برحمة من الله وكرامة منه جَلَّ وَعَلَا لأوليائه المتقين.

- ما حصل من تآلف بين قلوب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من الأنصار أوسهم وخزرجهم، وبينهم وبين المهاجرين أمر لا يمكن لكنوز الأرض جميعها أن تُنتج تآلفًا حقيقيًا مثله، وهذه مكرمة إلهية للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وصحابته الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وفي هذا رد على الأساطير والقصص التي حكاها أعداء الصحابة بشأنهم، وتلك الأساطير والقصص طار بها اليهود والنصارى فرحًا؛ وذلك لتشويه شخص رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وادّعاء أن الحواريين أزكى وأفضل من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكذلك قال اليهود مثل قولهم.

- حسبُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ناصرًا أن الله جَلَّ جَلَالُهُ ناصره، ومن

---

(١) تفسير ابن عطية (٢/ ٥٤٨).

ذلك تأييده بمن اتبعه من المؤمنين.

- وصف الله جَلَّ وَعَلَا الصحابة بالإيمان في آيات متتابعة لأجل تأكيد قوة إيمانهم، وأن هؤلاء كُمَّل من الناس، نصرك الله بهم، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾

- إيمان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ليس مجرد ادعاء أو قول بلا عمل، بل اتباع وامتثال، وهذا ما يتضمنه قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ فقد شهد المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم بالإيمان، وتحقَّق نصر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وللصحابة بعده بفتح البلاد لهم، وكسب المغانم.

- تأييد الله تعالى لنبيه بالصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ دليل على أنهم كانوا عدداً كبيراً وجيشاً من المؤمنين الصادقين، وليس كما يدعي الرافضة من أن المؤمنين كانوا قلة قليلة.



الآية ١٠ من سورة الفتح

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال تعالى لرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ تشريفًا له وتعظيمًا وتكريمًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، كقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[النساء:٨٠]، ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ

مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[التوبة:١١١].

ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي: إنما يعود وَبَال ذلك على الناكث، والله غَنِي عنه، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثوابًا جزيلًا.

وهذه البيعة هي بيعة الرضوان، وكانت تحت شجرة سَمُر بالحديبية، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ يومئذٍ ألفًا وثلاثمائة. وقيل: وأربعمائة. وقيل: وخمسمائة. والأوسط أصح(١)، وعن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «كُنَّا يوم الحديبية ألفًا وأربعمائة» [متفق عليه]، وعنه قال: «كُنَّا يومئذٍ ألفًا وأربعمائة، ووضع يده في ذلك الماء، فنَبَعَ الماء من بين أصابعه، حتى رَووا كلهم» [متفق عليه]. وهذا مختصر من سياق آخر حين ذَكَر قصة عَطَشِهم يوم الحديبية، وأن رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ أعطاهم سهمًا من كنانته، فوَضَعُوه في بئر الحديبية، فجَاشَت بالماء، حتى كَفَتْهُم، فقِيْل لجابر: كم كنتم يومئذٍ؟ قال: كُنَّا ألفًا وأربعمائة، ولو كُنَّا مائة ألف لكَفَانا [رواه البخاري]. وكذلك هو في رواية سلمة بن الأكوع ومعقل بن يسار والبراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ. وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازي

---

(١) من حذف الكسر جعلها أربعمائة، والذين جبروا الكسر جعلوها خمسمائة، على عادة العرب.

والسير.

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة: أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال حين بَلَغَه أن عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قد قُتِل: «لا نَبْرَح حتى نُنَاجِزَ القوم». ودعا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ الناس إلى البيعة. فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: «بايعهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ على الموت»، وكان جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: «إن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ لم يبايعهم على الموت، ولكن بايعنا على ألَّا نَفِرّ»، فبايع الناس، ولم يَتَخَلَّف أحد من المسلمين حَضَرَها إلا الجَدُّ بن قيس أخو بني سَلِمَة، فكان جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: [والله لَكَأَنِّي أنظر إليه لاصقًا بإبط ناقته، قد ضَبَأَ[1] إليها يَستَتِر بها من الناس، ثُمَّ أَتَى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أن الذي كان من أَمْر عثمان باطل].

وعن أم مُبَشِّر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنها سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يقول عند حفصة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «لا يدخل النار -إن شاء الله- من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد» [رواه مسلم].

وعن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن عبدًا لحاطب بن أبي بَلْتَعَة جاء يشكو حاطبًا،

(١) أي: لجأ واختبأ. مقاييس اللغة (٣/ ٣٨٩).

فقال: يا رسول الله! لَيَدْخُلَنَّ حاطبٌ النار، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «كَذَبْتَ، لا يدخلُها؛ فإنه قد شَهِدَ بدرًا والحديبية» [رواه مسلم].

ولهذا قال تعالى في الثناء عليهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨]"(١).

قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمبايعة في هذه الآية مفاعلة من البيع، لأن الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وبقي اسم البيعة بعد معاقدة الخلفاء والملوك"(٢).

وقد جاء صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ليصل أصحابه بالله عَزَّ وَجَلَّ ويزكيهم، وعقد بينهم وبينه عدة بيعات وهذه أشهرها وهي بيعة ماضية لا تنقطع بغَيْبَة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عنهم، فهو حين يضع يده في أيديهم مبايعًا، فإنما يبايع عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٢٩-٣٣٦) مختصراً.

(٢) تفسير ابن عطية (٥/ ١٢٩).

أَيْدِيهِمْۚ ﴾..

وهو تصوير رهيب جليل للبيعة بينهم وبين رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ والواحد منهم يشعر - وهو يضع يده في يده - أن يد الله جلَّ ثناؤه فوق أيديهم، فالله عَزَّوَجَلَّ حاضر البيعة، والله صاحبها، والله آخذها، ويده فوق أيدي المتبايعين.. ومن المبايع؟ الله جَلَّجَلَالُهُ! يا للهول! ويا للروعة! ويا للجلال! وإن هذه الصورة لتستأصل من النفس خاطر النكث بهذه البيعة- مهما غاب شخص رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ فالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ حاضر لا يغيب، والله سبحانه آخذ في هذه البيعة ومعطٍ، وهو عليها رقيب.

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ﴾ فهو الخاسر في كل جانب، هو الخاسر في الرجوع عن الصفقة الرابحة بينه وبين الله تعالى، وما من بيعة بين الله وعبد من عباده إلا والعبد فيها هو الرابح من فضل الله تعالى، والله هو الغني عن العالمين، فالناكث هو الخاسر حين ينكث وينقض عهده مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيتعرض لغضبه وعقابه على النكث الذي يكرهه ويمقته، فالله يحب الوفاء ويحب الأوفياء.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ هكذا على إطلاقه: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ لا يُفصِّله ولا يُحدِّده، فهو الأجر الذي يقول عنه الله تعالى: إنه عظيم.



أوجه الثناء:

- فضل عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لما يلي:

• كانت البيعة على الثبات مهما كلف الأمر -عُبّر عنه بالبيعة على الموت، وعدم الفرار- والمواجهة الحاسمة مهما كانت التضحيات، وذلك لأجل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

• اختاره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ دون سائر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ليكون مُبلِّغًا عنه، مفاوضًا باسمه، قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:]أما تَغَيُّبُهُ عن بيعة الرضوان، فإنه لو كان أحد أعزَّ ببطن مكة من عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لبعثه مكانه، فبعث عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)، بسبب إشاعة أن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد قُتِل.

• لما لم يحضر البيعة، بايع بالنيابة عنه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، يقول ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ..]وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى مكة، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بيده اليمنى: هذه يد عثمان -فضرب بها على يده، فقال:- هذه لعثمان[(٢).

---

(١) البخاري (٥/ ٩٨ رقم ٤٠٦٦).

(٢) الحديث السابق.

- فَضْل عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ؛ إذ إن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓءَالِهِۦوَسَلَّمَ اختاره في البداية ليكون رسوله إلى قريش؛ لثقته وجدارته لمثل هذه المهمة الخطرة، فقال له عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «يا رسول الله! لا ترسلني إليهم فإني أتخوفهم على نفسي، ولكن أرسل عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ»(١).

- فضل أبي سنان بن وهب الأسدي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ؛ إذ هو أول من بايع في بيعة الرضوان(٢).

- فضل سلمة بن الأكوع رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ حيث بايع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓءَالِهِۦوَسَلَّمَ ثلاث مرات، قال سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: .. بايعته أول الناس، حتى إذا كان في وسط من الناس، قال: «بايع يا سلمة» قال: قلت: قد بايعتك يا رسول الله! في أول الناس، قال: «وأيضًا»، ثم بايع، حتى إذا كان في آخر الناس، قال: «ألا تبايعني يا سلمة؟» قال: قلت: قد بايعتك يا رسول الله! في أول الناس، وفي أوسط الناس، قال: «وأيضًا»، قال: فبايعته الثالثة(٣).

- فضل حاطب بن أبي بلتعة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، تقدم حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أن

(١) السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٣٧٠ رقم ١٨٨٠٨)، وينظر أيضًا: مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٣٨٦ رقم ٣٦٨٥٢).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٣١٦).

(٣) مسلم (٣/ ١٤٣٤ رقم ١٨٠٧) بطوله.

عبدًا لحاطب بن أبي بَلْتَعَة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ جاء يشكو حاطبًا، فقال: يا رسول الله! لَيَدْخُلَنَّ حاطبٌ النار، فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ: «كَذَبْتَ، لا يدخلُها؛ فإنه قد شَهِدَ بدرًا والحديبية»[(١)]، والحديث يشمل غيره ممن بايع بيعة الرضوان وشهد بدراً.

- فضل أصحاب بيعة الرضوان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ عموما لما يلي:

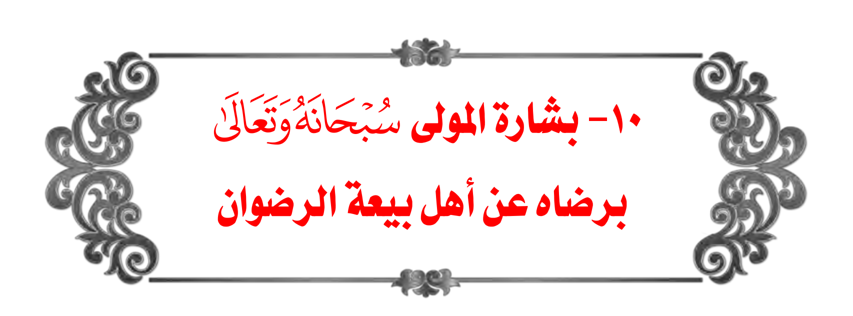
- ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، وتأكيدا على أمر هذه البيعة وأن الله تعالى مباركٌ لها ولأصحابها قال: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ ويا لها من فضيلة.

- ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ والصحابة الذين بايعوا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ بيعة الرضوان؛ لم يُعرف عنهم نكث للعهد، بل وفوا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ حتى لقوا الله تعالى، ولهذا استحقوا ألا يدخل النار منهم أحد كما تقدم، واستحقوا الخيرية التي شهد لهم بها النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ حين قال للصحابة يوم بيعة الرضوان: «أنتم خير أهل الأرض»[(٢)].

---

(١) مسلم (٤/ ١٩٤٢ رقم ٢٤٩٥).

(٢) البخاري (٥/ ١٢٣ رقم ٤١٥٤)، ومسلم (٣/ ١٤٨٤ رقم ١٨٥٦)، عن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.



١٠- بشارة المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ برضاه عن أهل بيعة الرضوان

الآيتان ١٨-١٩ من سورة الفتح

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ يُخْبِرُ تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ تحت الشجرة، وقد تقدَّم ذِكر عِدَّتِهم، وأنهم كانوا ألفًا وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سَمُرَةً بأرض الحديبية.

عن طارق بن عبد الرحمن قال: [انطلقتُ حاجًّا فمَرَرْت بقوم يصلون،

فقلت ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة، حيث بايع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بيعة الرضوان. فأتيتُ سعيد بن المسيب فأخبرتُه، فقال سعيد: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تحت الشجرة. قال: فلمَّا خَرَجْنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لم يعلموها وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم!] [رواه البخاري].

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة، ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ وهي الطمأنينة، ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو ما أَجْرَى الله تعالى على أيديهم من الصُّلْح بينهم وبين أعدائهم، وما حَصَل بذلك من الخير العام المستمر الـمُتَّصِل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حَصَل لهم من العِزِّ والنَّصْر والرِّفْعَة في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾"(١).

علم ما في قلوب الصحابة من حمية لدينهم لا لأنفسهم، وعلم ما في قلوبهم من الصدق في بيعتهم، وعلم ما في قلوبهم من كظم لانفعالاتهم تجاه الاستفزاز، وضبط لمشاعرهم ليقفوا خلف كلمة رسول الله

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٣٩-٣٤٠).

صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ طائعين مسلمين صابرين.

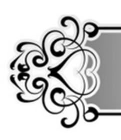
﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ بهذا التعبير الذي يرسم السكينة نازلة في هينة[1] وهدوء ووقار، أضفى على تلك القلوب الحارة المتحمسة المتأهبة المنفعلة، برداً وسلاماً وطمأنينةً وارتياحاً.

﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨﴾ هو هذا الصلح بظروفه التي جعلت منه فتحاً، وجعلته بدء فتوح كثيرة قد يكون فتح خيبر واحداً منها، وهو الفتح الذي يذكره أغلب المفسرين على أنه هو هذا الفتح القريب الذي جعله الله عَزَّ وَجَلَّ للمسلمين.

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ﴾ إما مع الفتح إن كان المقصود هو فتح خيبر، وإما تالياً له، إن كان الفتح هو هذا الصلح، الذي تفرغ به المسلمون لفتوح شتى.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٥٨﴾ وهو تعقيب مناسب للآيات قبله ففي الرضا والفتح والوعد بالغنائم تتجلى القوة والقدرة، كما تتجلى الحكمة والتدبير، وبهما يتم تحقيق الوعد الرباني الكريم.

(١) أي: السكينة والوقار والسهولة. لسان العرب (١٣/ ٤٤٠).



أوجه الثناء:

- أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قد رضي عنهم، ورضا الله جَلَّ جَلَالُهُ أسمى مطلوب الأنبياء، كما قال تعالى عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾[طه:٨٤]. فرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن أصحاب بيعة الرضوان وأنعم به من جزاء، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة:٧٢]، وإذا كان الله جَلَّ جَلَالُهُ قد رضي عنهم فيجب على جميع المسلمين الرضا عن هذه الثلة المباركة التي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، يقول الألوسي: "فينبغي لكل من يدعي الإسلام حبهم وتعظيمهم والرضا عنهم، **وإن كان غير ذلك لا يضرهم بعد رضا الله تعالى عنهم**"[(١)].

- عَلِم الله تقدست أسماؤه ما في قلوب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من الإخلاص والصدق والوفاء؛ ما ترتب عليه ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة.. وهذا ثناء على طهارة قلوبهم، ونقاء سريرتهم، ونبل مقصدهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

- أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ على الصحابة السكينة، وهي الوقار والطمأنينة؛ لنقاء

---

(١) روح المعاني (٢٦/ ١٠٨).

قلوبهم وصدقهم ووفائهم، وجميل فعالهم.

- أثاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - مع ما أنزل عليهم من البشارات العظيمة والرضا والسكينة- بفتح قريب وهو فتح خيبر، وكانت غزوة خيبر خاصة بأصحاب بيعة الرضوان فقط، وغنائمها خاصةً بهم دون غيرهم، باستثناء جعفر ومن معه الذين أكرمهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في غنائم خيبر(١).

- هذه الآيات فيها معجزات ظاهرة، نزلت والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قد رجعوا بلا عمرة، وحصل لهم ما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه السورة، والله عَزَّ وَجَلَّ لا يخلف وعده، فقد خاطبهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ﴾ وبشرهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ وهي لهم: ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ وقد تحقق ذلك كله، فأخذوا مغانم خيبر، وكانت لهم خاصة، ثم فتح الله عليهم بلادًا لم يخطر على بال رجل عاش ذاك التاريخ أن يفتحها العرب، بلاد فارس كلها، وبلاد الشام اليوم أربع دول ومصر وما حولها والعراق وشمالها، كلها تمت في عصر الخلافة الراشدة، وكل الخلفاء الراشدين شهدوا بيعة الرضوان

---

(١) عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان ممن قدم مع جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قدمنا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بعد أن افتتح خيبر فقسم لنا، ولم يقسم لأحد لم يشهد الفتح غيرنا»، البخاري (٥/ ١٣٨ رقم ٤٢٣٣).

رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

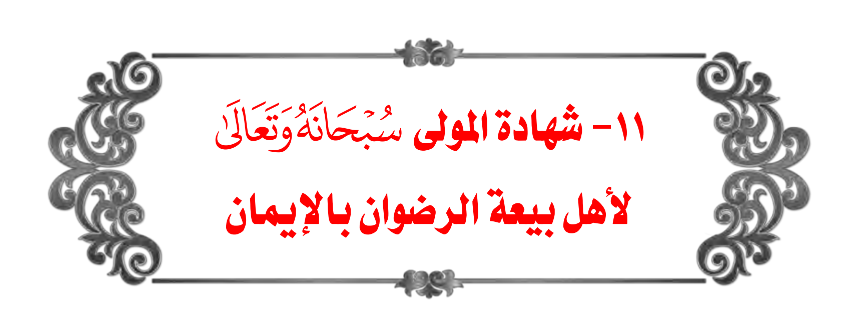
وهذا الوعد تحقق بعد وفاة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وبقي أهل البيعة على عهدهم، وصدقوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فحقق لهم وأنجز وعده لهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهل يفقه هذا من طعن في الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؟!

يقول ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فكل من تقدَّم ذِكره من المهاجرين والأنصار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ إلى تمام بيعة الرضوان فإننا نقطع على غيب قلوبهم، وأنهم كلهم مؤمنون صالحون، ماتوا على الإيمان والهدى والبر، كلهم من أهل الجنة، لا يلج أحد منهم النار البتة؛ لقول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾[الواقعة:١٠-١٢] ولقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾[الفتح:١٨].

قال أبو محمد: فمن أخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ أنه علم ما في قلوبهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأنزل السكينة عليهم فلا يحلَّ لأحد التوقفُّ في أمرهم ولا الشكُّ فيهم البتة"[(١)].

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ١١٦).



١١- شهادة المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأهل بيعة الرضوان بالإيمان

الآية ١٢ من سورة الفتح

﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾

والخطاب للمخلَّفين في الآية قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴾.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول تعالى مُخْبِرًا رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بما يَعْتَذِر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهليهم وشُغْلِهم،

وتركوا المسير مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ، فاعتذروا بشغلهم بذلك، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ، وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانَعة[1]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾.

﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢا﴾ أي: لا يقدر أحد أن يَرُدَّ ما أراده فيكم تعالى وتقدَّس، وهو العليم بسرائركم وضمائركم، وإن صانعتمونا وتابعتمونا؛ ولهذا قال: ﴿بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا﴾.

ثم قال: ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا﴾ أي: لم يكن تَخَلُّفُكم تَخَلُّفَ معذور ولا عاصٍ، بل تَخَلُّف نفاق.

﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا﴾ أي: اعتقدتم أنهم يُقْتَلُون وتُسْتَأْصَلُ شأفتهم، وتُسْتَبَادُ خضراؤهم، ولا يرجع منهم مُخْبِر، ﴿وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ أي: هَلْكَى. قاله ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا

(١) وهل النفاق إلا هذا، وحاشا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ والمرسلين والأنبياء أن يجعلوا التقية منهجاً أو يتعاطوها، فضلاً أن يجعلوها ديناً، وقد سار الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ على هدي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ، ومنهم أقاربه وآل بيته رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، فهل أدرك الشيعة أن التقية مذمَّة ووصمة عار عند الرجال ناهيك عن أفضل الخلق من الرسل والصحابة الكرام!! فلم تكن ديناً وديدناً وعادةً.

ومجاهد وغير واحد. وقال قتادة: فاسدين"[1].

وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يعني: لم يكن تخلفكم لما ذكرتم، بل ظننتم أن لن ينقلب، و(أن) مخففة من الثقيلة، أي: ظننتم أنهم لا ينقلبون ولا يرجعون، وقوله: ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ يعني: ظننتم أوَّلاً، فزين الشيطان ظنكم عندكم حتى قطعتم به، وذلك لأن الشبهة قد يزينها الشيطان، ويضم إليها مُخايَلة[2] يقطع بها الغافل، وإن كان لا يشك فيها العاقل"[3].

فتأمل أخي الكريم ما ذكر الله جَلَّجَلَالُهُ عن قلوب المنافقين وما ذكره عن قلوب الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾.

أوجه الثناء:

- وَصْفُ الله تعالى صحابة رسوله الكريم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ بالإيمان في قوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾، وهم أصحاب الحديبية، الذين بايعوا بيعة الرضوان.

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٢٧).

(٢) من الخيال وهو اشتباه الشيء. لسان العرب (١١/ ٢٣١).

(٣) تفسير الرازي (٢٨/ ٧٤).

- أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شنَّع على المتخلفين عن الحديبية ظنَّهم السوء برسوله الكريم وصحابته المؤمنين، ويقابله ثناء ضمني لمن خرج مع النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وبايع بيعة الرضوان؛ أنهم لم يظنوا بالله عَزَّ وَجَلَّ وبرسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ إلا الخير، فـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم؛ جزاء حسن ظنهم بربهم جلَّ ثناؤه ورسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

هل بايع بيعة الرضوان منافق؟

خرج إلى الحديبية مع رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ رجلان:

الأول: الجد بن قيس: ففي حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حينما سئل كم كانوا يوم الحديبية؟ قال: «كنا أربع عشرة مائة، فبايعناه، وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ آخذ بيده تحت الشجرة، وهي سمرة، فبايعناه غير جد بن قيس الأنصاري، اختبأ تحت بطن بعيره»[(١)].

والجد بن قيس كان ممن يغمص عليه النفاق من أصحاب رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ [(٢)].

والثاني: عبد الله بن أبي ابن سلول: قال الواقدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "حدثني جابر

---

(١) مسلم (٣/ ١٤٨٣ رقم ١٨٥٦).

(٢) ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (١/ ٢٦٦).

بن سليم، عن صفوان بن عثمان، قال: فكانت قريش قد أرسلت إلى عبد الله بن أبي: إن أحببت أن تدخل فتطوف بالبيت فافعل. وابنه جالس عنده فقال له ابنه: يا أبت! أذكرك الله أن تفضحنا في كل موطن، تطوف بالبيت ولم يطف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ؟ فأبى ابن أبي وقال: لا أطوف حتى يطوف رسول الله. فبلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ كلامه ذلك فسُر به"[(١)].

وقال المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وبعثت قريش إلى عبد الله بن أبي ابن سلول: إن أحببت أن تدخل فتطوف بالبيت فافعل، فقال له ابنه: يا أبت! أذكرك الله أن تفضحنا في كل موطن! تطوف ولم يطف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ! فأبى حينئذ وقال: لا أطوف حتى يطوف رسول الله. فبلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ كلامه، فسُرّ به"[(٢)].

وقال ابن برهان الدين الحلبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وذكر أن قريشا بعثت إلى عبد الله بن أبي ابن سلول: إن أحببت أن تدخل فتطوف بالبيت فافعل، فقال له ابنه عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: يا أبت! أذكرك الله أن لا تفضحنا في كل موطن، تطوف ولم يطف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ! فأبى حينئذ، وقال: لا أطوف حتى يطوف رسول الله، وفي لفظ قال: إن لي في رسول الله أسوة

(١) مغازي الواقدي (٢/ ٦٠٥).

(٢) إمتاع الأسماع (١/ ٢٩١).

حسنة، فلما بلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ امتناعه أثنى عليه بذلك"[١].

ومن الواضح أن مصدر كل من المقريزي والحلبي هي تلك الرواية التي نقلها الواقدي في مغازيه، وحينما نعرض هذه الرواية على أقوال أهل العلم بالرجال نجد ما يلي:

١- الواقدي هو محمد بن عمر بن واقد الأسلمي مولاهم أبو عبد الله المدني، قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "أحد الأعلام وقاضي العراق وبغداد، يروي عن ابن عجلان وابن جريج ومالك وخلائق، وعنه أحمد بن منصور الرمادي وابن سعد وطائفة، متروك مع سعة علمه"[٢].

٢- جابر بن سليم هو الزرقي وثقه الإمام أحمد[٣].

٣- صفوان بن عثمان الصواب أنه عثمان بن صفوان[٤] قال فيه ابن حبان رَحِمَهُ اللَّهُ: "عثمان بن صفوان المكي يروي المراسيل"[٥].

---

(١) السيرة الحلبية (٣/ ٢٦).

(٢) لسان الميزان (٧/ ٥٢١).

(٣) ينظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٢/ ٥٠١).

(٤) لأن جابر بن سليم إنما يروي عن عثمان بن صفوان. كما في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم وغيره.

(٥) الثقات لابن حبان (٧/ ١٩٨).

فاتضح أن هذه الرواية ضعيفة لضعف الواقدي ولإرسال عثمان المكي، وبناء على ما سبق؛ فإنه لم يثبت حضور ابن سلول للحديبية من طريق صحيح، وعلى فرض صحة الرواية – وهي غير صحيحة - فليس في هذه الرواية أنه بايع، إذ ذلك هو محل النزاع لا مجرد الحضور.

أما بالنسبة هل بايع أحد من المنافقين بيعة الرضوان فإن النصوص تدل على النفي، فالنصوص الواردة في فضل هذه البيعة لا تنطبق على المنافقين:

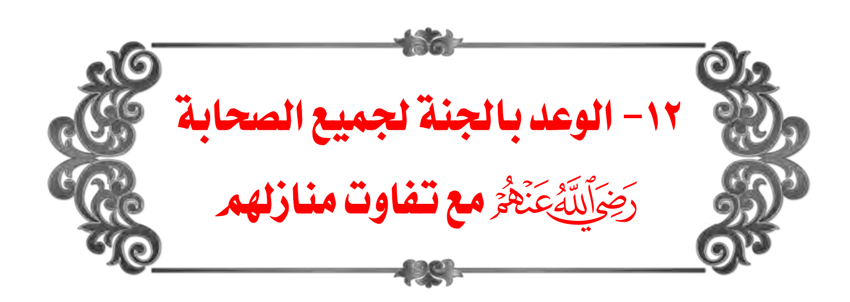
١ - قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح:١٨].

والمنافقون ليسوا مؤمنين ولا يمكن أن يرضى الله تعالى عن المنافقين إن لم يتوبوا عن نفاقهم.

٢ - وعن أم مبشر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لا يدخل النار، إن شاء الله، من أصحاب الشجرة أحد، الذين بايعوا تحتها»(١).

ووجه الدلالة: أن الله تعالى قد توعد المنافقين بالنار وفي الحديث نفي دخولهم النار فدل على أن هؤلاء ليسوا منافقين، والله أعلم.

(١) مسلم (٤/ ١٩٤٢ رقم ٢٤٩٦).



١٢- الوعد بالجنة لجميع الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ مع تفاوت منازلهم

الآية ١٠ من سورة الحديد

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ أي: أنفقوا ولا تَخشَوا فقرًا وإقلالًا، فإن الذي أنفقتم في سبيله هو مالك السموات والأرض، وبيده مقاليدهما، وعنده خزائنهما، وهو مالك العرش بما حوى، وهو القائل: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾[سبأ:٣٩] فمن توَكَّل على الله أنفق، ولم يَخْشَ من ذي العرش إقلالًا، وعَلِم أن الله تعالى سيُخْلِفُه عليه.

وقوله: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَ﴾ أي: لا يستوي هذا ومن لم يفعل كفعله، وذلك أنّ قبل فتح مكة كان الحال شديدًا، فلم يكن يُؤْمِن حينئذٍ إلا الصِّدِّيقون، وأما بعد الفتح فإنه ظَهَر الإسلام ظهورًا عظيمًا، ودَخَل الناس في دين الله عَزَّوَجَلَّ أفواجًا؛ ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، والجمهور على أن المراد بالفتح هاهنا فتح مكة.

﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ يعني: المنفقين قبل الفتح وبعده، كلهم لهم ثواب على ما عملوا، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء كما في الصحيح: «المؤمن القوي خير وأحبُّ إلى الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ من المؤمن الضعيف، وفي كُلٍّ خير» [رواه مسلم].

وإنما نَبَّهَ بهذا لئلا يُهدَر الجانب الآخر بمَدْح الأوَّل دون الآخر، فيَتَوَهَّم مُتَوَهِّم ذَمَّه؛ فلهذا عَطَفَ بمدح الآخر والثناء عليه، مع تفضيل الأول عليه؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ أي: فلِخِبْرَتِه فاوتَ بين ثواب من أَنفق من قبل الفتح وقاتل، ومن فَعَل ذلك بعد ذلك، وما ذلك إلا لعِلمه بقَصد الأول وإخلاصه التام، وإنفاقه في حال الجهد والقلة والضيق.

وفي الحديث: «سبق درهمٌ مائةَ ألف» [رواه النسائي]، ولا شكَّ عند أهل الإيمان أن الصِّدِّيق أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، له الحظ الأوفر من هذه الآية، فإنه سَيِّد

من عَمِل بها من سائر أمم الأنبياء، فإنه أَنْفَقَ ماله كُلَّه ابتغاء وجه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يَجْزِيه بها"[1].

إن الذي ينفق ويقاتل حال كون العقيدة مطارَدة، والأنصار قلة، وليس في الأفق ظل منفعة ولا سلطان ولا رخاء، غير الذي ينفق ويقاتل والعقيدةُ آمنة، والأنصار كثيرة، والنصر والغلبة والفوز قريبة المنال، ذلك متعلق مباشرة بالله تقدست أسماؤه، متجرد تجرداً كاملاً لا شبهة فيه، عميق الثقة والطمأنينة بالله تعالى وحده، بعيد عن كل سبب ظاهر وكل واقع قريب، لا يجد على الخير عونًا إلا ما يستمده مباشرة من عقيدته بربه وقربه ونصرته.

أوجه الثناء:

- فَضْل السابقين من الصحابة من المهاجرين والأنصار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ على من بعدهم ممن آمن بعد الفتح وأنفق وقاتل، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾، قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كان السابقون وفضلاء الصحابة، غالبهم أسلم قبل الفتح"[2].

- صريح الآية في تفاضل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ في الإنفاق، ولكنهم جميعًا

---

(1) تفسير ابن كثير (٨/ ١٢-١٤) مختصراً.

(2) تفسير السعدي (ص:٨٣٩).

موعـودون بالحسـنى ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، قـال القرطبـي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي المتقـدمون المتنـاهون السـابقون، والمتـأخرون اللاحقـون، وعـدهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جميعًا الجنة مع تفاوت الدرجات"(١).

ومثـل هـذه الآيـةِ الآيـةُ الأخـرى في سـورة النسـاء: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ قـال ابـن عبـاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: [لا يستوي القاعدون من المؤمنين عن بدر، والخارجون إلى بدر](٢).

- فضل صديق الأمة أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فيها دليل واضح على تفضيل أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وتقديمه، لأنه أول من أسلم. وعن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: [أول من أظهر الإسلام بسيفه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ وأبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ولأنه أول من أنفق على نبي الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ]. ولهذا قدمته الصحابة على أنفسهم، وأقروا له بالتقدم والسبق. وقال علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: [سبق النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ وصلى(٣) أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ

---

(١) تفسير القرطبي (١٧/ ٢٤١).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٧).

(٣) السابق: الأول. والمصلى: الثاني. وفي النهاية: المُصَلِّي في خيل الحلبة: هو الثاني، سمي به لأن رأسه يكون عند صلا الأول، وهو ما عن يمين الذنب وشماله. اهـ من (النهاية في غريب الحديث والأثر) (٣/ ٥٠).



وثلَّث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلا أوتى برجل فضلني على أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلا جلدته حد المفتري ثمانين جلدةً وطرح الشهادة]. فنال المتقدمون من المشقة أكثر مما نال من بعدهم، وكانت بصائرهم أيضًا أنفذ"(١).

- فضل عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد أنفق منذ إسلامه النفقات العظيمة وبكل سخاء، بل إنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جهز جيش العسرة، حتى قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في مدحه الكثير.

قال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: "ويروى أن هذه الآية نزلت في غزوة العسرة، وهي غزوة تبوك، قاله الضحاك، وقال: الإشارة بقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[الحديد:٧] إلى عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحكمها باقٍ يندب إلى هذه الأفعال بقية الدهر"(٢)، ومن ذلك أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حفر بئر رومة(٣).

- التنبيه على أن من تقدم من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في الإيمان في مكة له فضل كبير ومقام عظيم.

- الرد على من يطعن في الصحابة الذين أسلموا بعد فتح مكة، فهم

---

(١) تفسير القرطبي (١٧/ ٢٤٠).

(٢) تفسير ابن عطية (٥/ ٢٦٣).

(٣) البخاري (٤/ ١٣ رقم ٢٧٧٨).

موعودون بالحسنى وهي الجنة ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وقد أكرم النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ قريشا بعد الفتح وهم الذين حاربوه فقال: «لا تثريب عليكم اليوم»(١) ولم يُثَرِّب عليهم بكلمة، وقد قرر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله، وقد أنزل الله عَزَّوَجَلَّ في صفات عباد الرحمن في آخر الفرقان ما يطير به المؤمن فرحًا، وهو قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ﴾[الفرقان:٧٠].

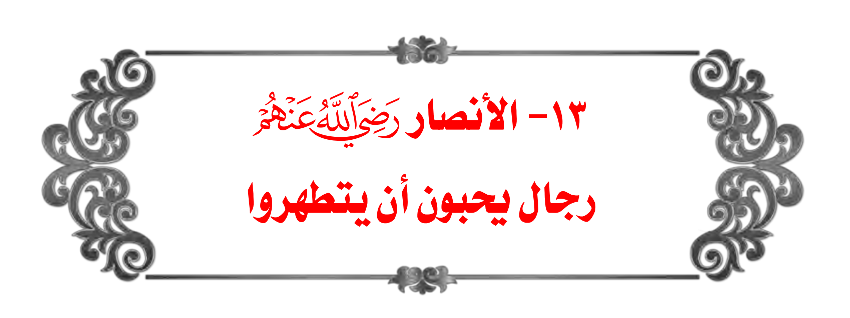
وقد جاء الوعد من الله تعالى أن الذين سبقت لهم الحسنى من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهم مبعدون عن النار، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[الأنبياء:١٠١-١٠٢].

- جاء في السورة آيات فيها لطائف في فضل الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، مثل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ - لماذا- ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وتأمل في خطاب المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم مباشرة ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ﴾ نعم، بكم أنتم معشر المخاطبين ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[الحديد:٩] فقرن هنا بين الرأفة والرحمة، فدل على وجود فرق بينهما، فالرأفة فيها معنى الرحمة، لكن فيها زيادة

(١) الأزرقي في أخبار مكة (٢/ ١٢١)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (ص:٢٧٥ رقم ٣١٨)، وأبو الشيخ في (أخلاق النبي) (ص:٢٦٠ رقم ٨٠) من عدة طرق.

تدليل ولطف بالمرحوم، فهي أخص من عموم معنى الرحمة، والله أعلم.

ومن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بهم أن ذكر لهم ما في قلوبهم وطلب منهم إصلاحها والارتقاء بها، قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾[الحديد:١٦].



١٣- الأنصار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ
رجال يحبون أن يتطهروا

الآية ١٠٨ من سورة التوبة

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾: وهم أناس من الأنصار، ابتنوا مسجدًا، قال لهم أبو عامر: ابنوا مسجدًا واستعدُّوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجند من الروم، وأُخرِج محمدًا وأصحابه، فلمَّا فَرَغوا من مسجدهم أتوا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنُحِبُّ أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة. فأنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ إلى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾. وكذا رُوي عن سعيد بن جُبير، ومجاهد وعروة بن الزبير وقتادة وغير واحد من العلماء.

وقوله: ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ﴾ أي: الذين بنوه: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ أي: ما أردنا ببنيانه إلا خيرًا ورفقًا بالناس، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: فيما قصدوا وفيما نوَوا، وإنما بنوه ﴿ضِرَارٗا﴾ لمسجد قُباء، ﴿وَكُفۡرٗا﴾ بالله، ﴿وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[التوبة:١٠٧]، وهو أبو عامر الفاسق، الذي يقال له: (الراهب) لعنه الله.

وقوله: ﴿ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ ﴾ نهي من الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ والأمة تَبَعٌ له في ذلك، عن أن يقوم فيه، أي: يصلي فيه أبدًا.

ثم حثَّه على الصلاة في مسجد قُباء الذي أُسِّسَ من أوَّل يوم بنائه على التقوى، وهي طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ، وجمعًا لكلمة المؤمنين ومَعقلًا ومَوْئلًا للإسلام وأهله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾[التوبة:١٠٨] والسياق إنما هو في مَعْرِضِ مسجد قُباء؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ قال: «صلاة في مسجد قباء كعمرة»[رواه الترمذي]، وفي

الصحيح: أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ كان يزورُ مسجد قباء راكبًا وماشيًا [متفق عليه].

وقد صرَّح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف: ابن عباس وعُرْوَة بن الزبير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم والشعبي والحسن البصري وسعيد بن جبير وقتادة.

وقد ورد في الحديث الصحيح: أن مسجد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ الذي هو في جوف المدينة، هو المسجد الذي أسس على التقوى [رواه أحمد] وهذا صحيح. ولا مُنافاة بين الآية وبين هذا؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أُسِّسَ على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بطريق الأَوْلى والأحرى. وقد قال بأنه مسجد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ جماعة من السلف والخلف، وهو مروي عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وابنه عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وزيد بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وسعيد بن المسيب، واختاره ابن جرير"[1].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ أي: بُني على الطاعة، وبناه المتقون من أول يوم أي: منذ أول يوم.

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢١١-٢١٦) مختصراً.

وفي هذا المسجد ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه مسجد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بالمدينة الذي فيه منبره وقبره، وبه قال ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وزيد بن ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأبو سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وسعيد بن المسيب.

والثاني: أنه مسجد قباء، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وبه قال سعيد بن جبير، وقتادة، وعروة، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، والضحاك، ومقاتل.

والثالث: أنه كل مسجد بني في المدينة، قاله محمد بن كعب"[(١)].

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: "﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ ومن المعلوم أن من أحب شيئًا لا بد أن يسعى له ويجتهد فيما يحب، فلا بد أنهم كانوا حريصين على التطهر من الذنوب والأوساخ والأحداث، ولهذا كانوا ممن سبق إسلامه، وكانوا مقيمين للصلاة، محافظين على الجهاد مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وإقامة شرائع الدين، وممن كانوا يتحرزون من مخالفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

وسألهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بعدما نزلت هذه الآية في مدحهم عن طهارتهم، فأخبروه أنهم يتبعون الحجارة الماء، فحمدهم على صنيعهم [رواه أحمد].

---

(١) زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٢٩٨).

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ الطهارة المعنوية، كالتنزه من الشرك والأخلاق الرذيلة، والطهارة الحسية كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث"[(١)].

وقال أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾: "إن الطهور بالماء لَحَسَن، ولكنهم المطهرون من الذنوب. وقال الأعمش: التوبة من الذنب، والتطهير من الشرك"[(٢)].

أوجه الثناء:

- مسجد قباء أسس على التقوى من أول يوم، ومسجد الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ كذلك، والمصلون فيه من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ينالهم الفضل الذي تضمنته الآية، وهذا فيه ثناء عليهم ظاهر.

- ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ نزلت في الأنصار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم، وهذا وصف تشريف لهم، وتزكية لمرادهم ومقصدهم وهو الطهارة الحسية والمعنوية، مع الثناء عليهم بالرجولة، وهذا من الأوصاف الجامعة التي تشمل معاني القوة في الحق والثبات عليه والشجاعة والنخوة وعدم التلون.

- ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ اللفظ وإن كان عامًا إلا أن نزولها في حق

---

(١) تفسير السعدي (ص:٣٥٢).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير(٤/ ٢١٦).

جماعة من الصحابة يقضي بفضلهم، وجميل الثناء الإلهي عليهم وأنهم استحقوا محبة الله تعالى، فهم أول من خوطب بالآية الكريمة.



١٤- مواثقة المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وصدق استجابتهم

الآية ٧ من سورة المائدة

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧﴾

قال أبو السعود رَحِمَهُٱللَّهُ: "﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ بالإسلام لتُذكِّركم المنعِمَ وتُرغِّبكم في شكره ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ أي: عهدَه المؤكَّد الذي أخذه عليكم"[(١)].

قال القرطبي رَحِمَهُٱللَّهُ: "الذي عليه الجمهور من المفسرين كابن عباس والسدي هو: العهد والميثاق الذي جرى لهم مع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، إذ قالوا: سمعنا وأطعنا، كما جرى

(١) تفسير أبي السعود (٣/ ١١).

ليلة العقبة وتحت الشجرة، فبايعوا رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ عند العقبة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأبناءهم، وأن يرحل إليهم هو وأصحابه؟! وكان أول من بايعه البراء بن معرور رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان له في تلك الليلة المقام المحمود في التوثق لرسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، والشد لعقد أمره، وهو القائل: والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله! فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر. الخبر المشهور في سيرة ابن إسحاق، وقد اتصل هذا بقوله تعالى: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ فوفوا بما قالوا، جزاهم الله تعالى عن نبيهم وعن الإسلام خيراً، ورَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم"(١).

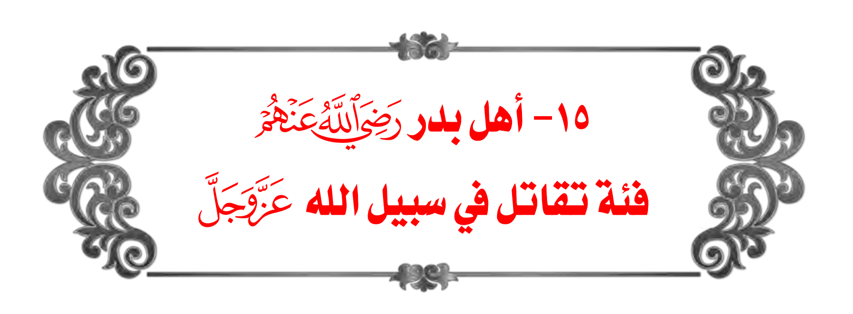
أوجه الثناء:

- الامتنان على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بنعمة الهداية والإسلام، وإضافة هذه النعمة إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ يفيد تعظيمها، ثم زادهم فضلا وشرفا بأن صرَّح باختصاصهم بها فقال: ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ وليست على غيركم، وهذا مزيد تشريف وتكريم.

- المواثقة بين الله تعالى وبين الصحابة الكرام، وهل يظن عاقل فيمن واثقه الله تعالى أن يكون قبيح نية أو خبيث طوية؟!

(١) تفسير القرطبي (٦/ ١٠٨-١٠٩).

- الإخبار عن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ وأرضاهم بصدق الانقياد ﴿إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَاوَأَطَعۡنَاۖ﴾، وهذا متكرر في أحوالهم، ولم يذكر الله جَلَّجَلَالُهُ عنهم مرة واحدة أنهم قالوا: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ كما قال أهل الكتاب من قبل، فهم أهل الطاعة والانقياد لله ورسوله دائمًا وأبداً، وهذا هو منهجهم وهذه هي طريقتهم، لا يقدمون نفسًا ولا مالاً ولا رأيًا ولا عقلاً ولا مذهبًا على أمر الله تعالى وخبره ووحيه، فـ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ وأرضاهم.



الآية ١٣ من سورة آل عمران

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ ﴾ أي: قد كان لكم -أيها اليهود القائلون ما قلتم - ﴿ءَايَةٍ﴾ أي: دلالة على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُعزٌّ دينه، وناصرُ رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، ومُظهِرُ كلمته، ومُعْلٍ أمره ﴿فِي فِئَتَيْنِ﴾ أي: طائفتين ﴿ٱلْتَقَتَا﴾ أي: للقتال ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم المسلمون، ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ وهم مشركو قريش يوم بدر.

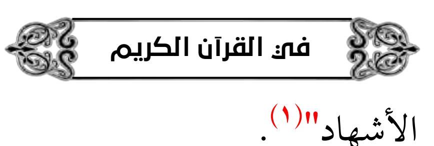
وقوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ قال بعض العلماء -فيما حكاه

ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثليهم في العدد رأي أعينهم، أي: جعل الله ذلك فيما رأوه سبباً لنصرة الإسلام عليهم.

والقول الثاني: أن المعنى في قوله: ﴿يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ﴾ أي: ترى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثليهم، أي: ضعفيهم في العدد، ومع هذا نصرهم الله عليهم. وهذا لا إشكال فيه على ما رواه العوفي، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا أن المؤمنين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً والمشركين كانوا ستمائة وستة وعشرين رجلاً. وكأن هذا القول مأخوذ من ظاهر هذه الآية، ولكنه خلاف المشهور عند أهل التواريخ والسير وأيام الناس، وخلاف المعروف عند الجمهور من أن المشركين كانوا ما بين التسعمائة إلى الألف ... وعلى كل تقدير فقد كانوا ثلاثة أمثال المسلمين، وعلى هذا فيشكل هذا القول والله أعلم، لكن وجَّه ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا، وجعله صحيحاً كما تقول: عندي ألف وأنا محتاج إلى مثليها، وتكون محتاجاً إلى ثلاثة آلاف، كذا قال. وعلى هذا فلا إشكال.

﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ١٣﴾ أي: إن في ذلك لمعتبراً لمن له بصيرة وفهم يهتدي به إلى حكم الله عَزَّوَجَلَّ وأفعاله، وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم

الأشهاد"[1].



أوجه الثناء:

- تعظيم شأن معركة بدر وما حصل فيها وتسميته (آية) فيه دلالة ظاهرة على فضل من قاتل في هذه الغزوة المباركة، وأنهم من جند الله تعالى وأوليائه.

- الشهادة لأهل بدر بصدق النية، وأنهم يقاتلون في سبيل الله تعالى ويريدون وجهه ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

- تأييد الله تعالى للصحابة الأجلاء بالكرامات والآيات، ومنها تكثيرهم في نظر أعدائهم حتى وقع الخوف في قلوبهم، ورزق الله تعالى أولياءه نصره المبين وفتحه العظيم.

- صار الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم مضرب مثل وقدوة لكل مؤمن ومحب للحق ممن يأتي بعدهم، وسجلوا بجهادهم تاريخًا جعله الله تعالى ﴿لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝١٣﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٧-١٨).



١٦- جمع المولى سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ للصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ الخير والفلاح

الآية ٨٨ من سورة التوبة

﴿ لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَـٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨٨ ﴾

يقول رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا استدراك على قعود المنافقين عن الجهاد مع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ عملاً بداعي الإيمان، وأمر الله عَزَّ وَجَلَّ في القرآن؛ لأن ما جروا عليه من النفاق قد طبع على قلوبهم، لكن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ والذين آمنوا به، وكانوا معه في كل أمور الدين لا يفارقونه، قد جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فقاموا بالواجب خير قيام، كما يقتضيه الإيمان والإسلام، وما كان أولئك المنافقون الجبناء البخلاء بأهل للقيام بهذه الأعباء، كما تقدم فيما وصفوا به من الآيات، ولاسيما آية: ﴿ لَوۡ

خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾[التوبة:٤٧].

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ عطف جزاءهم على جهادهم، ولم يذكره مفصولاً مستأنفًا، لأنه تتمة لبيان حالهم المخالفة لحال المنافقين بدءاً وانتهاءً عملاً وجزاء، أي: وأولئك المجاهدون بعيدو المنال في معارج الكمال، لهم -دون المنافقين- الخيرات التي هي ثمرات الإيمان والجهاد، من شرف النصر، ومحو كلمة الكفر، واجتثاث شجرة الشرك، وإعلاء كلمة الله عَزَّوَجَلَّ، وإقامة الحق والعدل بدين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والتمتع بالغنائم والسيادة في الأرض. ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝﴾ أي: الفائزون بسيادة الدنيا مع سعادة الآخرة، دون أولئك المنافقين الذين حرموا منهما بنفاقهم، وما له من سوء الأثر في أعمالهم وأخلاقهم"[(١)].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول تعالى: إذا تخلف هؤلاء المنافقون عن الجهاد، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ سيغني عنهم، ولله عَزَّوَجَلَّ عباد وخواص من خلقه اختصهم بفضله يقومون بهذا الأمر، وهم ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ غير متثاقلين ولا كسلين، بل هم فرحون مستبشرون، ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾

(١) تفسير المنار (١٠/ ٥٠٢-٥٠٣) مختصراً.

الكثيرة في الدنيا والآخرة، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ الذين ظفروا بأعلى المطالب وأكمل الرغائب"[1].

أوجه الثناء:

- تضمنت الآية أنواعًا من الثناء والبشارة للصحابة الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ، وأول ذلك مدحهم بالإيمان ومعية رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ ﴿ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾.

- الإخبار عن جهاد الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وأرضاهم وأنهم جمعوا في جهادهم بين الجهاد بالمال والنفس، ولم يكتفوا بأحدهما دون الآخر، وهذا دليل على بذلهم وتضحيتهم ورغبتهم فيما عند الله تعالى وإيثارهم الآخرة على الأولى.

- لما تولى المنافقون وقعدوا عن الجهاد في سبيل الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ استبدلهم الله تعالى بقوم خير منهم قاموا بالواجب خير قيام، وهم هؤلاء الصحابة المباركون، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ۝٣٨﴾[محمد:٣٨].

- الوعد من الله تعالى لهم بالخيرات، وهذا الجمع يدل على كثرة هذا الخير الذي سينالهم من منافع الدنيا والآخرة، ففي الدنيا لهم العزة ولهم

---

(١) تفسير السعدي (ص:٣٤٧).

الكرامة ولهم المغنم ولهم الكلمة العالية، وفي الآخرة لهم الجزاء الأوفى، ولهم رضوان الله الكريم، ومَنْ وَعَدَه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بالخير فلا يمكن أن يكون من أهل الشر والفساد.

- الفلاح هي أجمع كلمة للخير في الدنيا والآخرة، ومن كان من المفلحين فهو من أهل الجنة والنعيم المقيم قطعًا، والصحابة ليسوا فقط (من المفلحين) بل ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾، وكأنه لا مفلحَ غيرُهم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وأرضاهم.



١٧- صدق الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في البذل للمولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

الآيتان ٩١-٩٢ من سورة التوبة

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

يقول القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "بَيَّنَتْ هذه الآية أنه لا حرج على المعذورين، وهم قوم عُرِف عذرهم، كأرباب الزمانة والهرم والعمى والعرج، وأقوام لم يجدوا ما ينفقون، فقال: ليس على هؤلاء حرج ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ﴾ إذا عرفوا الحق وأحبوا أولياءه وأبغضوا أعداءه، **قال العلماء: فعَذَر الحقُّ** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **أصحاب الأعذار، وما صبرت القلوب**، فخرج ابن أم مكتوم

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أُحُد وطلب أن يعطى اللواء فأخذه مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فجاء رجل من الكفار فضرب يده التي فيها اللواء فقطعها، فأمسكه باليد الأخرى، فضرب اليد الأخرى، فأمسكه بصدره وقرأ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾[آل عمران:١٤٤] هذه عزائم القوم، والحق يقول: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ وهو في الأول ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ وعمرو بن الجموح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من نقباء الأنصار أعرج وهو في أول الجيش، قال له الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إن الله عَزَّ وَجَلَّ قد عذرك» فقال: «والله لأحفرن بعرجتي هذه في الجنة» [رواه البيهقي في السنن الكبرى]، إلى أمثالهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف»[رواه مسلم] "(١).

وقال: "قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ روي أن الآية نزلت في عرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقيل: نزلت في عائذ بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقيل: نزلت في بني مقرن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وعلى هذا جمهور المفسرين- وكانوا سبعة إخوة، كلهم صحبوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وليس في الصحابة سبعة إخوة غيرهم، وهم النعمان، ومعقل، وعقيل، وسويد، وسنان، وسابع لم يسم. بنو مقرن المزنيون سبعة إخوة هاجروا وصحبوا رسول الله

---

(١) تفسير القرطبي (٨/ ٢٢٦).

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ولم يشاركهم- فيما ذكره ابن عبد البر وجماعة- في هذه المكرمة غيرهم. وقد قيل: إنهم شهدوا الخندق كلهم.

وقيل: نزلت في سبعة نفر من بطون شتى، وهم البكاؤون، أتوا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في غزوة تبوك ليحملهم، فلم يجد ما يحملهم عليه، فـ﴿تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ فسموا: البكائين. وهم: سالم بن عمير من بني عمرو بن عوف، وعلبة بن زيد أخو بني حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب من بني مازن بن النجار، وعمرو بن الحمام من بني سلمة، وعبد الله بن المغفل المزني، وقيل: بل هو عبد الله بن عمرو المزني، وهرمي بن عبد الله أخو بني واقف، وعرباض بن سارية الفزاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، هكذا سماهم أبو عمر في كتاب الدرر له، وفيهم اختلاف.

قال القشيري: معقل بن يسار وصخر بن خنساء وعبد الله بن كعب الأنصاري، وسالم بن عمير، وثعلبة بن غنمة، وعبد الله بن مغفل وآخر. قالوا: يا نبي الله! قد ندبتنا للخروج معك، فاحملنا على الخفاف المرفوعة والنعال المخصوفة نغز معك، فقال: ﴿لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ فتولوا وهم يبكون.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: [سألوه أن يحملهم على الدواب، وكان الرجل يحتاج إلى بعيرين، بعير يركبه وبعير يحمل ماءه وزاده لبعد الطريق].

وقال الحسن: نزلت في أبي موسى وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أتوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ليستحملوه، ووافق ذلك منه غضبا فقال: «والله لا أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا يبكون، فدعاهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأعطاهم ذوداً، فقال أبو موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ألست حلفت يا رسول الله؟ فقال: «إني إن شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني» قلت: وهذا حديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم بلفظه ومعناه، وفي مسلم: «فدعا بنا فأمر لنا بخمس ذود غر الذرى[1]» الحديث، وفي آخره: «فانطلقوا فإنما حملكم الله عَزَّ وَجَلَّ». وقال الحسن أيضاً وبكر بن عبد الله: نزلت في عبد الله بن مغفل المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يستحمله"[2].

هذه الآيات من الآيات المعبِّرة والمؤثِّرة التي تحكي إخلاصًا وصدقًا منقطع النظير، وإنها لصورة مؤثِّرة للرغبة الصحيحة في الجهاد، والألم الصادق للحرمان من نعمة أدائه، وإنها لصورة واقعة حفظتها الروايات عن جماعة من المسلمين في عهد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تختلف الروايات

---

(١) أي: خمس من الإبل بِيض الأسنمة، وذروة البعير سنامه. المعلم بفوائد مسلم (٢/ ٣٦٧).

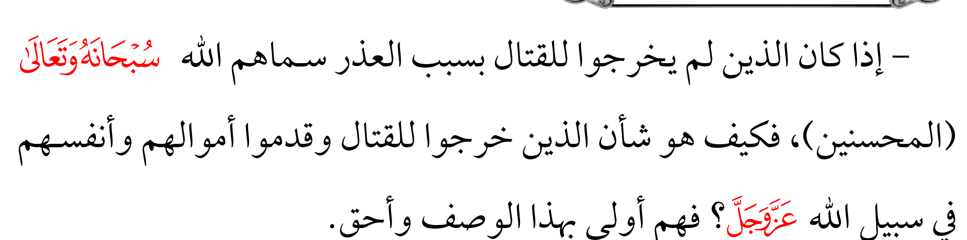
(٢) تفسير القرطبي (٨/ ٢٢٨-٢٢٩).

في تعيين أسمائهم، ولكنها تتفق على الواقعة الصحيحة، فلا يمكن لصاحب قلب أن يمر عليها دون أن يشعر بخفقان في فؤاده وهو يستمع إلى شأن القوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم وما بلغوا إليه من الإخلاص والصدق والنصح لله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وللإسلام، وبمثل هذه الروح انتصر الإسلام، وبمثل هذه الروح عزَّت كلمته. فلننظر أين نحن من هؤلاء، ولننظر أين روحنا من تلك العصبة، ثم لنطلب النصر والعزة إن استشعرنا من أنفسنا بعض هذه المشاعر، وإلا فلنسدد ولنقارب والله المستعان.

أوجه الثناء:

- رَفْع الحرج عن الضعفاء والمرضى والفقراء من الصحابة الذين يرغبون في الجهاد ولكنهم لا يستطيعون، وهذا يتضمن الشهادة لهم بصلاح النية وصدق الرغبة، فلو كانوا كاذبين يبحثون عن الأعذار لما عذرهم الله عَزَّوَجَلَّ كما قال في شأن المنافقين: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) ﴾ [التوبة:٤٦].

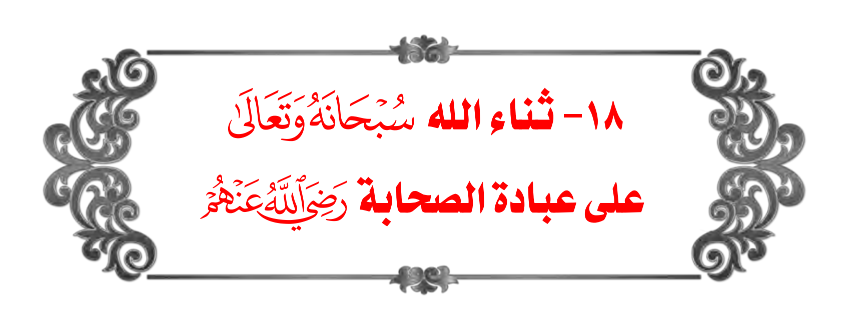
- مع كونهم لم يخرجوا للجهاد لِعُذْرِهم سماهم الله تعالى: (محسنين)، وأخبر أنه ليس هناك سبيل لأحد في لومهم أو عتابهم، فلينظر من يطلق لسانه في هؤلاء المحسنين هل امتثل لأمر الله عَزَّوَجَلَّ أم خالفه؟!



- إذا كان الذين لم يخرجوا للقتال بسبب العذر سماهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ (المحسنين)، فكيف هو شأن الذين خرجوا للقتال وقدموا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ؟ فهم أولى بهذا الوصف وأحق.

- ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ تأكيد للعفو عنهم ورفع الحرج وعدم اللوم والعتاب، ولو كانوا كاذبين أو عصاة لما ختمت الآية بهذين الاسمين الرقيقين الكريمين.

- بكاء الصحابة حزناً على فوات فضيلة الجهاد في سبيل الله تعالى مع رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ، وهو بكاء شديد وكأنما أعينهم تحولت إلى ماء يفيض، والله جَلَّ جَلَالُهُ يصوِّر لنا هذا المشهد المؤثر ويخبر أنهم لم يبكوا لفوت غنيمة وإنما بكوا لعجزهم عن البذل والخروج بأنفسهم في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ!! فأي قلوب كان يحملها هؤلاء الرجال!! وأي صدق وإخلاص انطوت عليه نفوسهم!! وحُقَّ لكلِّ من تسوِّل له نفسه في الطعن فيهم أن يتوقف ويفكِّر: هل بكى يوماً على عجزه عن نصرة الإسلام كما بكى هؤلاء؟ وهل شهد له الله جَلَّ جَلَالُهُ أنه إنما بكى حزناً ألا يجد ما ينفق في سبيله؟ فإن لم يكن هكذا - ولن يكون- فليمسك لسانه عن هذه الثلة المباركة وليبكِ على خطيئته فهو خير له عند ربه.



١٨- ثناء الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ على عبادة الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ

الآية ٩ من سورة الزمر

﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩ ﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: أَمَّن هذه صفته كمن أشرك بالله عَزَّوَجَلَّ وجعل له أندادًا؟ لا يستوون عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، كما قال تعالى: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴾[آل عمران:١١٣]، وقال هاهنا: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا ﴾ أي: في حال سجوده وفي حال قيامه؛ ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع في الصلاة، ليس هو القيام وحده، كما ذهب إليه

آخرون. قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: [القانت المطيع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ]. وقال ابن عباس والحسن: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ [جوف الليل]. وقال منصور: بلغَنا أن ذلك بين المغرب والعشاء. وقال الحسن وقتادة: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ أوله وأوسطه وآخره.

وقوله: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ أي: في حال عبادته خائف راج، ولا بد في العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب؛ ولهذا قال: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾، فإذا كان عند الاحتضار أو كبر سنه أو مرضه فليكن الرجاء هو الغالب عليه.

وقوله: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل لله أندادًا ليضل عن سبيله؟! ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل"(١).

وقال أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أأنت أحسن حالاً ومآلاً؟ أم من هو قائم بمواجب الطاعات ودائم على أداء وظائف العبادات في ساعات الليل حالتي السراء والضراء، لا عند مساس الضر فقط كدأبك"(٢).

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٨٨-٨٩).

(٢) تفسير أبي السعود (٧/ ٢٤٥).

وهي صورة مشرقة مرهَفَة، فالقنوت والطاعة والتوجه وهو ساجد وقائم، وهذه الحساسية المرهفة وهو يَحْذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، وهذا الصفاء وهذه الشفافية التي تفتح البصيرة، وتمنح القلب نعمة الرؤية والالتقاط والتلقي.. هذه كلها ترسم صورة مشرقة وضيئة من البشر تقابل تلك الصورة النكدة المطموسة للمشركين التي أشارت لها الآية السابقة.

سبب نزول الآية حسب أقوال بعض المفسرين:

عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه قرأ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَٓخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾؛ قال ابن عمر: [ذاك عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وفي لفظ نزلت في عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ][1].

وإنما قال ابن عمر ذلك؛ لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بالليل وقراءته، حتى إنه ربما قرأ القرآن في ركعة[2]، كما رواه عبدالرحمن بن عثمان عنه، وقال حسان بن ثابت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[3]:

(١) ينظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٧/ ٢١٤).

(٢) البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٢٤)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٧٥-٧٦)، وقد ثبت بالتجارب في عدة مساجد تسميع القرآن الكريم كله في جلسة واحدة، وهي معروفة بمسمى (إجازة تسميع القرآن الكريم في يوم).

(٣) البيت في ديوانه (ص:٢٤٨).

ضَحّوا بأشْمَطَ[1] عُنوانُ السُّجُودِ يُقَطِّعُ الليلَ تَسْبيحًا وقُرآنا[2]

وقد نقل السيوطي عن ابن سعد في طبقاته وابن مردويه عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال:]نزلت في عمار بن ياسر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا].. وأخرج جويبر عن عكرمة مثله..

وأخرج جويبر عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: [نزلت هذه الآية في ابن مسعود وعمار وسالم مولى أبي حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ][3].

أوجه الثناء:

-تضمنت هذه الآية الثناء على أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ الأربعة: عثمان وابن مسعود وعمار بن ياسر وسالم مولى أبي حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وأرضاهم لأنها نزلت فيهم، ويعُمُّ لفظُها من اتصف بتلك الصفات غيرهم، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قال أبو نعيم رَحِمَهُٱللَّهُ: "القانت ذو النورين، والخائف ذو الهجرتين،

(١) الشمط: بياض شعر الرأس يخالط سواده، ويقال عن الرجل: أشمط، والمرأة: شمطاء. لسان العرب (٧/ ٣٣٥-٣٣٦).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٨٨-٨٩).

(٣) ينظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٧/ ٢١٤).

والمصلي إلى القبلتين، هو عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كان من الذين ﴿وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ﴾[المائدة:٩٣]، فكان ممن ﴿هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾[الزمر:٩]، غالب أحواله الكرم والحياء، والحذر والرجاء، حظُّه من النهار الجود والصيام، ومن الليل السجود والقيام، مُبشَّرٌ بالبلوى، ومُنعَّمٌ بالنجوى"(١).

- أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مدح قنوتهم، أي: طاعتهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى آناء الليل، سجودهم، قيامهم، بدافع الخوف من الله جَلَّ جَلَالُهُ والحذر من عذاب الآخرة، ورجاء رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعلهم من أهل العلم ذوي الألباب، فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

(١) حلية الأولياء (١/ ٥٥).

١٩- الإخبار بثواب الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في جهادهم في سبيل الله

الآيتان ١٢٠-١٢١ من سورة التوبة

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول تعالى حاثا لأهل المدينة المنورة من المهاجرين والأنصار، ومن حولهم من الأعراب، الذين أسلموا فحسن إسلامهم: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ

ٱللَّهِ﴾ أي: ما ينبغي لهم ذلك، ولا يليق بأحوالهم ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ﴾ في بقائها وراحتها وسكونها ﴿عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ الكريمة الزكية، بل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فعلى كل مسلم أن يفدي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ بنفسه ويقدمه عليها، فعلامة تعظيم الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ ومحبته والإيمان التام به: أن لا يتخلفوا عنه، ثم ذكر الثواب الحامل على الخروج فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ﴾ أي: المجاهدين في سبيل الله جَلَّجَلَالُهُ ﴿لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ﴾ أي: تعب ومشقة ﴿وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: مجاعة ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ من الخوض لديارهم، والاستيلاء على أوطانهم، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا﴾ كالظفر بجيش أو سرية أو الغنيمة لمال ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ﴾ لأن هذه آثار ناشئة عن أعمالهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢٠﴾ الذين أحسنوا في مبادرتهم إلى أمر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وقيامهم بما عليهم من حقِّه وحقِّ خلقه، فهذه الأعمال آثار من آثار عملهم.

ثم قال: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا﴾ في ذهابهم إلى عدوهم ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢١﴾، ومن ذلك هذه الأعمال، إذا أخلصوا فيها لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ونصحوا فيها"[(١)].

(١) تفسير السعدي (ص:٣٥٥).



أوجه الثناء:



- في هـذه الآيـات ذكـر الأجـور المترتبـة علـى الجهـاد مـع رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في سبيل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهي أجـور عظيمـة كثيـرة، بحيـث إنـه لا يبـذل الواحـد مـنهم أي جهـد، ولا يتعـب ولا يجـوع ولا يظمـأ، ولا يتسـبب بإغاظـة الكفـار أدنـى غـيظ، ولا ينفقـون حبـة تمـر في سـبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إلا كُتـب لهـم أجـر ذلـك عنـد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وكـان عمـلاً صالحـًا عنده، وقارن بين هذا وبين ما حكاه عـنهم قبل آيات من خـروجهم مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في الغزوة التي سماها الله تعالى (سـاعة العسـرة) لشـدة الحـر وقلـة المؤونـة وبُعـد المسـافة، وقـد عـانى فيهـا الصـحابة معانـاة شديدة وتعبوا وعطشوا وجـاعوا وأنفقـوا!! فكـم مـن الأجـور التـي قـد كتبـت لهم عند الله تعالى، وكأنَّ هذه الآية جاءت في ختام الحديث عـن غـزوة تبـوك لتبشِّـرَهـم بأن ما قدَّموه فيها قد كُتِب لهم ولـن يضـيع أبـداً عنـد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهذه غزوة واحـدة، وغيرهـا الكثيـر، قـارن بـين هـذا كلـه لـتعلم أن القـوم قـد حطوا رحالهم في الجنة، وقد ربحوا التجارة مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- نصيب عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من هذه الآية هو أعظم النصيب، يقـول ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: "وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بـن عفـان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، مـن

هذه الآية الكريمة حظ وافر، ونصيب عظيم، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة، والأموال الجزيلة"[١].

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٣٥).



٢٠- وصف الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بأنهم هم أولو العلم

الآية ١٦ من سورة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول تعالى مُخْبِرًا عن المنافقين في بَلَادَتِهم وقِلَّة فَهْمهم، حيث كانوا يَجْلِسون إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، ويستمعون كلامه ولا يفهمون منه شيئًا، فإذا خَرَجوا من عنده ﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ من الصحابة: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي: الساعة، لا يَعقِلون ما يُقَال، ولا يَكْتَرِثُون له.

قال الله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: فلا فَهْم

صحيح، ولا قَصْد صحيح"[1].

وسؤالهم ذاك بعد استماعهم للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - والاستماع معناه السماع باهتمام - يدل على أنهم كانوا يتظاهرون تظاهرًا بأنهم يلقون سمعهم وبالهم للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وقلوبهم لاهية غافلة، أو مطموسة مغلقة.

كما أنه قد يدل من جانب آخر على الغمز الخفي اللئيم إذ يريدون أن يقولوا بسؤالهم هذا لأهل العلم: إن ما يقوله محمد لا يُفْهم، فهاهم أولاء مع استماعهم له، لا يجدون له فحوى ولا يمسكون منه بشيء!

كذلك قد يعنون بهذا السؤال السخرية من احتفال أهل العلم بكل ما يقوله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وحرصهم على استيعاب معانيه وحفظ ألفاظه - كما كان حال الصحابة رضوان الله عليهم مع كل كلمة يتلفظ بها الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - فهم يسألونهم أن يعيدوا ألفاظه التي سمعوها على سبيل السخرية الظاهرة أو الخفية.. وكلها احتمالات تدل على اللؤم والخبث والانطماس والهوى الدفين.

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣١٥).

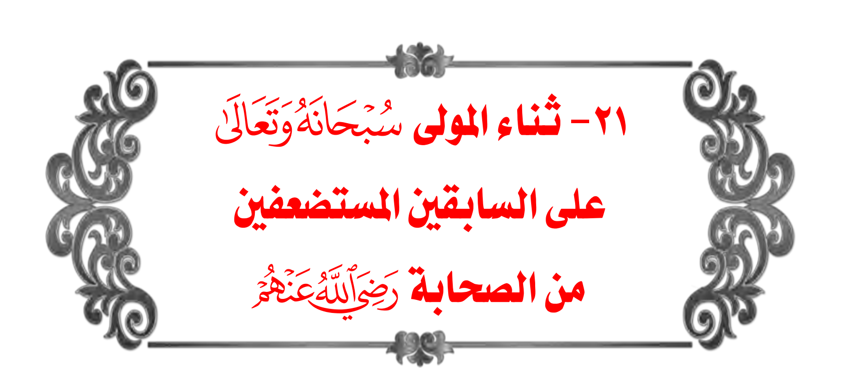


أوجه الثناء:

- أن أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كانوا يحضرون مجالس العلم مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، حضورًا بالقلب والجسد، يفهمون عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قوله، ويحفظون عنه هديه وما أنزل عليه، وذلك صفة المؤمنين العالِمين، بخلاف المنافقين الذين جمعوا سُقم الفهم، وسوء القصد.

- وَصْف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بأنهم أهل العلم ميزةٌ لهم وشرفٌ سببه استماعهم لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ استماع قبول وتعَلُّم، وهذا الثناء يعُمُّ الصحابة سوى المنافقين الذين يحضرون أجساداً بلا أرواح.

- غالب مجالس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كانت في تعليم القرآن، فهو يعمل بأمر الله تعالى له.



الآيتان ١٠-١١ من سورة الأحقاف

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ١١ ﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول تعالى: ﴿ قُلۡ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ﴾ أي: ما ظَنُّكم أن الله عَزَّوَجَلَّ صانعٌ بكم إن كان هذا الكتاب الذي جئتكم به قد أَنْزَلَه عليَّ لأُبَلِّغَكُموه وقد كَفَرتم به وكَذَّبتموه.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ أي: وقد شَهِدَتْ بِصِدْقِه وصِحَّته الكُتُب المتقدِّمة المنزَّلة على الأنبياء قبلي، بَشَّرَتْ به وأَخْبَرَتْ بمِثل ما أَخْبَرَ هذا القرآن به.

وقوله: ﴿فَـَٔامَنَ﴾ أي: هذا الذي شَهِدَ بِصِدْقه من بني إسرائيل لمعرفته بحَقِّيَّته، ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ أنتم عن اتباعه. وقال مسروق: فآمن هذا الشاهد بنَبِيِّه وكتابه، وكفرتم أنتم بنَبِيِّكُم وكتابكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وهذا الشاهد اسم جنس يَعُمُّ عبد الله بن سلام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وغيره، فإن هذه الآية مكية نَزَلَت قبل إسلام عبد الله بن سلام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. واختاره ابن جرير. وعن عامر بن سعد، عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض: «إنه من أهل الجنة»، إلا لعبد الله بن سلام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: وفيه نَزَلَت: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾[متفق عليه]. وكذا قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة ويوسف بن عبد الله بن سلام وهلال بن يَسَاف والسُّدِّي والثوري ومالك بن أنس وابن زيد؛ أنهم كلهم قالوا: إنه عبد الله بن سلام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِ﴾ أي: قالوا عن المؤمنين بالقرآن: لو كان القرآن خيرًا ما سَبَقَنا هؤلاء إليه؛ يعنون: بلالًا

وعمَّارًا وصُهَيبًا وخَبَّابًا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وأشباههم وأقرانهم من المستضعفين والعبيد والإماء، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله عَزَّوَجَلَّ وَجاهة وله بهم عِناية، وقد غَلِطُوا في ذلك غَلَطًا فَاحِشًا، وأخطأوا خَطَأً بَيِّنًا، وأهل السنة والجماعة يقولون في كل فِعْل وقول لم يَثْبُتْ عن الصحابة: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيرًا لسَبَقُونَا إليه؛ لأنهم لم يَتْرُكُوا خَصْلَةً من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها.

وقوله: ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ﴾ أي: كَذِب ﴿قَدِيمٞ﴾ أي: مأثور عن الأقدمين، فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكِبر الذي قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «بَطَرُ الحقِّ، وغَمْط الناس» [رواه مسلم]"(١).

قال أبو السعود رَحِمَهُٱللَّهُ: "والفاء في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ﴾ للدلالة على أنه سارع إلى الإيمان بالقرآن لما علم أنه من جنس الوحي الناطق بالحق، وهو عبد الله بن سلام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، لما سمع بمقدم رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ المدينة أتاه فنظر إلى وجهه الكريم فعلم أنه ليس بوجه كذاب، وتأمله فتحقق أنه النبي المنتظر"(٢).

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٧٧-٢٧٩) مختصراً.

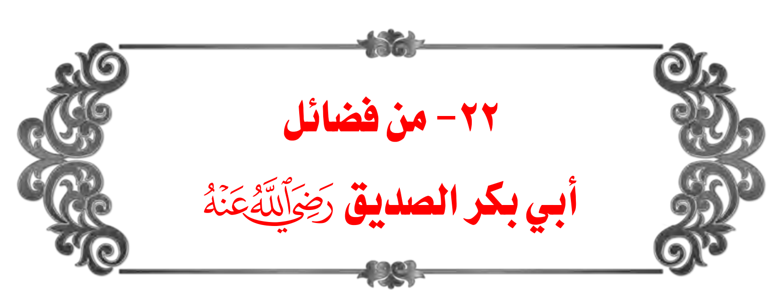
(٢) تفسير أبي السعود (٨/ ٨٠).



أوجه الثناء:


- مكانة عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه نزلت الآية، كما نص على ذلك الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهو القول الراجح، وأما على قول مسروق بن الأجدع الذي اختاره ابن جرير أن هذه الآية مكية نَزَلَت قبل إسلام عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإن عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يشمله عموم لفظ (شاهد) الذي هو اسم جنس كما تقدم، وعليه: فعبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نزلت فيه الآية، أو تشمله الآية؛ وفي كلا الحالين ففي الآية ثناء عليه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

- أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أثبت مسمى الإيمان لمن آمن بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من ضعفاء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾، وضعفاء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يشكلون أغلب المؤمنين في صدر الإسلام، كما تقدم في قول ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ أن المشركين قالوا: لو كان القرآن خيرًا ما سَبَقَنا هؤلاء إليه. يعنون بلالًا وعمَّارًا وصُهَيبًا وخَبَّابًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأشباههم وأقرانهم من المستضعفين والعبيد والإماء؛ ففي كلام المشركين إقرار بسبق أولئك الصحابة إلى الهدى، وذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قولهم منكرًا عليهم تخلفهم عن ركب الهداية بحجة واهية، ولم ينكر عليهم الاعتراف بسبق الصحابة إلى اتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.



٢٢- من فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ



أ- الذي يؤتي ماله يتزكى



الآيات ١٧-٢١ من سورة الليل

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى﴾ أي: وسَيُزَحْزَح عن النار التَّقِيُّ النَّقِيُّ الْأَتْقَى. ثم فَسَّرَه بـ﴿ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ أي: يَصْرِف ماله في طاعة ربه؛ لِيُزَكِّي نفسه وماله وما وَهَبَه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ من دين ودنيا، ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ

﴿مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾ أي: ليس بَذْله ماله في مكافأة من أَسْدَى إليه معروفًا، فهو يُعْطِي في مقابلة ذلك، وإنما دَفَعَه ذلك ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ طمعًا في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في رَوضَات الجنات، قال الله تعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ أي: ولسوف يَرضَى من اتَّصَف بهذه الصفات.

وقد ذَكَرَ غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نَزَلَت في أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، حتى إن بعضهم حكى إجماع المفسِّرين على ذلك[(١)].

ولا شكَّ أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، ولكنه مُقَدَّم الأمة وسابِقُهم في جميع هذه الأوصاف، وسائر الأوصاف الحميدة؛ فإنه كان صِدِّيقًا تقيًّا كريمًا جوادًا بَذَّالًا لأمواله في طاعة مولاه، ونصرةِ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ، فكَم من دراهم ودنانير بَذَلَها ابتغاءَ وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحد من الناس عنده مِنَّةٌ يَحتَاج إلى أن يكافئه بها"[(٢)].

إنه الرضا ينسكب في قلب هذا الأتقى، إنه الرضا يغمر روحه، إنه الرضا

---

(١) مثل: ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ١٥٢)، وابن عطية في المحرر الوجيز (١٥/ ٤٨٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٢٢).

يفيض على جوارحه، إنه الرضا يشيع في كيانه، إنه الرضا يندي حياته.

ويا له من جزاء! ويا لها من نعمة كبرى! يرضى بدينه، ويرضى بربه، ويرضى بقدره، ويرضى بنصيبه، ويرضى بما يجد من سراء وضراء، ومن غنى وفقر، ومن يسر وعسر، ومن رخاء وشدة، يرضى فلا يقلق ولا يضيق ولا يستعجل ولا يستثقل العبء، ولا يستبعد الغاية..

إن هذا الرضا جزاء أكبر من كل جزاء، جزاء يستحقه من يبذل له نفسه وماله، من يعطي ليتزكى، ومن يبذل ابتغاء وجه ربه الأعلى، إنه جزاء لا يمنحه إلا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهو يسكبه في القلوب التي تخلص له، فلا تقصد بعملها أحداً غيره.

أوجه الثناء:

- نزول هذه الآيات في مدح أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإجماع المفسرين.

- وصف التقوى في حقه بصيغة التفضيل ﴿ٱلْأَتْقَى﴾، فمهما بلغ غيره في التقوى إلا أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يزال الأتقى.

- شهد الله تعالى له وهو لا زال حياً بعدم دخول النار وهذه منقبة عظيمة .

- أن إنفاقه لم يكن إلا بنية أن يزكيه الله تعالى، وقد شهد الله جلَّ ثناؤه له بذلك.

- لم يكن إنفاقه من باب رد الجميل لأحد؛ بل له الفضل على غيره.

- أن الله تقدست أسماؤه أخبر أنه سيرضيه بثواب الآخرة العظيم في جنات النعيم.

- فضل الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ حيث إن منهم من شارك أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في بعض صفات الكرم، والإنفاق ابتغاء الثواب من الله عَزَّوَجَلَّ؛ وإن كانوا دون أبي بكر في الفضل كعثمان وعبد الرحمن بن عوف رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

- فضل الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ حيث قدموا أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لدينهم ودنياهم؛ ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذووه.



الآية ٤٠ من سورة التوبة

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ أي: تنصروا رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فإن الله تعالى ناصره ومؤيِّده وكافيه وحافظه،

كما تولَّى نصره ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ أي: عام الهجرة لَـمَّا هَمَّ المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه، فخرج منهم هاربًا صحبة صِدِّيقه وصاحبِهِ أبي بكر بن أبي قحافة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، فلجأَ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطَّلَبُ الذين خرجوا في آثارهم، ثم يسيرا نحو المدينة، فجعل أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ يجزع أن يطَّلع عليهم أحد فيَخْلُص إلى الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ منهم أذًى، فجعل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ يُسَكِّنه ويَثبِّته ويقول: «يا أبا بكر! ما ظنك باثنين الله عَزَّ وَجَلَّ ثالثهما» [متفق عليه]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ أي: تأييده ونصره عليه، أي: على الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ في أشهر القولين، وقيل: على أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، وروي عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا وغيره قالوا: لأن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ لم تزَل معه سكينة، وهذا لا يُنافي تَجَدُّد سكينة خاصة بتلك الحال؛ ولهذا قال: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ أي: الملائكة، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾. قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: يعني ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: الشرك، و﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ هي: لا إله إلا الله. عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، قال: سئل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ عن الرجل يقاتِل شجاعةً، ويقاتِل حَمِيَّةً، ويقاتِل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي

العليا فهو في سبيل الله» [متفق عليه].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: في انتقامه وانتصاره، منيع الجناب، لا يُضامُ مَن لَاذَ ببابه[1]، واحتمى بالتمسك بخطابه ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله"[2].

والقول الثاني أن المقصود بنزول السكينة عليه أي: على أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وجيه جداً، فهو المحتاج إلى السكينة، كما سيأتي.

أوجه الثناء:

- أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ صاحب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ بنص القرآن ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ ، وهذه صحبة مطلقة وليست في الغار فقط، فهو صاحبه في شبابه في الجاهلية، وأول من آمن به وصاحبه في الهجرة، ومستشاره الأول في المدينة، وخليفته في الصلاة في حياته وبعد مماته، وضجيعه في قبره، ويوم

---

(١) المنيع: العزيز القوي، والجناب: الناحية، والضيم: الظلم، ولاذ: لجأ واحتمى، والمعنى: قوي الشأن فلا يقدر أحد على أن يمس ناحيته وجانبه، ولا يُظلم من لجأ واحتمى به سبحانه وتعالى.

مقاييس اللغة (١/ ٤٨٣)، لسان العرب (٣/ ٥٠٧)(١٢/ ٣٥٩)، المفردات في غريب القرآن (ص:٧٧٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ١٥٥).

يقوم الأشهاد.

- بذل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نفسه لصحبة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مع أنه يعلم أنهم إن ظفروا به قتلوه.

- خاف الصديق على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من المشركين خوفًا ظهرت ملامحه عليه، فقال له الرسول الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ ولا تخف، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ معية نصر وتأييد، ولم يقل: (إن الله عَزَّ وَجَلَّ معي وحدي)، بل قال: ﴿مَعَنَا﴾: مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ومع أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ حافظًا مؤيدًا.

- ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ الضمير في (عليه) يعود على أبي بكر فهو الذي كان بحاجة للسكينة؛ بسبب خوفه على الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أن يخلص إليه المشركون، أما هو فقد هانت عليه روحه، وفدى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بنفسه، وحتى لو قلنا: إن الضمير يعود إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ فهل زال خوف أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، أم لا؟! وهل شمله التأييد بجنود لم يرها الناس؟ وهل تمت هجرته مع النبي الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؟! بالإجابة عن هذه الأسئلة يتضح إنه إن لم يكن المقصود بإنزال السكينة عليه؛ فإن له منها نصيبًا وافرًا.

فإن كانت السكينة هي مظنة الإيمان وعلامة الصدق والإخلاص؛ فقد بلغ منها الصديق أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ما لم يبلغه غيره، وقد أيده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وثبَّته في أشد المواقف، كما هو الواقع يوم وفاة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ حيث ظهر ثباته رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقال كلمته المشهورة: [من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله عَزَّوَجَلَّ فإن الله حي لا يموت][(١)] وثبَّت الله جَلَّجَلَالُهُ به الصحابة أجمعين، وقبل مبايعته أمر بإنفاذ جيش أسامة ليظهر قوة الإسلام وأهله مع شدة الموقف وصعوبته.

وفي يوم ردة قبائل العرب وظهور مسيلمة الكذاب وغيره، تزلزلت الجبال وعم الخوف، فظهر ثبات الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقالها بكل حزم وثبات: [والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ لقاتلتهم على منعها][(٢)]، وكان ثباته سببا لثبات المسلمين من ورائه، حتى قال عمر: [فما هو إلا أن رأيت الله تعالى قد شرح صدر أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لذلك فعرفت أنه الحق][(٣)]، وكأن السكينة قد نزلت على قلبه حتى شعر بها الصحابة من حوله، فانطلقت الرايات مع قلة عددهم في أنحاء جزيرة العرب

---

(١) البخاري (٢/ ٧١ رقم ١٢٤١).

(٢) البخاري (٢/ ١٠٥ رقم ١٤٠٠).

(٣) الأثر السابق.

لمقاتلة المرتدين ومانعي الزكاة في وقت واحد، وأيَّد الله عَزَّوَجَلَّ الدين بأبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وجعل الله عَزَّوَجَلَّ كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله عَزَّوَجَلَّ هي العليا، ودانت الجزيرة كلها لحكمه وخلافته، ثم انطلقت الجيوش إلى العراق والشام.

يقول ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ في كلام بديع يصف فيه حال الصديق ومناقبه وخصوصًا منقبة ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾: "فلما وقف القوم على رؤوسهم وصار كلامهم بسمع الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ والصدّيق، قال الصدّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وقد اشتد به القلق: «يا رسول الله! لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا تحت قدميه». فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ: «يا أبا بكر! ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» لما رأى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ حزنه قد اشتد - لكن لا على نفسه - قوى قلبه ببشارة ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾، فظهر سر هذا الاقتران في المعية لفظًا كما ظهر حكمًا ومعنىً، إذ يقال: رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ وصاحب رسول الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فلما مات صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ قيل: خليفة رسول الله، ثم انقطعت إضافة الخلافة بموته فقيل: أمير المؤمنين.

كانت تحفة ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ مدخرة للصديق دون الجميع، فهو الثاني في الإسلام، وفي بذل النفس، وفي الزهد، وفي الصحبة، وفي الخلافة، وفي العمر،

وفي سبب الموت؛ لأن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قد مات عن أثر السم، وأبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سم فمات.

أسلم على يديه من العشرة: عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقّاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وكان عنده يوم أسلم أربعون ألف درهم فأنفقها أحوج ما كان الإسلام إليها، فلهذا جلبت نفقته عليه: «ما نفعني مالٌ ما نفعني مالُ أبي بكر»[رواه أحمد]، فهو خير من مؤمن آل فرعون؛ لأن ذلك كان يكتم إيمانه والصدّيق أعلن به، وخير من مؤمن آل (يس)؛ لأن ذلك جاهد ساعة والصديق جاهد سنين.

عاين طائر الفاقة يحوم حول حب الإيثار ويصيح: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[الحديد:١١] فألقى له حب المال على روض الرضى واستلقى على فراش الفقر، فنقل الطائر الحب إلى حوصلة المضاعفة، ثم علا على أفنان شجرة الصدق يغرد بفنون المدح، ثم قام في محاريب الإسلام يتلو: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾[الليل:١٧-١٨] نطقت بفضله الآيات والأخبار؛ واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار، فيا مبغضيه! في قلوبكم من ذكره نار، كلما تليت فضائله علا عليهم الصغار، أَتُرَى لم يسمع الروافض ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾؟!.

﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ من كان قرين النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ



في شبابه؟ من ذا الذي سبق إلى الإيمان من أصحابه؟ من الذي أفتى بحضرته سريعـًا في جوابه؟ من أوّل من صلّى معه؟ ومن آخر من صلّى به؟ من الذي ضاجعه بعد الموت في ترابه؟ فاعرفوا حق الجار.

نهض يوم الردة بفهم واستيقاظ، وأبان من نص الكتاب معنى دقَّ عن حديد الألحاظ[(١)]، فالمحب يفرح بفضائله والمبغض يغتاظ.

فضائله جلية وهي خليّة عن اللبس، يا عجبا! من يغطي عين ضوء الشمس في نصف النهار، لقد دخلا غاراً لا يسكنه لابث، فاستوحش الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من خوف الحوادث، فقال الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «ما ظنّك باثنين والله الثالث» [متفق عليه]، فنزلت السكينة فارتفع خوف الحادث، فزال القلق وطاب عيش الماكث، فقام مؤذن النصر ينادي على رؤوس منائر الأمصار: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾.

حُبُّه -واللهِ- رأس الحنيفية، وبُغضه يدل على خبث الطوية، فهو خير الصحابة والقرابة والحجة على ذلك قوية.

---

(١) دقَّ الشيء: إذا غمض وخفي، والألحاظ: جمع لحظ وهو النظرة بمؤخر العين. المصباح المنير (١/ ١٩٧)، لسان العرب (٧/ ٤٥٨)، والمعنى أنه يخفى على العين القوية شديدة الملاحظة.

والله ما أحببناه لهوانـًا، ولا نعتقد في غيره هوانـًا، ولكن أخذنا بقـول علـي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كفانـا: [رضـيك رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ لـديننا أفـلا نرضـاك لدنيانا؟!] "[1].

(١) الفوائد (ص:٧٣-٧٥).



الآية ١٦ من سورة الفتح

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "المعنى: إن كنتم تريدون الغزو والغنيمة فستُدْعَون إلى جهاد قوم أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ. وفي هؤلاء القوم ستة أقوال:

أحدها: أنهم فارس، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في آخرين.

والثاني: فارس والروم، قاله الحسن، ورواه ابن أبي نجيح عن مجاهد.

والثالث: أنهم أهل الأوثان، رواه ليث عن مجاهد.

والرابع: أنهم الروم، قاله كعب.

والخامس: أنهم هوازن وغطفان، وذلك يوم حنين، قاله سعيد بن جبير، وقتادة.

والسادس: بنو حنيفة يوم اليمامة، وهم أصحاب مسيلمة الكذَّاب، قاله الزهري، وابن السائب، ومقاتل. قال مقاتل: خِلافةُ أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ في هذه بيِّنةٌ مؤكدة. وقال رافع بن خديج رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: [كنّا نقرأ هذه الآية ولا نَعْلَم مَنْ هُمْ حتى دُعِيَ أبو بكر إلى قتال بني حنيفة، فعَلِمنا أنهم هُمْ]، وقال بعض أهل العِلْم: لا يجوز أن تكون هذه الآية إلاّ في العرب، لقوله: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ﴾، وفارس والروم إنما يقاتَلون حتى يُسْلِموا أو يؤدُّوا الجزية. وقد استدلَّ جماعةٌ من العلماء على صِحَّة إمامة أبي بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا بهذه الآية، لأنه إن أُريدَ بها بنو حنيفة، فأبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ دعا إلى قتالهم، وإن أُريدَ بها فارس والروم، فعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ دعا إلى قتالهم، والآية تُلْزِمهم اتباع طاعة من يدعوهم، وتتوعَّدهم على التخلُّف بالعقاب. قال القاضي أبو يعلى: وهذا يدلّ على صحّة إمامتهما إذا كان المتولِّي عن طاعتهما مستحقاً للعقاب. قوله تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُواْ﴾ قال ابن جريج: فإن تُطيعوا أبا بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ﴾ عن طاعتهما ﴿كَمَا تَوَلَّيۡتُم﴾ عن طاعة محمد

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في المسير إِلى الحديبية"[1].

قال أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفيه دليلٌ على إمامةِ أبي بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إذ لم تتفقْ هذه الدعوةُ لغيرِه"[2].

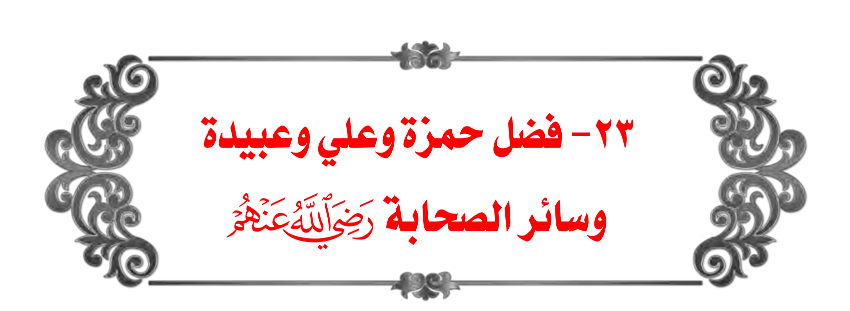
وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "في هذه الآية دليل على صحة إمامة أبي بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، لأن أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ دعاهم إلى قتال بني حنيفة، وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ دعاهم إلى قتال فارس والروم. وأما قول عكرمة وقتادة إن ذلك في هوازن وغطفان يوم حنين فلا؛ لأنه يمتنع أن يكون الداعي لهم الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، لأنه قال: ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ فدل على أن المراد بالداعي غير النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ. ومعلوم أنه لم يدعُ هؤلاء القوم بعد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ إلا أبو بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا"[3].

---

(١) زاد المسير في علم التفسير (٤/ ١٣١-١٣٢).

(٢) تفسير أبي السعود (٨/ ١٠٩).

(٣) تفسير القرطبي (١٦/ ٢٧٢).



٢٣- فضل حمزة وعلي وعبيدة وسائر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

الآية ١٩ من سورة الحج

﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنه كان يُقسِم قسمًا أن هذه الآية: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾ نَزَلت في حمزة وصاحِبَيه، وعُتبةَ وصاحبيه، يوم برزوا في بدر [متفق عليه]، وعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: أنا أول من يَجثُو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة. قال قيس: وفيهم نزلت: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾، قال: [هم الذين بارزوا يوم بدر: عليّ وحمزة وعُبيدة، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة] [رواه البخاري].

وقال مجاهد وعطاء: هم المؤمنون والكافرون. وقولُهما يشمل الأقوال كلها، ويَنتَظِم فيه قصة يوم بدر وغيرها؛ فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلانَ الحق وظهور الباطل"[1].

ومعلوم أن أول مبارزة في حرب في الإسلام كانت يوم بدر، فلا غرو أن تكون أول ما يقضى فيها من الدماء في هذه الأمة.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ -في سياق فضل الثلاثة-: "وقد ثبت في الصحيح أن فيهم نزل قوله: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ الآية [الحج:١٩]. وإن كان في الآية عموم"[2].

أوجه الثناء:

- الثناء على الصحابة عمومًا والثلاثة المذكورين خصوصًا، ومما يؤيد دخول الصحابة -عمومًا- والثلاثة الذين نزلت فيهم الآية -خصوصًا- في عموم الآية؛ قول علي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: [أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة][3].. فلئن كانت الآية مبينةً فضل المؤمنين جميعًا؛

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٠٥-٤٠٦) مختصراً.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٤٧٣).

(٣) تقدم ذكره.

فالصحابة من باب أولى، وخاصةً من نزلت فيهم الآية.

- كما أن الثلاثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا في بداية النزال يمثلون بقية الصحابة، فإن هذا يضفي فضلًا على بقية أهل بدر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، والمشهور أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، قد انتدب ثلاثة من الأنصار، فأبى عتبة ومن معه مبارزتهم، وطلبوا أكفاء من أقربائهم، فاختار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أقرب الناس إليه وهم أبناء عمومة للكفار يجتمعون في عبد مناف[(١)].

- الشهادة لهم بالإيمان والإخلاص وأن خصومتهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم لم تكن لأجل أنفسهم أو أهوائهم، وإنما كانت ﴿فِي رَبِّهِمْ﴾.

- لم تكن خصومتهم مجرد كلام أو دعاوى، إنما كانت خصومتهم في الله جَلَّ جَلَالُهُ ببذل الأرواح والنفوس.

- البشارة الضمنية لهم بالجنة، فلما كان الذين كفروا ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ فُهم أن المؤمنين على النقيض من هذا، وأن جزاءهم الجنة والنعيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

---

(١) ينظر: زاد المعاد لابن القيم (٣/ ١٦٠).



٢٤- ثناء المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على زيد بن حارثة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

الآية ٣٧ من سورة الأحزاب

﴿ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ٣٧ ﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول تعالى مخبراً عن نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال لمولاه زيد بن حارثة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهو الذي أنعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه، أي: بالإسلام، ومتابعة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾ أي: بالعتق من الرق، وكان سيداً كبير الشأن جليل القدر، حبيباً إلى النبي

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، يقال له: الحِبّ، ويقال لابنه أسامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: الحِبُّ ابن الحِبّ. قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «ما بعثه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في سرية إلا أمَّره عليهم، ولو عاش بعده لاستخلفه». رواه أحمد.

وكان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قد زوَّجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا -وأمها أميمة بنت عبد المطلب -وأصدقها عشرة دنانير، وستين درهمًا، وخماراً، وملحفةً، ودرعًا، وخمسين مداً من طعام، وعشرة أمداد من تمر. قاله مقاتل بن حيان، فمكثت عنده قريبًا من سنة أو فوقها، ثم وقع بينهما، فجاء زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يشكوها إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فجعل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يقول له: «أمسك عليك زوجك واتق الله». قال الله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾.

قال الحسن في قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾: الله أعلمَ نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ليشكوها إليه قال: اتق الله، وأمسك عليك زوجك. فقال: قد أخبرتك أني مزوجكها، وتخفي في نفسك ما الله مبديه.

وقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾: الوطر: هو الحاجة

والأرب، أي: لما فرغ منها، وفارقها، زوجناكها، وكان الذي ولي تزويجها منه هو الله تعالى.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾ أي: وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحتمه، وهو كائن لا محالة، كانت زينب رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا في علم الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ستصير من أزواج النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ"(١).

أوجه الثناء:

- أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ سمَّى زيداً في القرآن، ولم يُسمِّ من الصحابة باسمه غيره.

- أن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أخبر أنه أنعم عليه، أي: بنعمة الإسلام والإيمان، وهذه شهادة من الله عَزَّوَجَلَّ له أنه مسلم مؤمن، ظاهراً وباطناً، وإلا فلا وجه لتخصيصه بالنعمة، لولا أن المراد بها النعمة الخاصة.

- ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ فيه وصف الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ بالإيمان، فهم أول من يدخل فيها، فقضية التبني كانت موجودة في زمنهم، وكانوا يجدون هذا الحرج الذي رفعه الله جَلَّوَعَلَا عنهم بهذه الآية.

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٢٤-٤٢٦) مختصراً.



ثانياً: شهادة المولى سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالإيمان للصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ





تمهيد

أعظم الشهادات التي قد ينالها الإنسان في الحياة: شهادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له بالإيمان الحقيقي، هذه الشهادة التي لا يستطيع البشر أن يمنحوها لغيرهم، بل لا يستطيع الإنسان أن يمنحها لنفسه وأن يشهد لها بالإيمان الحقيقي، فهو أمر لا يعلم حقيقته إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومن شهد الله جَلَّ وَعَلَا له بالإيمان فقد فاز فوزا عظيما، فلا يُقْبَل من أحد بعد ذلك أن يشكك في دينه وإيمانه وعدالته، فليس بعد قول الله قول لقائل، وليس بعد شهادة الشهيد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شهادة.

وعندما يسمي الله جَلَّ وَعَلَا نفرا من عباده بـ(المؤمنين)، و(الذين آمنوا)، ويناديهم بهذا الوصف، ويخبر عنهم بأنهم قد حققوا التسليم لأمره والانقياد لشرعه، ويخبر عن أن السكينة قد نزلت في قلوبهم، بل ويجعل إيمانهم هو النموذج الذي ينبغي أن يُحتذى، ويفرِّق بينهم وبين المنافقين بعلامات واضحة جلية، أليس هذا كله شهادة صريحة بإيمانهم؟! وإذا لم تكن هذه شهادة فما ندري ماذا عساها أن تكون الشهادة بالإيمان؟!

وإذا أردت التحقق فتأمل في الآيات القادمة لترى فيها ما ذكرنا وأكثر.

٢٥- شهادة المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالتسليم والانقياد

الآيتان ٢٨٥-٢٨٦ من سورة البقرة

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

هاتان الآيتان من أعظم الآيات في القرآن، فعن أبي مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلةٍ

كفتاه»[(١)].

وقد جاء في سبب نزولهما عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما نزلت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾[البقرة:٢٨٤]، قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فأتوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله! كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير»، قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم، ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ في إثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا

(١) البخاري (٦/ ١٨٨ رقم ٥٠٠٩)، مسلم (١/ ٥٥٤ رقم ٨٠٧).

مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ «قال: نعم» ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾[البقرة:٢٨٦] «قال: نعم» ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ «قال: نعم» ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ «قال: نعم»[1]..

وعن ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾[البقرة:٢٨٤]، قال: دخل قلوبهم منها شيءٌ لم يدخل قلوبهم من شيءٍ[2]، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «قولوا: سمعنا وأطعنا وسلمنا» قال: فألقى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ «قال: قد فعلت» ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ «قال: قد فعلت» ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ «قال: قد فعلت»[3].

---

(١) مسلم (١/ ١١٥ رقم ١٢٥).

(٢) أي: دخل قلوبهم من الآية الكريمة شيء من الفزع والخوف لم يدخلها من أجل شيء آخر من الآيات. من تعليق دراز على الموافقات (٤/ ٣٧).

(٣) مسلم (١/ ١١٦ رقم ١٢٦).

والآيتان مرتبطتان بالآية قبلهما وهي قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾[البقرة:٢٨٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "يخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن، وأنه المطّلع على ما فيهن، لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر، وإن دقَّت وخفيت، وأخبر أنه سَيُحاسِب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم، كما قال: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[آل عمران:٢٩]، وقد أخبر في هذه بمزيد على العلم، وهو: المحاسبة على ذلك، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وخافوا منها، ومن محاسبة الله جَلَّ جَلَالُهُ لهم على جليل الأعمال وحقيرها، **وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم**، وعن مَرْوان الأصفر، عن رجل من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ - أحسَبُه ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ قال: [نسختها الآية التي بعدها] [رواه البخاري]، وهكذا رُوي عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والشعبي، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، وقتادة: أنها منسوخة بالتي بعدها.

قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ إخبار عن النبي

صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ بذلك. وقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ ثم أخبر عن الجميع فقال: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ فالمؤمنون يؤمنون بأن الله جَلَّجَلَالُهُ واحدٌ أحد، صمد، لا إله غيره، ولا رب سواه، ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارُّون راشدون مَهْديون هادُون إلى سُبُل الخير، وإن كان بعضهم ينسَخ شريعة بعض بإذن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، حتى نُسِخ الجميع بشرع محمد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تقوم الساعة على شريعته، ولا تزال طائفة من أمّته على الحق ظاهرين.

وقوله: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعنا قولك يا ربنا، وفهمناه، وقُمنا به، وامتثلنا العمل بمقتضاه، ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ سؤال للغَفْر والرحمة، ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: إليك المرجع والمآب يوم يقوم الحساب.

ثم قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ أي: لا يكلف أحدًا فوق طاقته، وهذا مِن لُطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم، وهذه هي الناسخة الرافعة لِما كان أشفَق منه الصحابة في قوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ

﴿أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ أي: هو وإن حاسب وسأل، لكن لا يعذّب إلا بما يملك الشخصُ دَفْعَهُ، فأما ما لا يمكن دفعُه -من وسوسة النفس وحديثها- فهذا لا يكلّف به الإنسان، وكراهية الوسوسة السيئة من الإيمان.

وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي: من خير ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ أي: من شر، وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف.

ثم قال تعالى مرشدًا عباده إلى سؤاله، وقد تكفل لهم بالإجابة، كما أرشدهم وعلَّمهم أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا﴾ أي: إنْ تركنا فرضًا على جهة النسيان، أو فعلنا حرامًا كذلك ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي: الصوابَ في العمل، جهلًا منا بوجهه الشرعي.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ أي: لا تكلّفنا من الأعمال الشاقة - وإن أطَقْنَاها - كما شرعتَهُ للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار[1] التي كانت عليهم، التي بعثتَ نبيَك محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ نبي الرحمة بوضعِهِ في شرعه الذي أرسلته به من الدين الحنيف السهل السمح.

(١) جمع إصر، وهو الحبل الذي تربط به الأحمال، والمقصود به: الأمر الغليظ الصعب. تفسير ابن عطية (١/ ٣٩٤).

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ أي: من التكليف والمصائب والبلاء، لا تبتلينا بما لا قِبَل لنا به.

وقوله: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ أي: فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزَلَلِنَا، ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ أي: فيما بيننا وبين عبادك، فلا تُظْهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة، ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ أي: فيما يُسْتَقبل، فلا تُوقعنا في ذنب آخر، ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله جَلَّجَلَالُهُ عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره.

وقوله: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي: أنت وليُّنا وناصرنا، وعليك توكلنا، وأنت المستعان، وعليك التّكلان، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك؛ ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك، ورسالة نبيك، وعبدوا غيرك، وأشركوا معك من عبادك، فانصرنا عليهم، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «نعم»، وروى ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن معاذًا كان إذا فرغ من هذه السورة: ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال: آمين"[1].

وهذه الآية فيها ضابط المنهج السلفي، منهج الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وإمامهم سيدنا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، ومن آمن معه من أصحابه الكرام:

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٧٢٨-٧٣٨) مختصراً.



﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ التسليم المطلق والاتباع، فلا جدال ولا اعتراض، وهذا أحد أهم آثار الإيمان وعلاماته الدالة عليه، وذهب قوم فقالوا: لا بد من تحكيم العقل، والإسلام رفع من شأن العقل، وحاكموا النصوص بعقولهم!! وقال آخرون: نستفتي قلوبنا، ولنا كرامات ورؤى صادقة، وشيوخ لهم منزلة.

واليوم انفتح الباب على مصراعيه لكل ناعق، فلا تجد مبدأ ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ بل: اعترضنا وجادلنا!!

أوجه الثناء:

- قوة إيمان الصحابة ويقينهم؛ كما تقدم في كلام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ السابق.

- تأكيد الله عَزَّوَجَلَّ حصول الإيمان وتحقيقه بالفعل الماضي (آمن)، وتكرار الفعل، فالأول عطف على إيمان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾، والثاني إخبار عن الجميع فقال: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ..﴾ الآية.

- سبب نزول الآيات الكريمة وما آل إليه أمر الصحابة من الإيمان بكل ما أنزله الله تعالى على نبيه واستسلامهم لأمر ربهم جَلَّ وَعَلَا؛ فيه ثناء إلهي على الصحابة الكرام وبيان أنهم حققوا الإيمان واليقين، كما قال ابن عباس

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في حديثه السابق: [فَأَلْقَى اللهُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ].

- استجابة الله تعالى دعاءهم، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «قد فعلت» دليل على مكانتهم عند الله تعالى.

- فضلهم على الأمة؛ فهم سبب نزول الآيات، وصبرُهم وحسن سؤالهم سبب التخفيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

- نجاح الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم في هذا الابتلاء حيث قالوا: «سمعنا وأطعنا»، واتبعوا قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ولم يعترضوا، بخلاف اليهود الذين قال الله عَزَّ وَجَلَّ لهم: قولوا: حطة، فقالوا: حنطة[1]، ولم يقولوا: سمعنا وأطعنا.

- ذَكَر الله تعالى أعظم قضايا الإيمان ﴿بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾، ثم ذكر قضية الانقياد ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وهي القضية الفارقة بين جيل الصحابة وبين غيرهم، فعظمة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تتجلى في هذا الخضوع والانقياد والتعظيم لأمر الله تعالى، ولو تحملوا في سبيل هذا الانقياد أعظم

(١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في قوله عز وجل: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ قال: «دخلوا زحفا» ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ قال: "بدلوا فقالوا: حنطة في شعرة". أحمد (١٣/ ٤٧١ رقم ٨١١٠) وأصل الحديث في الصحيحين.

التبعات والمشاق، وكان هذا هو المعلم البارز في سيرتهم المباركة والعنصر الأهم في منهجم النقي، وهو الشيء المشترك في أحوالهم جميعًا على اختلاف اجتهاداتهم وآرائهم في القضايا الشرعية، فكانوا في المقام العالي عند الله سبحانه.



٢٦- شهادة المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بالإيمان

الآية ١٠٩ من سورة البقرة

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يحذّر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب، ويُعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين الذين عاصروهم وهم الصحابة، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو والاحتمال، حتى يأتي أمر الله عَزَّوَجَلَّ من النصر والفتح، ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ويحثهم على ذلك ويرغبهم فيه"[(١)].

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٢-٣٨٣).

قال رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "بين الله تعالى أن أهل الكتاب المتعصبين لدينهم - من حيث هو جنسية لهم تقوم بها منافع جنسهم - لم يكتفوا بكفرهم بالنبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ والكيد له ونقض ما عاهدهم عليه حسداً له ولقومه على نعمة النبوة، بل هم يزيدون على ذلك ما قصه تعالى بقوله: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾، فهو بيان لما يضمرونه وما تُكِنُّه صدورهم للمسلمين من الحسد على نعمة الإسلام التي عرفوا أنها الحق، وأن وراءها السعادة في الدارين، ولكنهم شَقَّ عليهم أن يتبعوهم، فتمنوا أن يحرموا هذه النعمة ويرجعوا كفاراً كما كانوا، وذلك شأن الحاسد يتمنى أن يسلب محسوده النعمة ولو لم تكن ضارة به، فكيف إذا كان يعلم أن تلك النعمة إذا تمت وثبتت يكون من أثرها سيادة المحسود عليه وإدخاله تحت سلطانه، كما كان يتوقع علماء يهود في عصر التنزيل؟"[1].

أوجه الثناء:

- شهادة الله تعالى للصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بالإيمان، حيث أضاف الإيمان لهم فكأنهم مختصون به ﴿مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾.

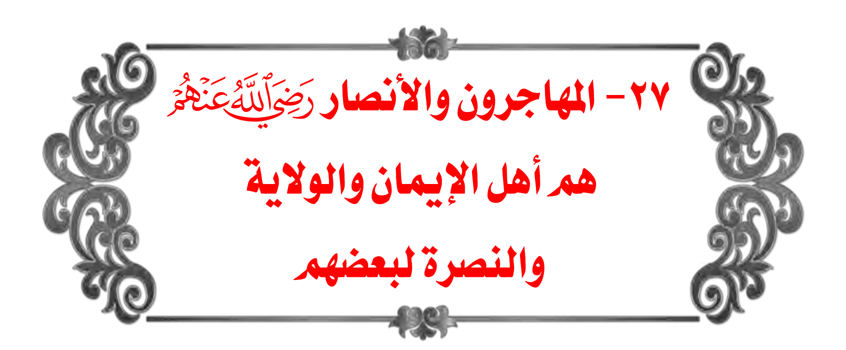
---

(١) تفسير المنار (١/ ٣٤٦).

- بيان أن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ في أعلى مقام من وضوح الحق وتبيُّنِه لهم؛ إذ قد ذكر الله جلَّ في علاه أن أهل الكتاب تبين لهم الحق، فمن باب أولى أن يكون الصحابة أكثر تبينًا له ويزيدون على أهل الكتاب باتباع الحق.

- أن من سبَّ الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ فقد تشبه باليهود الذين حسدوا الصحابة وسبوهم ﴿يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ ﴾ فالضمير يرجع للصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، واليهود هم الذين بذلوا جهدهم في الكيد.

- في أمر الله عَزَّوَجَلَّ لهم بالعفو والصفح بعد ذكر تمني أهل الكتاب ردتهم، دليل على استمرار الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ على إيمانهم وعدم ردتهم؛ إذ لو كان ذلك لحذرهم منه هنا.



الآيات ٧٢-٧٥ من سورة الأنفال

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٧٢ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ٧٣ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٧٤ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ٧٥﴾

يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ذكر تعالى أصناف المؤمنين، وقسَّمهم إلى مهاجرين، وهم الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم، وجاؤوا لنصر الله جَلَّجَلَالُهُ ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ، وإقامة دينه، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك. وإلى أنصار، وهم: المسلمون من أهل المدينة (الأوس والخزرج) إذ ذاك، آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم، وواسَوْهم في أموالهم، ونصروا الله جَلَّجَلَالُهُ ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ بالقتال معهم، فهؤلاء ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾ أي: كل منهم أحق بالآخر من كل أحد؛ ولهذا آخى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ بين المهاجرين والأنصار، كل اثنين أخَوان، فكانوا يتوارثون بذلك إرثًا مقدمًا على القرابة، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث. وقد أثنى الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ على المهاجرين والأنصار رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ في غير ما آية في كتابه فقال: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾ الآية [الحشر:٨- ٩].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾ هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا في

بَوَاديهم، فهؤلاء ليس لهم في المغانم نَصِيبٌ، ولا في خُمسها إلا ما حضروا فيه القتال.

عن بُرَيدة بن الحُصَيب الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إذا بعث أميرًا على سرية أو جيش، أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله عَزَّ وَجَلَّ ومن معه من المسلمين خيرًا، وقال: «...فإن أجابوك فاقبل منهم، وكُفّ عنهم، ثم ادْعُهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلِمْهم إنْ فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين. فإن أبَوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله عَزَّ وَجَلَّ الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين» [رواه مسلم].

﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يقول تعالى: وإن استنصروكم هؤلاء الأعراب - الذين لم يهاجروا - في قتال ديني على عدو لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم؛ لأنهم إخوانكم في الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ أي: مهادنة إلى مدة، فلا تخفروا ذمتكم، ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم. وهذا مروي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضُهم أولياء بعض، قطع الموالاة بينهم وبين الكفار. عن أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم» [متفق عليه].

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أي: إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت الفتنة في الناس، وهو التباس الأمر، واختلاط المؤمن بالكافر، فيقع بين الناس فساد منتشر طويل عريض.

ولما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا، عطف بذكر ما لهم في الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان، كما تقدم في أول السورة، وأنه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب إن كانت، وبالرزق الكريم، وهو الحسَن الكثير الطيب الشريف، دائم مستمر أبدًا لا ينقطع ولا ينقضي، ولا يُسْأم ولا يُمَلُّ لحُسنه وتنوعه.

ثم ذكر أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة كما قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ الآية [التوبة:١٠٠]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر:١٠] وفي الحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «المرء مع من أحب» [متفق عليه]"(١).

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٩٥-٩٩) مختصراً.



أوجه الثناء:

- الثناء على المهاجرين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بأنهم هاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ، فبلغوا من التضحية المرتبة الأعلى، بالمال وبالنفس (والجود بالنفس أسمى غاية الجود)، وهم في كل ذلك يطلبون الغاية الأسمى، وهي رضا الله تعالى، وفي سبيل ذلك بذلوا كل غالٍ ورخيص.

- الثناء على الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنهم آووا إخوانهم المهاجرين، ونصروهم، وآثروهم على أنفسهم، وأشركوهم في أموالهم وديارهم مع ما كانوا عليه من الحاجة.

- المهاجرون والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾، وهي ولاية لله ومن أجل الله عَزَّ وَجَلَّ ولنصرة دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فهي شاملة لهم جميعًا، ومنهم الخلفاء الراشدون.

- من آمن ولم يهاجر من الصحابة يصدق عليه وصف الإيمان، وإن كان أدنى مرتبة من المهاجرين، ولا يجوز وصفهم بالنفاق؛ إذ إن الله تعالى قد وصفهم بالإيمان.

- من آمن ولم يهاجر من الصحابة وجب نصره إن استنصر في الدين،




وطلب الدعم والتعزيز في مواجهة الكافرين، ما لم يكن هناك مواثيق تحول دون ذلك، فتُسْلَك مسالك أخرى لا تضرّ بالعهود والمواثيق، ولا تُعرِّض المؤمنين من غير المهاجرين والأنصار للمهالك؛ قدر الإمكان، وكل حادثة لها حكمها، كما جرى لأبي بصير وأبي جندل ومن معهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[1].

- إن كان غير المهاجرين والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يجب نصرهم إن استنصروا في الدين؛ فما بالنا بالمهاجرين والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أصحاب التضحيات والبذل والتفاني والجهاد بالمال والنفس في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. لا شك أنه يجب الانتصار لهم، والذود عن دمائهم وأعراضهم وأموالهم، ومن ذلك الذب عنهم بعد وفاتهم والدفاع عن أعراضهم ومكانتهم من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، والرد على كل من طعن بهم.

- الفتنة والفساد الكبير في عدم الانتصار للمؤمنين من غير المهاجرين

---

(١) وقصتهم باختصار: أن أبا بصير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قدم مهاجرا إلى المدينة، فردَّه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ إلى المشركين وفاء بشرط الحديبية، فقتل أبو بصير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرافقيه من المشركين، ولما علم أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لن يقبله في المدينة ذهب إلى ساحل البحر فانضم إليه المسلمون المضطهدون في مكة مثل أبي جندل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصاروا يقطعون قوافل قريش حتى طلبت قريش أن يقبلهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ عنده في المدينة وتنازلوا عن شرطهم، والقصة في البخاري (٣/ ١٩٣ رقم ٢٧٣١).

والأنصار، فما الظن بالمهاجرين والأنصار أنفسهم، حتى بعد وفاتهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين؟!

- تكرار وصف المهاجرين والأنصار بأوصاف الإيمان، وذكر بذلهم الغالي والنفيس تأكيداً على استحقاقهم لهذه الأوصاف والثناء.

- وصْفُ المهاجرين والأنصار بالإيمان وصفًا بليغًا يفيد الحصر؛ لتوسط ضمير الفصل (هم) بين اسم الإشارة ووصف الإيمان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ﴾، وإن كان غيرهم من المؤمنين ممن جاؤوا من بعدهم وساروا على نهجهم يشتركون معهم في وصف الإيمان، إلا أن وصفهم بذلك فيه تشريف، كما لو لم يكن على الإيمان إلا هم، وذلك وصف بليغ في حقهم.

- تأكيد إيمانهم بـ(حقًا)، وذلك لعمري الشرف الأسمى والمكان الأعلى الذي شرفهم الله عَزَّوَجَلَّ به.

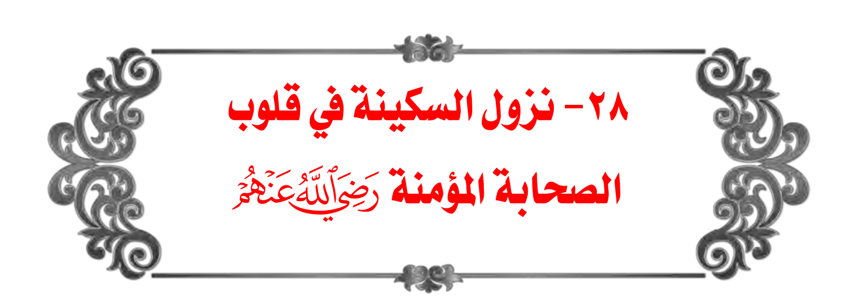
- وَعَدَهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مغفرة سابغة تستوعب كل ذنب، وتطهر من كل شَوْب، وفي ذلك أنهم ليسوا بمعصومين، وأن الله عَزَّوَجَلَّ ييسرهم لما اصطفاهم له، وفي الحديث: «كلٌّ مُيسَّر لما خُلق له»[(١)]، ويشاركهم في تلك

(١) البخاري (٦/ ١٧١ رقم ٤٩٤٩)، مسلم (٤/ ٢٠٤٠ رقم ٢٦٤٧) عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المكرمة أهلُ البيت ممن كان مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ مهاجرًا، كالعباس وبنيه، وجعفر بن أبي طالب، وعلي بن أبي طالب، والحسن والحسين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ، وكما أنه تشملهم المغفرة مثلهم مثل بقية المهاجرين والأنصار؛ كذلك يشملهم وصف عدم العصمة.

- وَعَد الله عَزَّ وَجَلَّ المهاجرين والأنصار رزقًا كريمًا في جنات النعيم، وكيف يتأتى لأحد من الشيعة أو غيرهم القول بأن من شرفه الله سبحانه بذلك ووعده بالجنات والنعيم المقيم؛ أنه يرتد، ويموت على غير الهدى، ويتخلف وعد الله تعالى، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ﴿سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾[النور:١٦].

- ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾ مكرمة ينالها من آمن من بعد الرعيل الأول من المهاجرين والأنصار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ، وهاجر وجاهد معهم، فتشمل الآية السابقين من الصحابة واللاحقين منهم، ومن آمن وجاهد على ما جاهد عليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ وصحابته رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ؛ فله من تلك المكرمة نصيب.



٢٨- نزول السكينة في قلوب الصحابة المؤمنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

الآيتان ٤-٥ من سورة الفتح

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ أي: جعل الطمأنينة ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم الصحابة يوم الحديبية، الذين استجابوا لله عَزَّوَجَلَّ ولرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وانقادوا لحكم الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فلمَّا اطمأنَّت قلوبهم لذلك، واستقرَّت؛ زادهم إيمانًا مع إيمانهم، وقد استدَلَّ بها البخاري وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في

القلوب.

ثـم ذَكَـر تعـالى أنـه لـو شـاء لانتصـر مـن الكـافرين، فقـال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ولـو أرسـل علـيهم مَلَكًـا واحـدًا لَأَبـادَ خَضْـرَاءهم، ولكنـه تعـالى شَـرَع لعبـاده المـؤمنين الجهـاد والقتـال، لِـمَا لـه في ذلـك مـن الحكمة البالغة[1] والحجة القاطعة والبراهين الدامغة؛ ولهـذا قـال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

ثم قال تعـالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبدًا، ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: خطاياهم وذنوبهم، فـلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصـفح ويغفـر، ويسـتر ويَـرحَـم ويَشْـكُر، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، كقولـه: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[آل عمران:١٨٥]"[2].

قـال الشـنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومفهـوم المخالفـة في قولـه: ﴿فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أن قلـوب غيـر المـؤمنين ليسـت كـذلك، وهـو كـذلك؛ ولـذا كـان جـزاؤهم مخالفًـا لجـزاء المـؤمنين، كمـا صـرح تعـالى بـذلك في قولـه: ﴿وَيُعَذِّبَ

---

(١) وقد أنزل الله آيات في بيان بعض الحِكَم منها ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾[آل عمران:١٤٠].

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٢٨-٣٢٩) مختصراً.



ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾[الفتح:٦]"[(١)].

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فكان في ذكر عناية الله تعالى بإصلاح نفوسهم، وإذهاب خواطر الشيطان عنهم، وإلهامهم إلى الحق في ثبات عزمهم، وقرارة إيمانهم، تكوين لأسباب نصر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ والفتح الموعود به، ليندفعوا حين يستنفرهم إلى العدو بقلوب ثابتة، ألا ترى أن المؤمنين تبلبلت نفوسهم من صلح الحديبية إذا انصرفوا عقبه عن دخول مكة بعد أن جاؤوا للعمرة بعدد عديد حسبوه لا يغلب، وأنهم إن أرادهم العدو بسوء أو صدهم عن قصدهم قابلوه فانتصروا عليه، وأنهم يدخلون مكة قسراً.

وقد تكلموا في تسمية ما حل بهم يومئذ فتحـًا كما علمت مما تقدم، فلما بَيَّن لهم الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ما فيه من الخير اطمأنت نفوسهم بعد الاضطراب، ورسخ يقينهم بعد خواطر الشك، فلولا ذلك الاطمئنان والرسوخ لبقوا كاسفي البال شديدي البلبال[(٢)]، فذلك الاطمئنان هو الذي سماه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالسكينة، وسمي إحداثه في نفوسهم إنزالاً للسكينة في قلوبهم فكان النصر مشتملاً على أشياء من أهمها إنزال السكينة"[(٣)].

---

(١) أضواء البيان (٧/ ٣٩٤).

(٢) البلبال: وسواس الهموم في الصدر. مقاييس اللغة (١/ ١٩٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٤٩).

أوجه الثناء:

- وصف الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إياهم بالإيمان في الآيتين كليهما ﴿فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

- إنزال الله تعالى السكينة في قلوبهم، بعد أن أصابهم غبن وقهر شديد من تحرير الصلح وحضور أبي جندل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يرسف بالحديد، لما في قلوبهم من حمية دينية عظيمة.

- زيادة إيمانهم بامتثالهم أمر الله جَلَّ جَلَالُهُ وأمر رسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بالتحلل من العمرة[(١)].

- إكرام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إياهم بأن شهدوا الفتح العظيم مع النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وحصولهم على بركات الفتح المبين، صلح الحديبية.

- أن الله تعالى ذكر أن عاقبة الصحابة الجنة، وامتن تعالى عليهم بتكفير الذنوب، والخلود في الجنة، والفوز العظيم، قال تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾.

- اختيارهم لإظهار دينه ورفع كلمته؛ وإلا فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له جنود

(١) كما في البخاري (٣/ ١٩٣ رقم ٢٧٣١).

السموات والأرض، ولو أرسل على الكفار مَلَكًا واحدًا لَأَبَادَ خَضْـرَاءهم، ولكنه تعالى شَرَع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال، لِـمَا له في ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة، والبراهين الدامغة، كما تقدم من قول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

- تفضيلهم بالإيمان على من سواهم، كما تقدم في كلام الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

- كان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يوم الحديبية ألفًا وأربعمائة رجل -على أرجح الأقوال-، وفيهم نزل الفضل العظيم، واستحقوا الفوز المبين الذي لم يشاركهم فيه أحد، وليسوا شخصًا واحداً أو اثنين أو ثلاثة كما يدَّعي الرافضة؛ لينفوا الإيمان وفضل الرحمن عن أوليائه الصحابة الأخيار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

- تكرَّر الخبر عن إنزال السكينة على الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في مواضع عدة من القرآن.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾[الفتح:٤].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا

فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾[الفتح:١٨].

وقال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾[الفتح:٢٦].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾[التوبة:٢٦]،

فهل تنزل سكينة الله تعالى على قلوب ليست صالحة لها؟!



٢٩- الإيمان هو إيمان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وإمامهم سيد المرسلين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ

الآية ١٣٧ من سورة البقرة

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟﴾ أي: الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أيها المؤمنون – النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وأصحابه وهم المخاطبون بالآية –، من الإيمان بجميع كتب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ أي: فقد أصابوا الحق، وأرشدوا إليه ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: عن الحق إلى الباطل، بعد قيام الحجة عليهم ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: فسينصرك

عليهم ويظفرك بهم ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾"[١].

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي إيمانًا مماثلًا لإيمانكم، فالمماثلة بمعنى المساواة في العقيدة والمشابهة فيها"[٢].

أوجه الثناء:

- جعل المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الإيمان هو إيمان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وإمامهم سيد المرسلين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

- جعل المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الهداية مرتبطة باتّباعهم، وكما قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في وصف الفرقة الناجية: «من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»[٣]، وقد ورد التأكيد على اتباع الصحابة خير البشر بعد الرسل في أكثر من موطن، ومن ذلك، قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة:١٠٠].

- هم أعلام الدين ونبراس الهداية، بهم عُرِف الدين وانتشر بين الناس، وما كانوا عليه هو المعيار في معرفة الحق، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٥٠).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٧٤١).

(٣) الترمذي (٤/ ٣٢٣ رقم ٢٦٤١).

- المخالفون لمنهج الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في شقاق واختلاف وتناقض ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾، وذلك لتعدد مسالكهم واضطرابها، وأما الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فقد كان مسلكهم واحداً ومنهجهم واضحاً وهو: التسليم والانقياد لله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وعدم منازعة الوحي بالآراء والأهواء والعقول، فلما حققوا تمام الانقياد تحقق لهم صحة الإيمان واكتمل لهم الهدى وصاروا قدوة لمن بعدهم، فمن سلك غير هذا المنهج فإنما هو في شقاق.



الآيات ١ - ٣ من سورة الحجرات

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣﴾

سورة الحجرات أو سورة الآداب الصغرى، نزلت عام الوفود، فهي من أواخر ما نزل، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " هذه آداب أدب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ

وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾، أي: لا تسرعوا في الأشياء بين يديه، أي: قبله، بل كونوا تبعا له في جميع الأمور..

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم به، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي: لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ هذا أدب ثان أدب الله به المؤمنين ألا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ فوق صوته، وقد روي أنها نزلت في الشيخين أبي بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيران أن يهلكا، أبو بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، رفعا أصواتهما عند النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر -قال نافع: لا أحفظ اسمه- فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي. قال: ما أردت خلافك. فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الآية، قال ابن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: فما كان عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يسمع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه: يعني أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. انفرد به (البخاري) دون مسلم.

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه. فأتاه فوجده في بيته منكسا رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يرفع صوته فوق صوت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فقد حبط عمله، فهو من أهل النار. فأتى الرجل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فأخبره أنه قال كذا وكذا، قال موسى: فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال: "اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة" تفرد به البخاري من هذا الوجه.

ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾، كما قال: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ﴾.

وقوله: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله لغضبه، فيحبط الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عمل من أغضبه وهو لا يدري.

ثم نَدَب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى خَفْض الصوت عند رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وحَثَّ على ذلك، وأَرْشَدَ إليه، ورَغَّب فيه، فقال: ﴿إِنَّ

ﵟٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚﵞ أي: أخْلَصَها لها وجَعَلها أهلًا ومحلًّا ﵟلَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌﵞ"[1].

وقال أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ترغيب في الانتهاء عما نُهوا عنه بعد الترهيب عن الإخلال به، أي: يخفضونها مراعاة للأدب أو خشية من مخالفة النهي ﵟأُوْلَٰٓئِكَﵞ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه لتفخيم شأنه، وهو مبتدأٌ خبرُه ﵟٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚﵞ أي: جرَّبها للتقوى ومرَّنها عليها، أو عرفها كائنة للتقوى خالصة لها، فإن الامتحان سبب المعرفة، واللام صلة لمحذوف أو للفعل باعتبار الأصل، أو ضرب قلوبهم بضروب المحن والتكاليف الشاقة لأجل التقوى، فإنها لا تظهر إلا بالاصطبار عليها، أو أخلصها للتقوى، مِن: امتَحن الذهب إذا أذابه وميَّز إبريزه[2] من خبثه، وعن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: [أذهب عنها الشهوات].

ﵟلَهُمﵞ في الآخرة ﵟمَّغۡفِرَةٞﵞ عظيمة لذنوبهم ﵟوَأَجۡرٌ عَظِيمٌﵞ لا يقادر قدره"[3].

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٦٤-٣٦٨).

(٢) ذهب إبريز: خالص. لسان العرب (٥/ ٣١١).

(٣) تفسير أبي السعود (٨/ ١١٧).

أوجه الثناء:

- مخاطبة الله تعالى للصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ باسم الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾.

- أن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ لم يحبط أعمالهم، وأن أعمالهم كانت مقبولة قبل نزول الآية، وليس في الآيات أن أعمالهم حبطت، وإنما التحذير من الوقوع فيما يحبط العمل، كما تقدمت الإشارة في كلام ابن كثير.

- ذكر الله تعالى جمهور الصحابة وأثنى عليهم جَلَّوَعَلَا، وأنه هيأ قلوبهم للتقوى، ووعدهم بالمغفرة والأجر العظيم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، وهذا ثناء صريح وفضل مبين لجمع من الصحابة الكرام، وهكذا جمهور الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ هم أصحاب الخلق الرفيع مع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓالِهِوَسَلَّمَ؛ ويدل لذلك ما قاله الله تعالى في الآية بعدها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[الحجرات:٤]، فقد أنكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على الأعراب غلظتهم ورفع أصواتهم في ندائهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓالِهِوَسَلَّمَ، ولو كان هذا شأن جمهور الصحابة؛ لما كان للإنكار على الأعراب كبير فائدة لاعتبار أن الخلق السائد عند الصحابة هو الغلظة

والفضاضة، ولكن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا أصحاب خلق رفيع وأدب كريم مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، واحترام لجنابه ومقامه الشريف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وكان من الأعراب من لم يتأدب بآدابهم، وتعامل مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كما ينادي بعضهم بعضًا في البادية؛ لذلك أنكر الله عَزَّ وَجَلَّ عليهم فعلهم.

- الثناء على ثابت بن قيس بن شماس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأنه من أهل الجنة، كما في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند البخاري: «اذهب إليه؛ فقُلْ له: إنك لستَ من أهل النار، ولكنَّكَ من أهل الجنة"[1].

- امتثال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أمر الله تعالى بالتأدُّب في حضرة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ ففي البخاري: قال ابن أبي مليكة: قال ابن الزبير: «فكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعدُ إذا حدث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بحديث حدَّثه كأخي السِّرار[2] لم يُسْمِعْهُ حتى يستفهمه»[3]. وقال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لما نزلت هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ﴾؛ قلت: يا

---

(١) البخاري (٦/ ١٣٧ رقم ٤٨٤٦).

(٢) أي: كصاحب السر الذي يخفض صوته حتى لا يسمعه أحد. النهاية في غريب الحديث (٢/ ٣٦٠).

(٣) البخاري (٩/ ٩٧ رقم ٧٣٠٢).

رسول الله! والله لا أكلمك إلا كأخي السّرار»[(١)]، وبذلك كان الصحابة جديرين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾؛ فكانوا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يتحرون مواطن المغفرة والأجر العظيم؛ يقينًا بما عند الله تعالى.

- إجلالهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لجناب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في حياته وبعد مماته، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه سمع صَوت رجلين في مسجد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء، فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: مِن أين أنتما؟ قالا من أهل الطائف. فقال: لو كنتما من أهل المدينة؛ لأوجعتكما ضربًا [رواه البخاري].

وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره، كما كان يكره في حياته؛ لأنه محترم حيًا وفي قبره، صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ عليه دائمًا"[(٢)].

- خفض الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لأصواتهم عند رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ

---

(١) المستدرك (٢/ ٥٠١ رقم ٣٧٢٠) وقد جاء من عدة طرق، قال ابن كثير : "حصين بن عمر هذا -وإن كان ضعيفًا- لكن قد رويناه من حديث عبد الرحمن بن عوف، وأبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بنحو ذلك، والله أعلم". تفسير ابن كثير (٧/ ٣٦٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٦٨).

إنما هو مظهر من مظاهر التعظيم والخضوع والانقياد لأمر الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فمن لا يجرؤ على رفع صوته بحضرة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كيف سيجرؤ على تقديم رأيه على أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؟! ولهذا كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أولى الناس بامتثال الأمر الرباني في أول السورة: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فلم يعرف من سيرتهم ولا من منهجهم التقدم على الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، بل كان منهجم الاتباع والاقتداء وشعارهم (سمعنا وأطعنا).



٣١- شهادة المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالإيمان لأهل بدر

الآيات ٥-٦ من سورة الأنفال

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال الطبري: اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه (الكاف) في قوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ﴾، فقال بعضهم: شُبِّه به في الصلاح للمؤمنين اتقاؤهم ربهم، وإصلاحهم ذات بينهم، وطاعتهم الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ على كره من فريق من المؤمنين، كذلك هم كارهون للقتال، فهم يجادلونك فيه بعد ما

تبين لهم.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: [لما شاور النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في لقاء العدو، وقال له سعد بن عبادة ما قال، وذلك يوم بدر، أمر الناس أن يتهيَّؤوا للقتال، وأمرهم بالشوكة، فكره ذلك بعض أهل الإيمان، فأنزل الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ الآيتان]. قال مجاهد: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾: في القتال"[(١)].

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا الحال كحال ما أخرجك ربك من بيتك بالحق، ووجه الشبه هو كراهية المؤمنين في بادئ الأمر لما هو خير لهم في الواقع"[(٢)].



أوجه الثناء:

- وَصْف الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ كلا الفريقين من الصحابة الذين شهدوا بدرًا بالإيمان: الذين كرهوا ملاقاة العدو، والذين لم يكرهوا ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾، فجعل المؤمنين فريقين: كاره وغير كاره.

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٤-١٦) مختصراً.

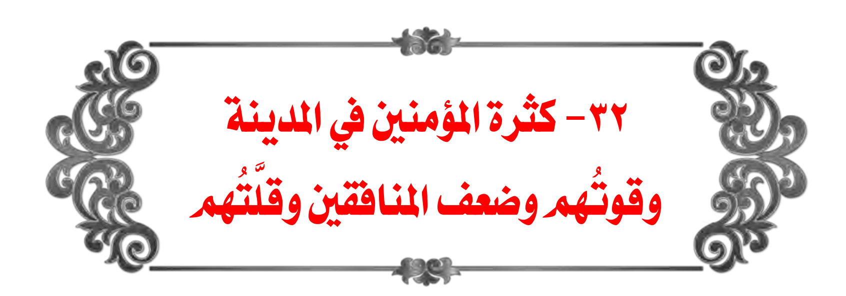
(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٢٦٣).

- وَصَف الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الكارهين للقتال من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بالإيمان، رغم كُرههم للخروج، ومجادلة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في ذلك لثنيه عن عزمه، وتُصوِّرُهم الآية بتصوير بليغ ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾.. وكل هذا لم يؤثر على وصفهم بالإيمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

- الآية مصداق لقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «اطلع الله عَزَّوَجَلَّ على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»(١)، فمع مجادلتهم وكراهيتهم للقتال لم ينقص هذا من فضلهم ومكانتهم، وهذا يدل على على فضل أهل بدر، وأن الصحابة متفاوتون في الفضل، وأنهم غير معصومين، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

---

(١) البخاري (٥/ ٧٧ رقم ٣٩٨٣)، ومسلم (٤/ ١٩٤١ رقم ٢٤٩٤) من حديث علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.



٣٢- كثرة المؤمنين في المدينة وقوتُهم وضعف المنافقين وقلَّتُهم

الآيتان ١٤-١٥ من سورة البقرة

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول تعالى: وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ أي: أظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافاة، غرورًا منهم للمؤمنين ونفاقًا ومُصانَعة وتقية، وليَشركوهم فيما أصابوا من خير ومغنم، ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟﴾ يعني: وإذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا ﴿إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ﴾ عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: [من يهود الذين يأمرونهم بالتكذيب وخلاف ما جاء به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ﴾ أي: إنا على مثل ما أنتم عليه ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي: إنما نحن نستهزئ بالقوم ونلعب بهم.

وقوله تعالى جوابًا لهم ومقابلة على صنيعهم: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾: أخبر الله تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة في قوله: ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾ الآية [الحديد:١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمۡ﴾ يزيدهم على وجه الإمهال والترك لهم في عُتُوّهم وتَمَرُّدهم.

قوله: ﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ في ضلالهم وكفرهم الذي غمرهم دَنَسُه، وعَلاهم رِجْسَه، يترددون حيارى ضُلَّالًا، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلًا"(١).

ولا يخفى عليك أيها القاريء أن بعض الناس يحسب اللؤمَ قوة، والمكرَ السيئ براعة، والكذبَ والخداعَ سياسة، وهو في حقيقته ضعف وخِسَّة، فالقوي ليس لئيمًا ولا خبيثًا، ولا مخادعًا ولا متآمرًا، ولا غمازًا في الخفاء لمازًا. وهؤلاء المنافقون الذين كانوا يجبنون عن المواجهة، ويتظاهرون

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٨٣-١٨٥) مختصراً.

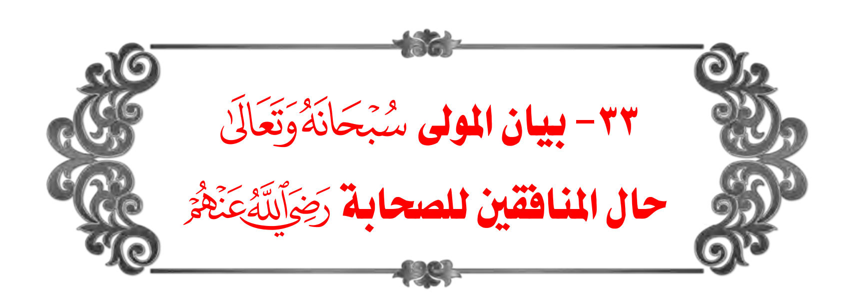
بالإيمان عند لقاء المؤمنين ليتَّقُوا الأذى، وليتخذوا هذا الستار وسيلة للكسب وأذى المؤمنين ، هؤلاء كانوا يلجأون إلى شياطينهم من اليهود الذين كانوا يجدون في هؤلاء المنافقين أداة لتمزيق الصف الإسلامي وتفتيته وكانوا يجدون في اليهود سندًا وملاذًا، والتاريخ يشهد أن اليهود شنوا الحروب وتآمروا على الإسلام والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ منذ بعثته وإلى اليوم.

أوجه الثناء:

- إثبات الإيمان لجمهور أهل المدينة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وأن الإيمان هو الصفة الغالبة لمجتمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حتى اضطر المنافقون لادّعاء الإيمان؛ ليُجارُوا الكثرة الكاثرة والأغلبية القوية في مجتمع الإيمان، وفيه دلالة ظاهرة على ضعف المنافقين وقلة عددهم.

- وَصْف أولياء المنافقين بأنهم شياطين، وهذا يتضمن الثناء على الصحابة وأهل الإيمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بأنهم ليسوا من أولياء شياطين الإنس والجن.

- دفاع الله تعالى عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بأن قال في حق المستهزئين بالصحابة: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.



الآيات ١٠١-١٠٣ من سورة التوبة

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يُخبِر تعالى رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أن في أحياء العرب ممَّن حول المدينة ﴿مُنَٰفِقُونَ ۖ﴾، وفي أهل المدينة أيضًا منافقون، ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أي: مَرَنُوا واستَمَرُّوا عليه، ومنه يقال: شيطان مَرِيد ومارد، ويقال: تمرَّد فلان على الله عَزَّوَجَلَّ، أي: عَتَا وَتَجَبَّر.

﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ لا ينافي قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾[محمد:٣٠]؛ لأن هذا من باب التَّوَسُّمِ فيهم بصفات يُعرفون بها، لا أنه يَعرِف جميع من عنده من أهل النفاق والرَّيب على التعيين.

وقد كان يعلم أن في بعض من يُخالطه من أهل المدينة نفاقًا، وإن كان يراه صباحًا ومساءً.

قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ﴾ قال ابن جُريج: عذابُ الدنيا، وعذاب القبر، ثم يُرَدُّون إلى عذاب النار.

ولَـمَّا بَيَّن تعالى حالَ المنافقين الـمُتَخَلِّفِين عن الغَزَاة رغبةً عنها وتكذيبًا وشكًّا؛ شَرَع في بيان حال المذنبين الذين تأخَّروا عن الجهاد كسلًا وميلًا إلى الراحة، مع إيمانهم وتصديقهم بالحقِّ، فقال: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ أي: أقرُّوا بها واعترفوا فيما بينهم وبين رَبِّهم، ولهم أعمال أُخَر صالحة، خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله جَلَّ جَلَالُهُ وغفرانه. وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين إلا أنها عامة في كل المذنبين الخاطئين المخلطين المتلوِّثين.

ثم أَمَرَ الله تعالى رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بأن يأخُذَ ﴿مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾

يطهِّرهم ويزكِّيهم بها، وهذا عامٌّ، وإن أعاد بعضهم الضمير في ﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾ إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا؛ ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان هذا خاصًّا بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ ولهذا احتجُّوا بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآية.

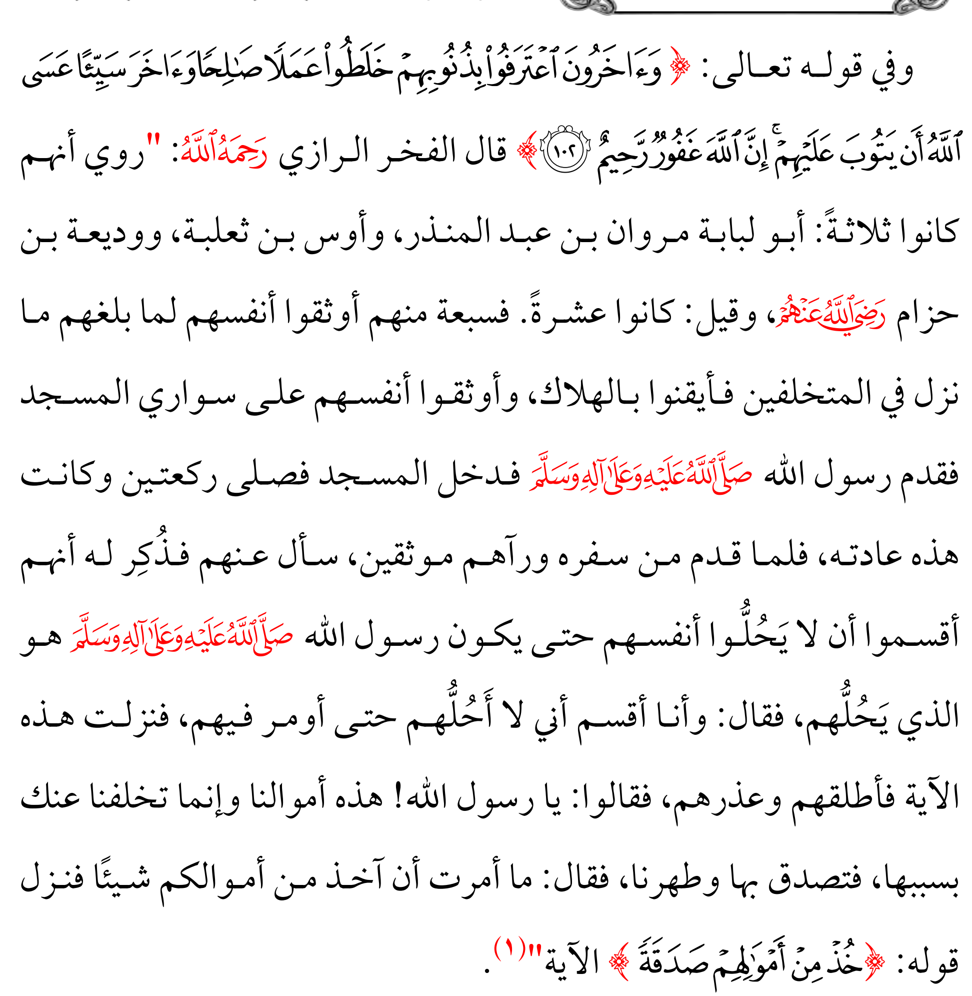
وقد رَدَّ عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد الصديق أبو بكر وسائر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقاتَلوهم حتى أدَّوا الزكاة إلى الخليفة، كما كانوا يُؤدُّونها إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، حتى قال الصدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: [والله لو منعوني عِقالًا -وفي رواية: عَناقًا- كانوا يُؤدُّونه إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لأقاتلنّهم على مَنْعِه] [متفق عليه].

وقوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادعُ لهم واستغفر لهم، عن عبد الله بن أبي أَوْفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إذا أُتِيَ بصدقة قوم صَلَّى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صَلِّ على آل أبي أَوْفى» [متفق عليه].

وقوله: ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: [رحمةٌ لهم].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي: لدعائك، ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهلٌ له"[1].

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٤-٢٠٧) مختصراً.



وفي قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٠٢﴾ قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "روي أنهم كانوا ثلاثةً: أبو لبابة مروان بن عبد المنذر، وأوس بن ثعلبة، ووديعة بن حزام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ، وقيل: كانوا عشرةً. فسبعة منهم أوثقوا أنفسهم لما بلغهم ما نزل في المتخلفين فأيقنوا بالهلاك، وأوثقوا أنفسهم على سواري المسجد فقدم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ فدخل المسجد فصلى ركعتين وكانت هذه عادته، فلما قدم من سفره ورآهم موثقين، سأل عنهم فذُكِر له أنهم أقسموا أن لا يَحُلُّوا أنفسهم حتى يكون رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ هو الذي يَحُلُّهم، فقال: وأنا أقسم أني لا أَحُلُّهم حتى أومر فيهم، فنزلت هذه الآية فأطلقهم وعذرهم، فقالوا: يا رسول الله! هذه أموالنا وإنما تخلفنا عنك بسببها، فتصدق بها وطهرنا، فقال: ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئًا فنزل قوله: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ الآية"[1].

أوجه الثناء:

- ذكر الله عَزَّوَجَلَّ أن بعض الأعراب حول المدينة منافقون؛ لبُعْدِهم عن مشاعل العلم والهدى في المدينة، فيلزم من ذلك أن يكون المنافقون في

---

(١) تفسير الرازي (١٦/ ١٣٢).

معقل العلم ودار الهجرة أقل، بل أندر من النادر.

- أن الله تعالى غاير بين السابقين الأولين وذَكَر رِضاه عنهم في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾، ثم ذكر أصناف المنافقين من الأعراب ومن أهل المدينة في هذه الآيات ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾، وفي هذا براءة للسابقين الأولين من النفاق.

- أَمْر الله تعالى نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ بتزكية أصحابه وتطهيرهم، وهذا فيه فضل ظاهر لهم بأن جعل الله عَزَّوَجَلَّ محمدا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ مربيا ومزكيا ومطهرا لهم، وقد قام صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ بهذه المهمة خير قيام، ومن طعن في الصحابة الكرام فإنه - شاء أم أبى - يشكك في قيام النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ بهذه المهمة العظيمة.

- الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وأرضاهم، يقع منهم الخطأ وهم غير معصومين، لكن لهم سابقة وصحبة وطاعات.



٣٤- بيان المولى سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ للصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ دسائس المنافقين وتآمرهم مع المشركين

الآيات ١٢-٢٠ من سورة الأحزاب

﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا
غُرُورٗا ١٢ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ
وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ
إِلَّا فِرَارٗا ١٣ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا
تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ١٤ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ
ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ١٥ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ
ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٦ قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ
ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا
نَصِيرٗا ١٧ ۞ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا
يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ١٨ أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ

إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾

عندما اجتمع المشركون لغزو المدينة، وتحزبت الأحزاب لاستئصال الإسلام، ووقفوا بحشودهم على أبواب المدينة اضطربت قلوب المنافقين وظهر ما كانوا يخفونه، يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فحينئذ ظهر النفاق، وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في نفوسهم ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ أما المنافق فنَجَمَ نفاقُه، والذي في قلبه شبهة أو حسكة[1]، لضعف حاله فتنفّس بما يجده من الوسواس في نفسه؛ لضعف إيمانه، وشدة ما هو فيه من ضيق الحال، وقوم آخرون قالوا كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ﴾ يعني: المدينة.

وقوله: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي: هاهنا، يعنون عند النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في مقام المرابطة، ﴿فَارْجِعُوا﴾ أي: إلى بيوتكم ومنازلكم.

---

(١) حَسَكة: أي: ضغن وعداوة. لسان العرب (١٠/ ٤١١).

﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: [هم بنو حارثة قالوا: بيوتنا نخاف عليها السَّرَق]. وذكر ابن إسحاق أن القائل لذلك: هو أوس بن قَيظيّ، يعني: اعتذروا في الرجوع إلى منازلهم بأنها عَورة، أي: ليس دونها ما يحجبها عن العدو، فهم يخشون عليها منهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ أي: ليست كما يزعمون ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: هَرَبًا من الزحف.

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أنهم لو دَخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة، وقُطر من أقطارها، ثم سُئلوا الفتنة، وهي الدخول في الكفر، لكفروا سريعًا، وهم لا يحافظون على الإيمان، ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع. وهذا ذمٌّ لهم في غاية الذم.

قال تعالى يُذكّرهم بما كانوا عاهدوا الله عَزَّوَجَلَّ من قبل هذا الخوف، ألّا يُولوا الأدبار ولا يفروا من الزحف، ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ أي: وإن الله تعالى سيسألهم عن ذلك العهد، لا بد من ذلك.

ثم أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخّر آجالهم، ولا يطوّل أعمارهم، بل ربما كان ذلك سببًا في تعجيل أخذهم غِرّة[1]؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا

(١) الغرة: غفلة في اليقظة. المفردات في غريب القرآن (ص:٦٠٣).

قَلِيلًا ﴾ أي: بعد هربكم وفراركم، ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾[النساء:٧٧].

﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي: يمنعكم، ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أي: ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُجير ولا مُغيث.

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوّقين لغيرهم عن شهود الحرب ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ ﴾ أي: أصحابهم وعُشَرائهم وخلطائهم ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ أي: إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظّلال والثمار، وهم مع ذلك ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

قوله: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ أي: بخلاء بالمودة، والشفقة عليكم ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي: من شدة خوفه وجزعه، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال.

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ أي: فإذا كان الأمن تكلموا كلامًا بليغًا فصيحًا عاليًا، وادّعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة، وهم يكذبون في ذلك، وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿سَلَقُوكُم ﴾ [أي: استقبلوكم]. وقال قتادة: أما عند الغنيمة فأشحّ قوم، وأسوأه مقاسمة:

أعطونا، أعطونا، قد شهدنا معكم. وأما عند البأس فأجبن قوم، وأخذله للحق. وهم مع ذلك ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾، أي: ليس فيهم خير، قد جَمَعُوا الجبن والكذب وقلة الخير، ولهذا قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: سهلًا هينًا عنده.

هذا أيضًا من صفاتهم القبيحة في الجبن والخوف والخَور ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ﴾ بل هم قريب منهم، وإنّ لهم عودة إليهم.

﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ أي: وَيَودّون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة، بل في البادية يسألون عن أخباركم، وما كان من أمركم مع عدوكم.

﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ولو كانوا بين أظهركم، لما قاتلوا معكم إلا قليلًا؛ لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم"[(١)].

أوجه الثناء:

- ظهور الفرق بين أهل الإيمان وأهل النفاق في غزوة الأحزاب..

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٨٨-٣٩١).

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[الأحزاب:١١]، ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾، ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾، ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ ﴾.. ووجه الدلالة في ذلك: أن وصف الإيمان لجمهور الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يدحض مزاعم الرافضة بأن الصحابة منافقون، والمؤمنون في الآيات -وهذا ما يعتقده أهل السنة- هم أهل المدينة من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، ومنهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، والعشرة، وأصحاب الشجرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ كل هؤلاء من أهل الإيمان الذين امتدح الله عَزَّوَجَلَّ ثباتهم، وزادهم إيمانًا، وليسوا من صنف المنافقين، وحاشاهم من ذلك.

- ذكرت الآيات عدداً من أوصاف المنافقين في هذه الغزوة، ومنها:

١- في قلوبهم مرض.

٢- يشكّون في وعد الله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

٣- يبحثون عن العذر للفرار.

٤- مسارعون إلى الفتنة والكفر.

٥- ناكثون لعهد الله عَزَّوَجَلَّ غير موفين به.

٦- مثبطون عن الجهاد.

٧- جبناء وأهل خوف.

٨- ألسنتهم سليطة على أهل الإيمان.

٩- متواطئون مع الأعداء.

وسياق الآيات ظاهر في أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا على النقيض من هذه الأوصاف، فكل وصف قبيح للمنافقين يدل على ثبوت نقيضه الحسن للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

بين الصحابة والمنافقين:

من أعظم الأدلة على إيمان الصحابة وصدقهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن الله تعالى قد ميَّز في القرآن بين طائفتين: المؤمنين والمنافقين.

أما المؤمنون فهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقد جاء خطابهم في القرآن بوصف الإيمان في مواضع كثيرة جداً، ومنها:

- ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾[البقرة:٧٦].

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾[البقرة:١٠٤].

- ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾﴾

[الأنفال:١٢].

- ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴿١٢﴾﴾

[النور:١٢].

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾[الأحزاب:٩].

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[المجادلة:١٢].

والآيات في هذا كثيرة جداً.

وأما المنافقون فهم فئة قليلة دائمًا ما يكونون مصدر فتن وقلاقل وبلبلة في أوساط المسلمين، وتأمل في سورة التوبة، تجد فيها صورة المنافقين واضحة كفئة بسيطة وشرذمة قليلة تحاول أن تتعامل مع فئة الصحابة الكبيرة الغالبة، وتتآمر عليها بالخفاء، فإذا انكشفت المؤامرة تأتي لتقدم لها الأعذار.

ومن الآيات التي تجلي صفات وأعمال هذه الفئة في سورة التوبة:

- ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

- ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

- ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

- ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

- ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ ﴾.

- ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ ﴾.

- ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ ﴾.

- ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ ﴾.

ولا يمكن لعاقل يقرأ هذه الآيات بتدبر وتمعن أن يفهم أو يتصور أن المنافقين كانوا يمثلون نسبة كبيرة وجماعة لها ثقلها في المدينة، فضلاً عن أن يتصور أنهم كانوا أصحاب كلمة نافذة وسيادة، أو أنهم كانت لهم الكلمة المسموعة في المجتمع الذي يقوده رسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ!! بل المفهوم

من الآيات بوضوح أن مجتمع الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ كان مجتمعًا مؤمنًا صادقًا، لا يقبل بالنفاق ولا بأهله، ويعتبره جرمًا ومنكراً عظيمًا، وكان التمايز بين الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ والمنافقين ظاهراً.

ولكي يتضح الفرق بين الصحابة الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ والشرذمة المنافقة أسوق لك أيها القارئ:

الآيات التي فيها إشارة إلى المقارنة بين مواقف المؤمنين ومواقف المنافقين، ومن هذه المقارنات:

- ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٤٩﴾[الأنفال:٤٩].

فالمنافقون هنا يسخرون من المؤمنين الذين ثبتوا يوم بدر والمؤمنون توكلوا على الله عَزَّوَجَلَّ.

- ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ١٢﴾[الأحزاب:١٢].

وفي المقابل يأتي موقف المؤمنين الصادق:﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ٢٢﴾

[الأحزاب:٢٢].

- ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [الأحزاب:٢٤].

فذكر الله تعالى أنه نصر عباده المؤمنين ليكون هذا النصر جزاء خير للمؤمنين وسبباً لعذاب المنافقين.

- ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الفتح:٦].

وفي المقابل كانت سكينة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورحمته تتنزَّل على المؤمنين:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾ [الفتح:٤-٥].

- ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون:٧-٨].

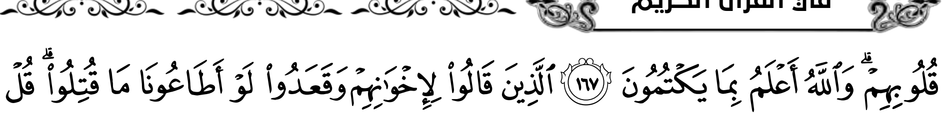
والفرق بين المؤمنين والمنافقين في هذه الآيات لا يحتاج إلى بيان، فالمنافقون يتآمرون على المؤمنين ويكيدونهم، والله عَزَّوَجَلَّ يدافع عن

أوليائه، ويُلاحَظ في الآيات أنها تشير إشارة واضحة إلى أن أصحاب الكلمة والغَلَبَة والعِزَّة في المدينة هم المؤمنون وليس المنافقين، وهذا يدلُّ على أنهم مجرَّد شرذمة ذليلة في وسط المجتمع المؤمن بقيادة سيد الخلق صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ.

- ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[الحشر:١١-١٤].

وهذه الآيات أيضاً واضحة في بيان تآمر المنافقين على المؤمنين، وأنهم لا يقاتِلون في صف المؤمنين وإنما يقفون مع الأعداء، وفيها إشارة إلى أن الجيوش التي خرجت للجهاد في سبيل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالآلاف في عهد النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ لم يكن منهم من المنافقين إلا النادر الذي لا يذكر.

- ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى



﴿قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾[آل عمران:١٦٧-١٦٨].

فالذين قاتلوا يوم أحد هم المؤمنون فقط، حتى الذين فروا يوم أحد هم من المؤمنين، وأما المنافقون فقد قعدوا ولم يشاركوا في القتال بنص الآية، وهذا فرقان واضح بين أهل الإيمان وأهل النفاق.

ظهور حركة النفاق:

النفاق بمعنى إظهار الإسلام وإبطان الكفر لم يظهر إلا في المدينة حين صار للمسلمين شوكة وقوة، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق، بل كان خلافه، من الناس من كان يظهر الكفر مستكرَهًا، وهو في الباطن مؤمن، فلمَّا هاجر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام، على طريقة مشركي العرب، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل كبرى: بنو قينقاع حلفاء الخزرج، وبنو النضير، وبنو قريظة حلفاء الأوس، فلما قدم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ المدينة، وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج، وقَلَّ من أسلم من اليهود إلا

عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضاً؛ لأنه لم يكن للمسلمين بَعْدُ شوكةٌ تخاف، بل قد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وادع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة.

فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله عَزَّ وَجَلَّ كلمته، وأعلى الإسلام وأهله، قال عبد الله بن أبي ابن سلول وكان رأساً في المدينة، وهو من الخزرج، وكان سيد الطائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يُمَلِّكوه عليهم، فجاءهم الخير وأسلموا، واشتغلوا عنه، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله، فلما كانت وقعة بدر قال: هذا أمر قد توجه، فأظهر الدخول في الإسلام، ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثَمَّ وُجِدَ النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد، لأنه لم يكن أحد يهاجر مُكرَهاً، بل يهاجر ويترك ماله، وولده، وأرضه رغبة فيما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الدار الآخرة"[(١)].

وقال ابن هشام: "قال ابن إسحاق: وقَدِمَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ المدينة وسيِّدُ أهلِها عبد الله بن أبي ابن سلول العوفي ثم أحد بني الحبلى، لا يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٧٦-١٧٧).

بعده على رجل من أحد الفريقين حتى جاء الإسلام، ومع عبد الله بن أبي رجل هو في قومه (الأوس) شريف مطاع، أبو عامر عبد عمرو بن صيفي بن النعمان، أحد بني ضبيعة بن زيد، وهو أبو الصحابي الجليل حنظلة، الغسيل يوم أحد، وكان قد ترهَّب في الجاهلية ولبس المسوح، وكان يقال له: الراهب. فشَقِيا بشرفهما وضَرَّهما.

فأما عبد الله بن أبي فكان قومه قد نظموا له الخرز يتوجوه ثم يملكوه عليهم، فجاءهم الله تعالى برسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وهم على ذلك. فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن[1]، ورأى أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قد استلبه ملكًا، فلما رأى قومَه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهًا مصراً على نفاق وضغن"[2].

ويروي البخاري قصة بداية النفاق في المدينة عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ركب على حمار على قطيفة فدكية[3]، وأردف أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وراءه يعود سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بني

---

(١) أي: حَقَد. المصباح المنير (٢/ ٣٦٢).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ١٦٦) بتصرف.

(٣) أي: كساء غليظ منسوب إلى فَدَك -بفتح الفاء والدال- على مرحلتين أو ثلاثة من المدينة. التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٢٢/ ١٧٦).

الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر، قال: حتى مرَّ بمجلس فيه عبد الله بن أبيّ ابن سلول وذلك قبل أن يُسْلِم عبد الله بن أبيّ، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة[1]، خمَّر عبد الله بن أبيّ أنفه بردائه، ثم قال: لا تغبِّروا علينا.

فسلَّم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عليهم، ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبيّ ابن سلول: أيها المرء! إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقًّا؛ فلا تؤذنا به في مجلسنا، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بلى يا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فاغشنا به في مجالسنا، فإنا نحب ذلك، فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود، حتى كادوا يتشاورون، فلم يزل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يخفِّضهم حتى سكنوا، ثم ركب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «يا سعد! ألم تسمع ما قال أبو حباب؟ - يريد عبد الله بن أبيّ - قال: كذا وكذا»، قال سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله! اعف عنه واصفح عنه، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

---

(١) العجاجة: الغبار. أي: ما أثارته الدابة من الغبار. لسان العرب (٢/ ٣١٩).

بالحق الذي أنزل عليك، لقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة، فلما أبى الله عَزَّوَجَلَّ ذلك بالحق الذي أعطاك الله عَزَّوَجَلَّ شَرِق(١) بذلك، فذلك فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ».

وكان النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ وأصحابه يعفون عن المشركين، وأهل الكتاب، كما أمرهم الله عَزَّوَجَلَّ، ويصبرون على الأذى، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ﴾[آل عمران:١٨٦] الآية، وقال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم﴾[البقرة:١٠٩] إلى آخر الآية، وكان النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ يتأول العفو ما أمره الله عَزَّوَجَلَّ به، حتى أذن الله عَزَّوَجَلَّ فيهم، **فلما غزا رسول الله** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ **بدراً، فقتل الله** تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ **به صناديد كفار قريش، قال ابن أبيّ ابن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجَّه، فبايعوا الرسول** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ **على الإسلام فأسلموا**(٢).

---

(١) الشَّرَق: دخول الماء الحلق حتى يغص به، يقال: شَرِق فلان بريقه، وكذلك: غَصَّ بريقه، ويقال: أخذته شرقة فكاد يموت. لسان العرب (١٠/ ١٧٧).

(٢) البخاري (٦/ ٣٩ رقم ٤٥٦٦).

وقد كان المنافقون في زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ معلومون إما بأعيانهم وإما بأوصافهم، وكانوا يتميزون عن الصحابة، ومما يدل على هذا:

١- حديث زيد بن وهب، قال: كنا عند حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال: [ما بقي من أصحاب هذه الآية - يعني قول الله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التوبة:١٢]- إلا ثلاثة، ولا من المنافقين إلا أربعة، فقال أعرابي: إنكم أصحاب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، تخبرونا فلا ندري، فما بال هؤلاء الذين يبقرون بيوتنا ويسرقون أعلاقنا(١)؟ قال: أولئك الفساق، أجل لم يبق منهم إلا أربعة، أحدهم شيخ كبير، لو شرب الماء البارد لما وجد برده](٢).

٢- قول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو يتحدث عن صلاة الجماعة: [ولقد رأيتنا، وما يتخلف عنها إلا منافقٌ معلوم النفاق] (٣).

٣- قول كعب بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو يحكي قصة تخلفه عن غزوة تبوك: «فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه

---

(١) يبقرون: أي: يفتحون، والأعلاق: المال النفيس، وكل شيء له قدر. التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٢٢/ ٤٠٩).

(٢) البخاري (٦/ ٦٥ رقم ٤٦٥٨).

(٣) مسلم (١/ ٤٥٣ رقم ٦٥٤).

النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله عَزَّوَجَلَّ من الضعفاء»[1].

٤- في قصة صلاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في بيت عتبان بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقال قائل منهم: «أين مالك بن الدُّخَيشِن أو ابن الدُّخْشُن؟ فقال بعضهم: ذلك منافق لا يحب الله ورسوله، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لا تقل ذلك، ألا تراه قد قال: لا إله إلا الله، يريد بذلك وجه الله عَزَّوَجَلَّ» قال: الله ورسوله أعلم، قال: فإنا نرى وجهه ونصيحته إلى المنافقين»[2].

وهذا يدل على أن المنافقين كانوا معروفين عند الصحابة في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وأن عددهم لم يكن كبيراً، بل كانوا قلة، وقد جاء عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «في أصحابي اثنا عشر منافقاً، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط»[3].

ومعنى «في أصحابي» الذين ينسبون إلى صحبتي، كما في الرواية الأخرى في الحديث: «في أمتي»[4].

---

(١) البخاري (٦/ ٣ رقم ٤٤١٨)، مسلم (٤/ ٢١٢٠ رقم ٢٧٦٩).

(٢) البخاري (١/ ٩٢ رقم ٤٢٥).

(٣) مسلم (٤/ ٢١٤٣ رقم ٢٧٧٩).

(٤) ينظر: شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٢٥).

وعجباً بعد هذا البيان الواضح والآيات التي لا تحتاج إلى تفسير وإنما يكفي التأمل والنظر فيها - عجباً بعد هذا كله لمن يظن أن الصحابة كانوا منافقين!! وكأنه لا يقرأ كتاب الله تعالى ولا يتأمل في آياته الواضحة كالشمس في رابعة النهار!! ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾.

الخلاصة:

- الذين كانوا حول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓ آلِهِوَسَلَّمَ هم الصحابة المؤمنون بنص القرآن، وهم الكثرة الكاثرة، والثُّلَّة الغالبة التي قامت بنصرة الدين والإسلام وقاتلت وضحَّت في سبيله، وأما المنافقون فقد كانوا قِلَّة وكانت شوكتهم منكسرة.

- المهاجرون رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ لم يكن فيهم منافق، وعلى هذا دلت النصوص وإجماع الأمة والعقل الصحيح، ولم يرد في الآيات التي نزلت بمكة أي ذكر للمنافقين.

- حركة النفاق ظهرت بعد تمكُّن المؤمنين من رقاب صناديد قريش وظهور النصر الساحق للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓ آلِهِوَسَلَّمَ ومن معه.

- كان المنافقون معروفين في زمن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓ آلِهِوَسَلَّمَ، بعضهم

بأعيانهم وبعضهم بأوصافهم، وفي الغالب أن حالهم لم يكن يلتبس على المؤمنين.

- كان موقف المؤمنين من المنافقين موقف الحذر والحيطة والشك والكراهة لهم، ولم يكونوا يثقون فيهم أو يمكنونهم من مفاصل الحياة، وكانت أعظم تهمة يمكن أن توجه للإنسان في هذا المجتمع هو اتهامه بالنفاق.

- أن المنافقين كانوا يتواصلون مع اليهود وكفار قريش سراً، يتآمرون معهم على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وصحبه الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.



ثالثاً: تأييد المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وبشاراته لهم



تمهيد

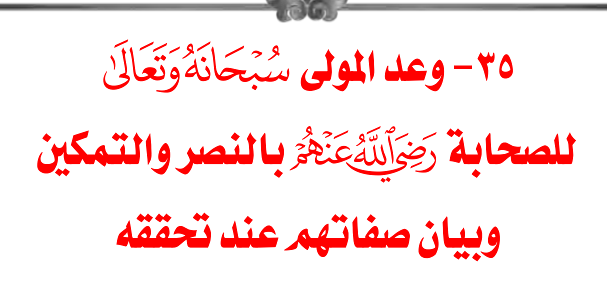
لا يمكن لعاقل أن ينصر أعداءه ومناوئيه، أو أن يقدّم لهم الدعم والمساندة ليصيروا أقوياء وتتحقق لهم الغلبة والتمكين، خاصة إذا كانوا على باطل وكان هو على الحق، ومن فعل هذا فهو في غاية السَّفَه والحماقة.. فهل يُظَن أن يصدر مثل هذا من الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟!

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أخبر أن نصره وتأييده لا يتنزل إلا على جنده وأوليائه، فقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

فما الذي يفهمه المسلم العارف بالله وسننه وشروط نصره وتأييده؟ ما الذي يفهمه عندما يجد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يخبر أنه قد نصر قومًا، ويثني على نفسه بتأييده لهم، ويجعل هذا من كمالاته سبحانه، ويسخّر ملائكته للحرب معهم، ويحذرهم من مؤامرات أعدائهم ويكشفها لهم، ويَعِدُهم بالمزيد من النصر والتمكين والتأييد، ويبشرهم بالبشارات العظيمة والفتوحات والغنائم، ما الذي يمكن أن يُفهَم من هذا كله؟

لا يمكن لعاقل أن يتصور أن الرب الحكيم جَلَّ وَعَلَا سيفعل هذا كله لقوم

يعلم أنهم سيرتدّون في يوم من الأيام، ويكفرون برسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، ويحاربون دينه، وينكّلون بأوليائه، ويحرّفون كتابه!!



٣٥- وعد المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بالنصر والتمكين وبيان صفاتهم عند تحققه

الآيات ٣٩-٤١ من سورة الحج

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ٤١﴾

كان المسلمون في أول الإسلام ممنوعين من قتال الكفار، ومأمورين بالصبر عليهم، لحكمة إلهية، فلما هاجروا إلى المدينة، وأوذوا، وحصل لهم

منعة وقوة، أذن لهم بالقتال.

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أما قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ﴾ فالمراد: أنهم أُذِنوا في القتال بسبب كونهم مظلومين، وهم أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ، كان مشركوا مكة يؤذونهم أذى شديداً، وكانوا يأتون رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه، فيقول لهم: اصبروا فإني لم أومر بقتال، حتى هاجر فأنزل الله تعالى هذه الآية، وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية، وقيل: نزلت في قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركوا مكة فأذن في مقاتلتهم .

أما قوله: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ فذلك وعد منه تعالى بنصرهم كما يقول المرء لغيره: إن أطعتني فأنا قادر على مجازاتك، لا يعني بذلك القدرة بل يريد أنه سيفعل ذلك .

أما قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ فاعلم أنه تعالى لما بين أنهم إنما أذنوا في القتال لأجل أنهم ظلموا بين ذلك الظلم بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ ﴾ فبين تعالى ظلمهم لهم بهذين الوجهين: أحدهما: أنهم أخرجوهم من ديارهم، والثاني: أنهم أخرجوهم بسبب أنهم قالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ وكل واحد من الوجهين عظيم في



الظلم.

وفي قولـه: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ وعـد بالنصـر لمـن هـذه حالـه، ونصـر الله تعالى للعبد أن يقويه على أعدائه حتى يكـون هـو الظـافر، ويكـون قائمـًا بإيضاح الأدلة والبينـات، ويكـون بالإعانـة علـى المعـارف والطاعـات، وفيه ترغيب في الجهاد من حيث وعدهم النصر.

ثم إنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصف الذين أذن لهم في القتال في الآيـة الأولـى فقـال: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ والمراد من هذا التمكن: السلطنة ونفـاذ القـول على الخلق.

إذا ثبـت هـذا فنقـول: المـراد بـذلك هـم المهـاجرون رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لأن قولـه: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ ﴾ صـفة لمـن تقـدم وهـو قولـه: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم ﴾ والأنصار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ما أخرجوا من ديارهم، فيصير معنـى الآيـة: أن الله تعـالى وصف المهاجرين بأنه إن مكنهم من الأرض وأعطاهم السـلطنة، فـإنهم أتـوا بالأمور الأربعة، وهي إقامة الصلاة وإيتـاء الزكـاة والأمـر بـالمعروف والنهـي عـن المنكـر، لكـن قـد ثبـت أن الله تعـالى مكَّـن الأئمـة الأربعـة مـن الأرض وأعطاهم السلطنة عليها، فوجب كونهم آتين بهذه الأمـور الأربعـة. وإذا كـانوا آمرين بكل معروف وناهين عن كل منكر وجب أن يكونوا علـى الحـق، فمـن

هذا الوجه دلت هذه الآية على إمامة الأربعة"[١].

وقال الزمخشري: "﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي: ينصر دينه وأولياءه. هو إخبار من الله عَزَّوَجَلَّ بظهر الغيب عما ستكون عليه سيرة المهاجرين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ إن مكنهم - عَزَّوَجَلَّ - في الأرض وبسط لهم في الدنيا، وكيف يقومون بأمر الدين. وعن عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: [هذا والله ثناء قبل بلاء]. يريد: أنّ الله عَزَّوَجَلَّ قد أثنى عليهم قبل أن يُحْدِثوا من الخير ما أحدثوا.

وقالوا: فيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين، لأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يُعْطِ التمكين ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة غيرهم من المهاجرين، لا حظَّ في ذلك للأنصار والطلقاء"[٢].

ولا يعني هذا أنه لا نصيب للأنصار رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ في الجهاد ونصرة الدين والقيام به، بل كان لهم في هذا أوفر الحظ والنصيب، فكانوا مع إخوانهم المهاجرين حملة هذا الدين ورايته، والمجاهدين في سبيل الحق ونصرته، فرضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٨-٢٣١) مختصراً، والفخر الرازي من كبار منظري المتكلمين الأشاعرة، فانظر إلى تقريره البديع في صحة خلافة الأربعة الراشدين.

(٢) الكشاف (٣/ ١٦٠-١٦١) ولا يخفى أن صاحب الكشاف من كبار المعتزلة فانظر إلى تقريره البديع في صحة خلافة الأربعة الراشدين.



أوجه الثناء:



- الإذن للصحابة مهاجريهم وأنصارهم رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ بالقتال، مع الإخبار عنهم بأنهم مظلومون، والوعد لهم بالنصر من الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وهذا واضح في أن قتالهم كان قتالَ حقٍّ ولم يكن قتال بغي أو ظلم أو عدوان، وهذه تزكية عظيمة من الله تعالى تدفع تشكيكات المغرضين والحاقدين.

- الثناء عليهم بأنهم تحملوا العناء في سبيل الله تعالى، فظُلموا وبُغي عليهم حتى أُخرجوا من ديارهم، وكل هذا لا لشيء إلا لأنهم آمنوا بالله تعالى وأعلنوا توحيدهم له، وهكذا سيرة أهل الصدق والإيمان، كما جرى لأهل الأخدود من قبل ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[البروج:٨].

- تكريم الله جَلَّجَلَالُهُ للصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ وللأمة بعدهم، حيث لم يرتضِ لهم أن يمارَس عليهم الظلم ويخضعوا ويذلوا، بل شرع الله تعالى لهم القتال، دفعًا عن دينهم، وحفظًا لكرامتهم، وتحقيقًا لعزتهم التي هي من عزة الله تعالى، خاصة وأن هذا يتناسب مع طباع العربي الأصيل، الذي يأبى الضَّيم ويكره الذل.

- فَضْل الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ في قتالهم وجهادهم، حيث إن هذا القتال هو الذي حفظ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ به الدين، ولولا مشروعيته وقيام المؤمنين به

لتسلَّط الكفار، وهدموا أماكن العبادة، وطمسوا معالم الدين، وقد تجلى هذا واضحًا في سيرة الصحابة الكرام من يوم بدر، وما تبعه من فتوحات ونشر للإسلام، وكسر للردة والكفر والشرك.

- مع كونهم كانوا مظلومين، وقتالُهم كان صعبًا ومريرًا، إلا أنهم عندما يتمكنون وينتصرون فإنهم يسيرون بالناس سيرة الرعاة الصالحين، لا سيرة الطغاة الظالمين، ولا مرضى النفوس الحاقدين، ولا أصحاب الأهواء والشهوات، فيقيمون الدين ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا يجعلون هذا الحكم وسيلة لمصلحة ذواتهم، بل يجعلونه وسيلة لإقامة الدين والإسلام، وهذا ما تحقق في سيرة الخلفاء الراشدين رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ وأرضاهم.



٣٦- إمداد المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وتأييدهم بالملائكة

الآيات ١٢٣-١٢٦ من سورة آل عمران

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي: يوم بدر، وكان في يوم جُمعة وافق السابع عشر من رمضان من سنة اثنتين من الهجرة، وهو يوم الفرقان الذي أعزَّ الله جَلَّ جَلَالُهُ فيه الإسلام وأهله، ودمغَ فيه الشِّرك وقادته، مع قلّة عدد المسلمين يومئذٍ، فإنهم كانوا

ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا، معهم فرَسَان وسبعُون بعِيرًا، والباقون مُشاة، ليس معهم من العُدَد جميع ما يحتاجون إليه، فلم يخرجوا لقتال ولم يستعدوا لحرب.

وكان العدو يومئذٍ ما بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد والبَيض[1]، والعُدة الكاملة والخيول المسوّمة[2] والحُلي الزائد، فأعزَّ الله عَزَّوَجَلَّ رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وأظهر وحيه وتنزيله، وبَيَّض وَجْه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وقبيله، وأخْزى الشيطان وجنده وجيله.

ولهذا قال تعالى -مُمْتَنًّا على عباده المؤمنين وحِزبه المتقين-: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي: قليلٌ عدَدُكم؛ ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا بكثرة العَدَد والعُدَد؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ

(١) درع سابغ: تام واسع، والبَيض جمع بيضة، وتطلق على الخوذة، وأيضا على نوع من السلاح يشبه بيضة النعام. المفردات في غريب القرآن (ص:٣٩٥)، النهاية في غريب الحديث (١/ ١٧٢).

(٢) المسومة قيل: المرسلة وعليها ركبانها، وقيل: المرعية، ووقيل: التي عليها السيما أي: العلامة. لسان العرب (١٢/ ٣١٢).

رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾[التوبة:٢٥-٢٧].

وقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تقومون بطاعته.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ اختلف المفسرون في هذا الوعد: هل كان يوم بَدْر أو يوم أُحُد؟ على قولين.

فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾، وبين قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[الأنفال:٩]؟

فالجواب: الألف هاهنا لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها، لقوله: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بمعنى يَرْدفُهم غيرُهم ويَتْبَعهم ألوف أُخَر مثلهم، والظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر.

﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾، يعني: تصبروا على مُصَابرة عَدُوّكم وتتقوني وتطيعوا أمري. ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ قال الحسن، وقتادة، والربيع، والسُّدِّي: أي من وجههم هذا. وقال مجاهد، وعكرمة: أي من غضبهم هذا.

﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أي: مُعَلَّمِينَ بالسِّيما،

عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: [كان سيما الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض].

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ أي: وما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ الملائكة وأعلمكم بإنزالها إلا بشارةً لكم وتطييبًا لقلوبكم وتطمينًا، وإلا فإنما النصر من عند الله عَزَّوَجَلَّ، الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[محمد:٤-٦]، ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: هو ذو العزة التي لا تُرام، والحكمة في قدره والإحكام"(١).

أوجه الثناء:

- مِنَّة الله تعالى على الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالنصر في بدر رغم قلتهم ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾.

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١١١-١١٤).

- وَصْف الإيمان لنخبة المجتمع المحمدي، وصفوة الجيل الذين رباهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ ﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فلا حرج أن ينسبوا إليه فيقال: الجيل النبوي والمجتمع المحمدي.

- ﴿أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم﴾ خطاب مفعم بالطمْأنة للصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ، ووعدهم بالمدد، ولا يعلم قيمة المدد في الحرب وأثره في رفع المعنويات، ورباطة الجأش وثبات الأقدام؛ إلا من خاض غمار الحروب، فما ظننا بمدد من السماء، ملائكة أشداء، نصر من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عظيم.

- جعل الله جَلَّ جَلَالُهُ الصبر والتقوى شرطًا في المدد والنصر ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ فلما أكرم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ بالمدد والنصر عُلِم أنهم أصحاب صبر وتقوى.

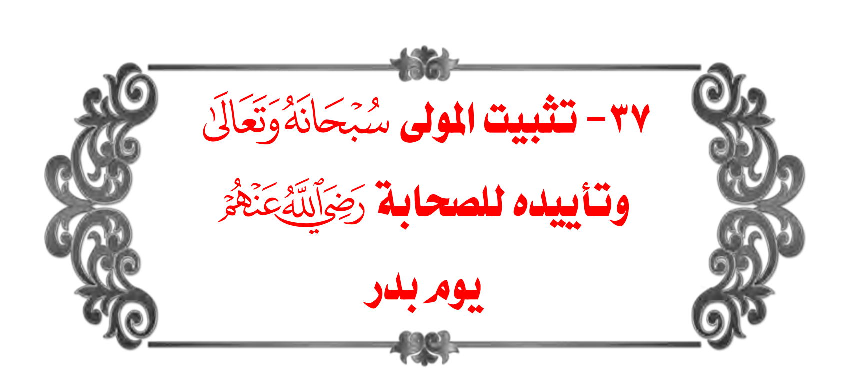
- ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ﴾ وناهيك بها كرامة لمن حقَّق الإيمان وتحلَّى بالصبر وتزيَّا بالتقوى؛ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وأرضاهم، ولو أن أحد وجهاء الأرض بشرك ببشارة كبرى فكيف يكون سرورك وفرحك بها؟! فمابالك بمن جاءته البشارة من رب الأرباب جلَّ في علاه!

- نزلت الآيات لتطمئنهم وتثبتهم ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ﴾ الطمأنينة وقت

البأس كرامة من المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأهل بدر، ذوي القلوب التي امتلأت حبًا لله جَلَّ جَلَالُهُ ويقينًا بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وما جاء به عن ربه تعالى.

- إيمان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وصبرهم وتقواهم أهَّلهم لتلك المكرمة، وما كان لمنافق أن ينال تلك المكارم؛ فماذا عسى يقول الشيعة؟ وهل هؤلاء منافقون؟ يكرمهم تعالى بكل تلك المكارم. شَاهَتْ[1] وجوهٌ طعنت في صحابة الرسول الأكرم، ذوي المقام المكرَّم.

(١) أي: قبحت. لسان العرب (١٣/ ٥٠٨).



الآيات ٩-١٢ من سورة الأنفال

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢)﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: [لما كان يوم

بدر نظر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓالِهِوَسَلَّمَ إلى أصحابه، وهم ثلاثمائة ونَيِّف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓالِهِوَسَلَّمَ القبلة، وعليه رداؤه وإزاره، فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فأخذ رداءه فَرَدَّاه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبي الله! كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾] [رواه مسلم].

﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ أي: يُرْدِفُ بعضهم بعضًا، كما قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: ﴿مُرْدِفِينَ ﴾: [متتابعين]. وعن ابن عباس قال: [وراء كل مَلَك ملك]. وفي رواية قال: [بعضهم على إثر بعض]. والمشهور عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: [وأمَدَّ الله عَزَّوَجَلَّ نبيّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓالِهِوَسَلَّمَ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ في خمسمائة من الملائكة مُجَنِّبة، وميكائيل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ في خمسمائة مُجَنِّبة[1]].

قوله: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ ﴾ أي: وما جعل الله عَزَّوَجَلَّ بعث

---

(١) مُجَنِّبة الجيش: هي التي تكون في الميمنة والميسرة، وهما مُجَنِّبتان. النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٣٠٣).

الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بُشرى ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك، ولهذا قال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: له العزة ولرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[غافر:٥١]، حَكِيم فيما شرعه من قتال الكفار، مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم، بحوله وقوته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ يذكرهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم، أمانًا أمَّنهم به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عَدُوِّهم وقلة عَدَدهم، وكذلك فَعَل تعالى بهم يوم أُحُد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾[آل عمران:١٥٤].

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ قال مجاهد: أنزل الله عَزَّوَجَلَّ عليهم المطر قبل النعاس، فأطفأ بالمطر الغبار، وتلبَّدت به الأرض، وطابت نفوسهم، وثبتت به أقدامهم.

﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ أي: مِن كل حدَثٍ أصغر أو أكبر، وهو تطهير الظاهر

﴿وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي: من وسوسة أو خاطر سيئ، وهو تطهير الباطن ﴿وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ﴾ أي: بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء، وهو شجاعة الباطن ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ﴾ وهو شجاعة الظاهر.

﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هذه نعمة خفيَّة أظهرها الله تعالى لهم؛ ليشكروه عليها، وهو أنه تعالى أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين، يوحي إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبّتوا الذين آمنوا. قال ابن إسحاق: وآزروهم. وقال غيره: قاتِلوا معهم. وقيل: كثّروا سوادهم.

﴿سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ أي: ثبّتوا أنتم المؤمنين وقوّوا أنفسهم على أعدائهم، عن أمري لكم بذلك، سأُلقي الرعب والذلة والصَّغار على من خالف أمري وكذَّب رسولي.

قوله: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ أي: اضربوا الهام ففلّقوها، واحتزُّوا الرِّقاب فقطِّعوها، وقطِّعوا الأطراف منهم، وهي أيديهم وأرجلهم"(1).

---

(1) تفسير ابن كثير (٤/ ١٨-٢٥) مختصراً.



أوجه الثناء:

- استجابة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لهم إذ استغاثوه؛ لفضلهم وكرامتهم على الله عَزَّوَجَلَّ.

- إمداد الله عَزَّوَجَلَّ إياهم بملائكة، والملائكة لا تقاتل مع المشركين ولا مع المنافقين، وإنما تقاتل مع المؤمنين، فدل نزول الملائكة للقتال معهم على إيمانهم.

- البشرى والطمأنينة والسكينة بنزول الملائكة، وإن كان النصر إنما هو من عند الله تعالى، إلا أن البشرى والطمأنينة والسكينة مِنَّة من الله سبحانه على المؤمنين الصادقين أصحاب اليقين.

- أن الله تعالى معهم، وأوحى للملائكة أنه معهم (معية نصر وتأييد)، وأمرهم بتثبيت الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وأرضاهم، والله لا يكون إلا مع المؤمنين لا مع الكافرين ولا مع المنافقين.

- وصف الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الصحابة بالإيمان ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فهم محل كرامة الله جلَّ في علاه بالنصر والتثبيت والمدد.

- إلقاء الرعب في قلوب عدوهم من الكافرين -أبي جهل وأصحابه-

﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾، وليس في قلوب الصحابة الكرام، الذين يكفرهم الشيعة.

- هناك شَبَه بين هذه الآية، وبين آية التطهير في سورة الأحزاب والتي نزلت في شأن أهل البيت، ففي كلا الآيتين الخبر بالتطهير وإذهاب الرجس: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾، وفي الأحزاب: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[الأحزاب:٣٣].

إلا أن آية الأنفال اشتملت على فضائل أخرى، من إنزال الأمن ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾، والربط على القلوب ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾، وتثبيت الأقدام ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾، ففيها فضل زائد لأهل بدر على أهل البيت، رضي الله عن الجميع.

فتأمل أخي القاريء في الآيتين يظهر لك جلياً أن التطهير لأهل البيت ليس سمة خاصة بهم دون بقية المؤمنين، وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إن الله تعالى قال: «من عادى لي وليّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرّب إلي بالنوافل حتى أحبّه، فإذا

أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه»[1]، فهذا يدل على أن فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واسع.

(١) البخاري (٨/ ١٠٥ رقم ٦٥٠٢).



٣٨- نصر المولى سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وإيواءه للصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ بعد الاستضعاف والخوف

الآية ٢٦ من سورة الأنفال

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: "ينبّه تعالى عباده المؤمنين – من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ – على نِعَمه عليهم وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثَّرهم، ومستضعفين خائفين فقوَّاهم ونصَرَهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات، وأمرهم بالشكر فأطاعوه وشكروه، وامتثلوا جميع ما أمرهم.

وهذا كان حال المؤمنين حال مُقامهم بمكة قليلين مُستَخْفِين

مُضطهَدين، يخافون أن يتخطَّفهم الناس من سائر بلاد الله عَزَّوَجَلَّ، من مشرك ومجوسي ورومي، كلهم أعداء لهم لِقلَّتِهم وعدم قوّتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لهم في الهجرة إلى المدينة، فآواهم إليها، وقَيَّض لهم أهلها، آوَوا ونصروا يوم بدر وغيره، وواسَوا بأموالهم، وبذلوا مُهَجَهم في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ وطاعة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ.

قال قتادة: كان هذا الحيّ من العرب أذلَّ الناس ذُلًا، وأشقاه عَيْشًا، وأجوعه بُطُونًا، وأعراه جلودًا، وأبْيَنَهُ ضلالًا، ولا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يُحْسَدون عليه، من عاش منهم عاش شقيًا، ومن مات منهم رُدِّيَ في النار، يُؤْكَلون ولا يَأْكُلُون، والله ما نعلم قَبِيلًا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشرَّ منزلًا منهم، حتى جاء الله عَزَّوَجَلَّ بالإسلام فمكَّن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكًا على رقاب الناس.

وبالإسلام أعطى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ما رأيتم، فاشكروا لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ نعمه، فإن ربكم مُنْعِمٌ يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ"[(١)].

وقال الفخر الرازي رَحِمَهُٱللَّهُ: "اعلم أنه تعالى لما أمرهم بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ وطاعة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، ثم أمرهم باتقاء المعصية، أكَّد ذلك

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠) مختصراً بتصرف.

التكليف بهذه الآية، وذلك لأنه تعالى بيَّن أنهم كانوا قبل ظهور الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ في غاية القِلَّة والذِلَّة، وبعد ظهوره صاروا في غاية العزة والرفعة، وذلك يوجب عليهم الطاعة وترك المخالفة.

أما بيان الأحوال التي كانوا عليها قبل ظهور محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ، فمن وجوه:

أولها: أنهم كانوا قليلين في العدد.

وثانيها: أنهم كانوا مستضعفين.

والمراد أن غيرهم يستضعفهم، والمراد من هذا الاستضعاف: أنهم كانوا يخافون أن يتخطفهم الناس، والمعنى: أنهم كانوا إذا خرجوا من بلدهم خافوا أن يتخطفهم العرب، لأنهم كانوا يخافون من مشركي العرب لقربهم منهم وشدة عداوتهم لهم، ثم بين تعالى أنهم بعد أن كانوا كذلك قلبت تلك الأحوال بالسعادات والخيرات.

فأولها: أنه آواهم، والمراد منه: أنه تعالى نقلهم إلى المدينة، فصاروا آمنين من شر الكفار.

وثانيها: قوله: ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ﴾، والمراد منه: وجوه النصر في يوم بدر.

وثالثها: قوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، وهو أنه تعالى أحلَّ لهم الغنائم

بعد أن كانت محرمة على من كان قبل هذه الأمة.

ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾، أي: نقلناكم من الشدة إلى الرخاء، ومن البلاء إلى النعماء والآلاء، حتى تشتغلوا بالشكر والطاعة، فكيف يليق بكم أن تشتغلوا بالمنازعة والمخاصمة بسبب الأنفال؟"[١].

أوجه الثناء:

- تذكير الله تعالى الصحابة من المهاجرين والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بما أنعم عليهم يوم بدر، ونصره جَلَّ جَلَالُهُ وتأييده وإيواؤه للمهاجرين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ورزقهم من الطيبات رغم قلتهم واستضعافهم.

- ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ نسب الله تعالى الإيواء إليه، بما سخّر من قلوب الأنصار من حب وإيثار، وإن كانوا في شدة الحال، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر:٩]، ونسبة فعل الأنصار إلى الله عَزَّوَجَلَّ تشريفٌ لهم، وإقرارٌ لفعلهم، وإضفاءُ شرعية وتفضيلٌ لما قاموا به من إيواء المهاجرين؛ فتضمنت الآية الثناء على المهاجرين وعلى الأنصار عامةً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، كما نصَّت على الثناء على من شهد بدراً من المهاجرين والأنصار.

---

(١) تفسير الرازي (١٥/ ٤٧٤).

والثناء عليهم يشمل عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ إذ قسم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ له من الغنيمة كما قسم لمن شهد المعركة؛ كونه كان يمرِّض ابنة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، ومن قَسَم له فقد شهد أو في حكم من شهد، وله من الفضائل ما لأهل بدر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أجمعين.



٣٩- ولاية المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للطائفتين من الأنصار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ

الآية ١٢٢ من سورة آل عمران

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٢٢﴾

عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: [فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ قال: نحن الطائفتان: بنو حارثة وبنو سَلِمَة، وما نُحِب أنَّها لم تنزِلْ؛ لقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ﴾](١).

وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هما طائفتان من الأنصار همَّتا بذلك، فعصمهما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وقيل: لمَّا رجع عبد الله بن أُبيّ في أصحابه يوم أُحد، همَّت

(١) البخاري (٥/ ٩٦ رقم ٤٠٥١)، مسلم (٤/ ١٩٤٨ رقم ٢٥٠٥).

الطائفتان باتباعه، فعصمهما الله عَزَّوَجَلَّ[(١)].

أما قول جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: [وما نُحِب أنَّها لم تَنزِلْ؛ لقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾] ؛ فقال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "معنى ذلك فرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله تعالى، وإنزاله فيهم آيةً ناطقةً بصحة الولاية، وأن تلك الهَمَّة ما أخرجتهم عن ولاية الله تعالى"[(٢)].

وإذا تحقق ذلك بالذين همُّوا، فما بالك بالذين لم يخطر في بالهم وسواس ممن شهد أُحُداً من جيش النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فيها الأمر بالتوكل الذي هو اعتماد القلب على الله عَزَّوَجَلَّ في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله، وأن المؤمنين أولى بالتوكل على الله جَلَّ جَلَالُهُ من غيرهم، وخصوصاً في مواطن الشدة والقتال، فإنهم مضطرون إلى التوكل والاستعانة بربهم والاستنصار به، والتبري من حولهم وقوتهم، والاعتماد على حول الله عَزَّوَجَلَّ وقوته، فبذلك ينصرهم ويدفع عنهم البلايا والمحن"[(٣)].

---

(١) زاد المسير في علم التفسير (١/ ٣٢٠).

(٢) تفسير الرازي (٨/ ٣٤٧).

(٣) تفسير السعدي (ص:١٤٥).

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ أي: ناصرهما على ذلك الهَمِّ الشيطاني، الذي لو صار عزمًا لكان سبب شقائهما، فلعناية الله عَزَّوَجَلَّ بهما برَّأهما الله عَزَّوَجَلَّ من فعل ما همَّتا به"(١).

أوجه الثناء:

- أن الله تعالى تولى الطائفتين من الأنصار، ولفظ (طائفتين) يدل على كثرة عدد، فإذا كان بنو حارثة وبنو سلِمة طائفتين تولاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعد همِّهم ذلك فمن باب أولى أن يتولى من سواهم من الصحابة الذين لم يهمُّوا، فهم أولى بالولاية من هؤلاء، فتبين أن الكثرة الكاثرة من أهل المدينة هم من تولاهم الله تعالى، وفي هذا رد على الشيعة القائلين بأن المدينة دار نفاق، وأن الإيمان فقط في نزر يسير من آل البيت.

- أن الطائفتين من الأنصار همّوا بالفشل والرجوع إلى المدينة؛ ولكن الله عَزَّوَجَلَّ أكرمهم بأن دفع عنهم الفشل؛ لإيمانهم بالنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ وما جاء به؛ وهكذا يكشف الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ المخبوء في مكنونات الضمائر، والذي لم يعلمه إلا أهله، حين حاك في صدورهم لحظة ثم وقاهم الله عَزَّوَجَلَّ إياه، وصرفه عنهم، وأيّدهم بولايته، فمضوا في الصف.

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٧٠).

- تولي الله تعالى لهم يتضمن الشهادة لهم بالإيمان والصلاح والتقوى، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾[آل عمران:٦٨]، ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾[الأعراف:١٩٦]، ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾[الجاثية:١٩].

- لطف الله عَزَّوَجَلَّ بهم وإحسانه إليهم؛ "أنه لما همّت طائفتان من المؤمنين بالفشل وهم بنو سلمة وبنو حارثة كما تقدم، ثبتهما الله تعالى نعمة عليهما وعلى سائر المؤمنين، فلهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي: بولايته الخاصة، التي هي لطفه بأوليائه، وتوفيقهم لما فيه صلاحهم وعصمتهم عما فيه مضرتهم، فمن توليه لهما أنهما لما همّتا بهذه المعصية العظيمة وهي الفشل والفرار عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِوَسَلَّمَ عصمهما؛ لما معهما من الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[البقرة:٢٥٧]"(١).

- ومن لُطفه بهاتين الطائفتين أنه تعالى عصمهم عندما رجع المنافقون مع رأس النفاق وهم ثلث الجيش، فكانت العصمة لأهل الإيمان الذين تولاهم الله عَزَّوَجَلَّ بولايته.

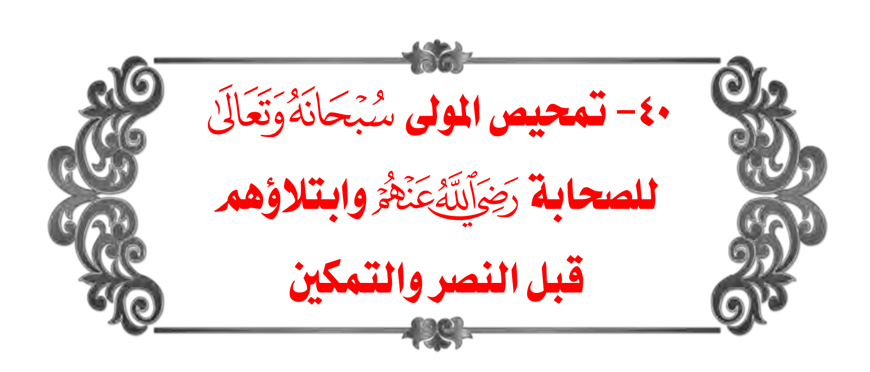
- خَتَم الله تعالى الآية بقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، مما يدل على

---

(١) تفسير السعدي (ص:١٤٥).

أن الولاية من الله تعالى لهذين الحيّين من الأنصار ثمرة من ثمار إيمانهم، ويحتمل أنها عتب بمعنى: كيف يفشلون وهم مؤمنون، وخُلُق المؤمنين التوكّل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا الخور[1] والجبن.

(١) الخَوَر: الضعف. مختار الصحاح (ص:٩٨).



٤٠- تمحيص المولى سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ للصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وابتلاؤهم قبل النصر والتمكين

الآيات ٩-١١ من سورة الأحزاب

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ ﴾

من أبلغ الآيات هذه الآيات التي نزلت في سورة الأحزاب، بأجزل العبارات والعِظات، وفيها كشف لمكنون القلوب، وبيان لحال الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ باطنًا وظاهرًا، واسم السورة بمجرده فيه دلالة على عِظَم الأحداث

حين واجه الصحابة الأحزاب مجتمعة.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول تعالى مخبراً عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين – أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ –، في صرفه أعداءهم وهزمه إياهم عام تألَّبوا عليهم وتحزَّبوا وذلك عام الخندق، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح.

وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفرًا من أشراف يهود بني النضير، الذين أجلاهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ إلى خيبر اجتمعوا بأشراف قريش، وألّبوهم على حرب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة، فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضًا، وخرجت قريش، والجميع قريب من عشرة آلاف، فلما سمع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة، وجاء المشركون فنزلوا شرقي المدينة، ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة، كما قال تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾.

وكانت بنو قريظة لهم حصن شرقي المدينة، ولهم عهد من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وذمة، فذهب إليهم حُيَيّ بن أخطب النَّضَري اليهودي، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد، ومالؤوا الأحزاب على رسول الله

صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فعَظُم الخَطْب واشتد الأمر، وضاق الحال.

ومكثوا مُحاصِرين للنبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وأصحابه قريبًا من شهر، إلا أنهم لا يَصِلون إليهم، ولم يقع بينهم قتال، إلا أن عمرو بن عبد ودّ العامري ركب ومعه فوارس فاقتحموا الخندق، وخلصوا إلى ناحية المسلمين، فندب رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ عليًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فخرج إليه، فتجاولا ساعة، ثم قتله علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ثم أرسل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الأحزاب ريحًا شديدة الهبوب قوية، حتى لم تُبْقِ لهم خيمة ولا شيء ولا تُوقَد لهم نار، ولا يقرّ لهم قرار، حتى ارتحلوا خائبين خاسرين، كما قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ قال مجاهد: هي الصبا.

قوله: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ هم الملائكة، زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف.

قوله: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ أي: الأحزاب ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ بنو قريظة ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ أي: من شدة الخوف والفزع.

﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ظن بعض من كان مع

رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أن الـدائرة علـى المـؤمنين، وأن الله عَزَّ وَجَلَّ سيفعل ذلك. وقال الحسن: ظنون مختلفة، ظن المنافقون أن محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأصحابه يُستأصَلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حق، وأنه سيُظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

ويقول تعالى مخبراً عن ذلك الحال، حين نزلت الأحزاب حول المدينة، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق، ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بين أظهرهم: أنهم ابتُلوا واختُبروا وزُلزلوا زلزالًا شديدًا"(١).



أوجه الثناء:

- مخاطبة الله تعالى للصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ بوصف الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، وهذه شهادة صريحة من الله عَزَّ وَجَلَّ للصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ بصدق الإيمان.

- تأييد الله تعالى لصحابة نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بالملائكة والريح، وما

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٨٣-٣٨٨) مختصرا.

هذا إلا لعظيم مكانتهم عند الله تعالى، ولما يحملونه من الحق الذي يحبه الله تعالى وينصره.

٤١- ثبات الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ اقتداء برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وبركة هذا الاقتداء

الآيات ٢١-٢٧ من سورة الأحزاب

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "بعد توبيخ المنافقين والذين في قلوبهم مرض أقبل الكلام على خطاب المؤمنين في عموم جماعتهم، ثناء على ثباتهم وتأسيهم بالرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ على تفاوت درجاتهم في ذلك الائتساء.

فالذين ائتسوا بالرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يومئذ ثبت لهم أنهم ممن يرجون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى واليوم الآخر وذكر الله عَزَّوَجَلَّ كثيراً. وفيه تعريض بفريق من الذين صدهم عن الائتساء به ممن كانوا منافقين أو في قلوبهم مرض من الشك في الدين"[1].

يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في أقواله وأفعاله وأحواله؛ ولهذا أمر الناس بالتأسي بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يوم الأحزاب، في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ دائمًا إلى يوم الدين؛ ولهذا قال تعالى للذين تقلّقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ﴾ أي: هلا اقتديتم به وتأسّيتم بشمائله؟ ولهذا قال: ﴿حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٣٠٢-٣٠٣) مختصراً.



كَثِيرًا﴾.

ثم قال تعالى مخبرًا عن عباده المؤمنين المصدّقين بموعود الله عَزَّوَجَلَّ لهم، وجَعْله العاقبةَ حاصلةً لهم في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ قال ابن عباس وقتادة: يعنون قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[البقرة:٢١٤] أي: هذا ما وعدنا الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب؛ ولهذا قال: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم، كما قاله جمهور الأئمة: إنه يزيد وينقص.

ومعنى قوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ ﴾ أي: ذلك الحال والضيق والشدة ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بالله ﴿وَتَسْلِيمًا ﴾ أي: انقيادًا لأوامره، وطاعةً لرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

ولما ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذي كانوا عاهدوا الله عَزَّوَجَلَّ عليه لا يولون الأدبار، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق، و﴿صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾. قال

بعضهم: أجله. وقال البخاري: عهده. وهو يرجع إلى الأول، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: [نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾] [رواه البخاري]. قال مجاهد في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾: عهده ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ يومًا فيه القتال فيصدق في اللقاء.

قوله: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ أي: وما غيّروا عهدهم، وبدّلوا الوفاء بالغدر، بل استمروا على ما عاهدوا الله عَزَّوَجَلَّ عليه، وما نقضوه كفعل المنافقين.

﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز الخبيث من الطيب، فيظهر أمر هذا بالفعل، وأمر هذا بالفعل، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم، حتى يعملوا بما يعلمه فيهم، ولهذا قال: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: بصبرهم على ما عاهدوا الله عَزَّوَجَلَّ عليه، وقيامهم به، ومحافظتهم عليه.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ وهم الناقضون لعهد الله تعالى، المخالفون لأوامره، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه، ولكن هُمْ تحت مشيئته في الدنيا، إن شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يلقوه به فيعذبهم عليه، وإن شاء تاب

عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان، والعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان.

ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هي الغالبة لغضبه قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة، بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية، ولولا أن جعل الله عَزَّوَجَلَّ رسوله رحمة للعالمين صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، لكانت هذه الريح عليهم أشدّ من الريح العقيم على عاد، فسلط عليهم هواء فرّق شملهم، وردّهم خائبين خاسرين بغيظهم وحَنَقِهم، لم ينالوا خيرًا لا في الدنيا، مما كان في أنفسهم من الظفر والمغنم، ولا في الآخرة بما تحمّلوه من الآثام في مبارزة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ بالعداوة، وهمّهم بقتله واستئصال جيشه، ومن هَمّ بشيء وصدَّق هَمَّه بفعله، فهو في الحقيقة كفاعله.

قوله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ أي: لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يُجلوهم عن بلادهم، بل كفى الله جَلَّجَلَالُهُ وحده، ونصر

عبده، وأعزّ جنده؛ ولهذا قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده» [رواه البخاري ومسلم].

وفي قوله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش، وهكذا وقع بعدها، لم يغزُهم المشركون، بل غزاهم المسلمون في بلادهم.

قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ أي: بحوله وقوته، ردّهم خائبين، لم ينالوا خيرًا، وأعز الله جَلَّجَلَالُهُ الإسلام وأهله وصدق وعده، ونصر رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ وعبده.

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

لما أيد الله تعالى ونَصَر، وكبَت[1] الأعداء وردّهم خائبين بأخسر صفقة، ورجع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ إلى المدينة مؤيدًا منصورًا، ووضع الناس السلاح، تبدَّى جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ فقال: أوَضعتَ السلاح

(١) الكبت: الرد بعنف وتذليل. المفردات في غريب القرآن (ص:٦٩٥).

يا رسول الله؟ قال: «نعم». قال: لكن الملائكة لم تضع أسلحتها. ثم قال: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة، ثم نازلهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وحاصرهم، فلما طال عليهم الحال، نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية، واعتقدوا أنه يحسن إليهم في ذلك، فعند ذلك استدعاه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فلما أقبل جعل الأوس يقولون: يا سعد! إنهم مواليك، فأحسِن فيهم. فقال: إني أحكم أن تُقتل مُقَاتلتهم، وتُسْبى ذريتهم وأموالهم، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لقد حكمتَ بحكم الله عَزَّ وَجَلَّ من فوق سبعة أرقعة[1]» [رواه البخاري]، ثم جيء بهم مكتفين فضرب أعناقهم، وسبى من لم يُنبت منهم مع النساء وأموالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم ﴾ أي: عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يعني: بني قريظة من اليهود.

﴿مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ يعني: حصونهم. ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ وهو الخوف؛ لأنهم كانوا مالؤوا المشركين على حرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليَعِزّوا في الدنيا،

---

(١) يعني: سبع سموات، وكل سماء يقال لها: رقيع، والجمع أرقعة. النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٢٥١).

فانعكس عليهم الحال، ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾، فالذين قُتلوا هم المقاتلة، والأُسَراء هم الأصاغر والنساء.

قوله: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أي: جعلها لكم من قَتْلكم لهم ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ قيل: خيبر. وقيل: مكة. وقيل: فارس والروم. وقال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يجوز أن يكون الجميع مرادًا"(١).

أوجه الثناء:

أوجه الثناء على أصحاب النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في غزوة الأحزاب كثيرة، منها -على وجه الإجمال-:

- الثناء على الصحابة الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بأنهم اقتدوا برسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وائتسوا به، فثبتوا معه ومِن حوله، فصحَّ فيهم وصف الله تعالى أنهم ممن ﴿يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾، فانظر كم لهذا الاقتداء من عظيم بركة وخير، وهل نال الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ما نالوا، وهل نصرهم الله عَزَّ وَجَلَّ ومكّنهم إلا حين حققوا الاقتداء والائتساء بالحبيب المصطفى صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ؟

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٩١-٣٩٩) مختصرا.



- أنهم ثبتوا عند الابتلاء العظيم، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾، فصدّقوا موعود الله تعالى، ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾، وثبتوا واجتمعوا حول النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وامتثلوا أمره، وجاهدوا معه، ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾[التوبة:١٢٠].

- أنهم رضوان الله عليهم ما بدّلوا ولا غيّروا، قال جل شأنه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾، فأثنى الله تعالى على من قضى نحبه، وعلى من بقي منهم حيًّا، وهم الأجدر -أي الأحياء- بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾.

- ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: قَدَّرْنا ما قَدَّرْنا، من هذه الفتن والمحن، والزلازل؛ ليتبين الصادق من الكاذب، فيجزي الصادقين بصدقهم، ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الذين تغيرت قلوبهم وأعمالهم، عند حلول الفتن، ولم يفوا بما عاهدوا الله عليه"[(١)]، فتبين أن الصحابة كانوا صادقين، ولهذا جازاهم الله تعالى فنصرهم.

- لعظيم مكانتهم عند الله تعالى نصرهم بالريح وقذف الرعب في قلوب

---

(١) تفسير السعدي (ص:٦٦١).

أعـدائهم، وجعـل أمـوال العـدو وأرضـهـم وديـارهم فيئًـا لهـم، ورد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الكـافرين بـلا قتـال، وانقلبـت المـوازين، فقـال رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓالِهِوَسَلَّمَ: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا»[1].

- في أحـداث غـزوة الأحـزاب يظهـر جليـًا مكـر اليهـود وخبـثهم، والمؤامرات التي حاكوها وخطّطوا لها وأنفقوا الأموال عليها، فخرجت غطفان ومن تبعها، وقريش ومن تبعها، ولو كان المنافقون أكثرية في المدينة لسهل تمالؤهم وانحيازهم مع قريش وغطفان لكثرة المال والعدد، لكن الأكثرية كانت هي الثلة المؤمنة، فلم يستطع اليهود التأثير بأموالهم على أصـحاب رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓالِهِوَسَلَّمَ، وظهـرت شـجاعتهم الفائقـة، وتصديقهم بوعد الله عَزَّوَجَلَّ وأنه سيغنيهم وينصرهم، فبعد ذلك الزلزال العظيم والنجاح الباهر للصحابة أكرمهم الله عَزَّوَجَلَّ، فانقلبت العاقبة لهم.

(١) البخاري (٥/ ١١٠ رقم ٤١٠٩) من حديث سليمان بن صرد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.



٤٢- عظيم بشارات المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للمهاجرين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ



أ- المباءة الحسنة للمهاجرين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ



الآيتان ٤١-٤٢ من سورة النحل

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٤٢﴾

يُخبِر تعالى بفضل المؤمنين الممتحنين ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ أي: في سبيله وابتغاء مرضاته.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ بالأذية والمحنة من قومهم، الذين يفتنونهم ليردوهم إلى الكفر والشرك، فقد تم حصارهم في الشعب، وهاجروا إلى الحبشة، وكذلك هاجروا الهجرة الكبرى إلى المدينة، فتركوا الأوطان والخلان، وانتقلوا عنها

لأجل طاعة الرحمن، فذكر لهم ثوابين: ثواباً عاجلاً في الدنيا من الرزق الواسع والعيش الهنيء، الذي رأوه عياناً بعد ما هاجروا، وانتصروا على أعدائهم، وافتتحوا البلدان وغنموا منها الغنائم العظيمة، فتمولوا، وآتاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الدنيا حسنة، ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ﴾ الذي وعدهم الله جَلَّ جَلَالُهُ على لسان رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ﴿أَكْبَرُ﴾ من أجر الدنيا(١).

يقول القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ وفيها ستة أقوال:

الأول: نزول المدينة، قاله ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا والحسن والشعبي وقتادة.

الثاني: الرزق الحسن، قاله مجاهد.

الثالث: النصر على عدوهم، قاله الضحاك.

الرابع: إنه لسان صدق، حكاه ابن جريج.

الخامس: ما استولوا عليه من فتوح البلاد وصار لهم فيها من الولايات.

السادس: ما بقي لهم في الدنيا من الثناء ، وما صار فيها لأولادهم من الشرف.

وكل ذلك اجتمع لهم بفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والحمد لله. (٢)

---

(١) ينظر: تفسير السعدي (ص:٤٤١).

(٢) تفسير القرطبي (١٢/ ٣٢٧).

فالصواب أن الآية تشمل هذا كله، لعموم قوله: «حسنة»[(١)].

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ وأعظم وأشرف وأفضل؛ فهو باق لا يزول، ولا نغفل عن الأوصاف الجميلة والكثيرة التي جاءت في وصف الجنان.

ثم ذكر وصف أوليائه فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ على أوامر الله تعالى وعن نواهيه، وعلى أقدار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المؤلمة، وعلى الأذية فيه والمحن ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي: يعتمدون عليه في تنفيذ محابّه، لا على أنفسهم؛ وبذلك تنجح أمورهم وتستقيم أحوالهم، فإن الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها، فما فات أحداً شيءٌ من الخير إلا لعدم صبره وبذل جهده فيما أريد منه، أو لعدم توكله واعتماده على الله عَزَّوَجَلَّ[(٢)].

فهؤلاء الذين هاجروا من ديارهم وأموالهم، وتَعرَّوا عما يملكون وعما يحبون، وضَحَّوا بدارهم وقرب عشيرتهم والحبيب من ذكرياتهم - هؤلاء يرجون في الآخرة عوضاً عن كل ما خلفوا وكل ما تركوا، وقد عانوا الظلم وفارقوه، فإذا كانوا قد خسروا الديار فـ ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ ولنسكننهم خيراً مما فقدوا ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ لو كان الناس يعلمون.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٤/ ١٥٨).

(٢) ينظر: تفسير السعدي (ص:٤٤١).

هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ واحتملوا ما احتملوا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝﴾ لا يشركون به أحداً في الاعتماد والتوجه والتكلان.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقال قتادة: المراد أصحاب محمد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة، ثم بوأهم الله تعالى دار الهجرة وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين. والآية تعم الجميع"[1].

أوجه الثناء:

- مَدَح الله تعالى المهاجرين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم بهجرتهم، ويا له من عمل عظيم، وتضحية تدل على صدق اليقين وجعلها الله جَلَّ وَعَلَا سبباً لنصرة هذا الدين.

- الثناء عليهم بأن هجرتهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم لم تكن لعرض دنيوي وإنما كانت في الله جَلَّ جَلَالُهُ، وهذا بيان عظيم من الله تعالى لما في صدورهم من الإيمان والإخلاص.

- الثناء عليهم أنهم ظُلِموا وأُوذوا ولم يردّهم ذلك عن دين الله تعالى؛

---

(١) تفسير القرطبي (١٠/ ١٠٧).

لقوة إيمانهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وأرضاهم.

- وعـدهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ثـوابين في الـدنيا والآخـرة: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾.

- إن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أثنـى علـيهم ومـدحهم بالصـبر على ديـنهم، فلـم يتركوه لأذى نالهم، وهم في ذلك واثقون بربّهم، ولم تغرّهم الدنيا حتى بعد أن غنموا كنوز كسرى وقيصر.

- مدحهم الله تعـالى بـأنهم توكلـوا عليه وفوضـوا أمـورهم إليـه سبحانه؛ وهذا دليل على عظيم ما استقر في قلوبهم من الإيمان والتصديق بما وعدهم الله تعالى به من الجزاء.




ب- المغفرة والرحمة للمهاجرين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

الآية ١١٠ من سورة النحل

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: "ثم إن ربك يا محمد للذين هاجروا من ديارهم ومساكنهم وعشائرهم من المشركين، وانتقلوا عنهم إلى ديار أهل الإسلام ومساكنهم وأهل ولايتهم، من بعد ما فتنهم المشركون الذين كانوا بين أظهرهم قبل هجرتهم عن دينهم، ثم جاهدوا المشركين بعد ذلك بأيديهم بالسيف وبألسنتهم بالبراءة منهم، ومما يعبدون من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وصبروا على جهادهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يقول: إن

ربك من بعد فعلتهم هذه لهم ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقول: لذو ستر على ما كان منهم من إعطاء المشركين ما أرادوا منهم من كلمة الكفر بألسنتهم، وهم لغيرها مضمرون، وللإيمان معتقدون، رحيم بهم أن يعاقبهم عليها مع إنابتهم إلى الله جَلَّجَلَالُهُ وتوبتهم.

وذكر عن بعض أهل التأويل أن هذه الآية نزلت في قوم من أصحاب رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ كانوا تخلَّفوا بمكة بعد هجرة النبيّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، فاشتدّ المشركون عليهم حتى فتنوهم عن دينهم، فأيسوا من التوبة، فأنزل الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ فيهم هذه الآية: فهاجروا ولحقوا برسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ"[(١)].

والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالآية وإن كانت نزلت في هؤلاء فهي تدل على عظم شأن الهجرة وفضلها.

قال السعدي رَحِمَهُٱللَّهُ: "أي: ثم إن ربك الذي ربّى عباده المخلصين بلطفه وإحسانه، لغفور رحيم لمن هاجر في سبيله، وخلى دياره وأمواله طلبًا لمرضاة الله عَزَّوَجَلَّ، وفُتِن على دينه ليرجع إلى الكفر، فثبت على الإيمان، وتخلص ما معه من اليقين، ثم جاهد أعداء الله عَزَّوَجَلَّ ليدخلهم في دين الله

---

(١) تفسير الطبري (١٧/ ٣٠٦)، وينظر: الصحيح المسند من أسباب النزول للوادعي (١/ ١٢٦).

تعالى بلسانه ويده، وصبر على هذه العبادات الشاقة على أكثر الناس.

فهذه أكبر الأسباب التي تُنال بها أعظم العطايا وأفضل المواهب، وهي مغفرة الله عَزَّوَجَلَّ للذنوب صغارها وكبارها؛ المتضمن ذلك زوال كل أمر مكروه، ورحمته العظيمة التي بها صلحت أحوالهم واستقامت أمور دينهم ودنياهم، فلهم الرحمة من الله عَزَّوَجَلَّ في يوم القيامة"[(١)].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ ﴾ هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة، مُهانين في قومهم قد واتَوْهُم على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة، فتَرَكُوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله جَلَّجَلَالُهُ وغفرانَه، وانْتَظَمُوا في سِلْك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين وصَبَروا، فأخبرَ الله تعالى أنه ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا ﴾ أي: تلك الْفِعْلَةِ، وهي الإجابة إلى الفتنة ﴿لَغَفُورٞ ﴾ لهم، ﴿رَّحِيمٞ ﴾ بهم يوم معادهم"[(٢)].

قال أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ ﴾ إلى دار الإسلام، وهم عمار وأصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، أي: لهم بالولاية والنصر لا

(١) تفسير السعدي (ص:٤٥٠-٤٥١).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٦٠٧).

عليهم، كما يوجبه ظاهر أعمالهم السابقة ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾ أي: عُذِّبوا على الارتداد وتلفظوا بما يرضيهم مع اطمئنان قلوبهم"[(١)].

أوجه الثناء:

- أن المهاجرين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وأرضاهم كانت هجرتهم فرارًا بدينهم، ونجاةً من الفتنة "﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾.

- أنهم تعرضوا للأذى والتعذيب؛ لصدِّهم عن اتباع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ ءَالِهِۦ وَسَلَّمَ، إلا أنهم ثبتوا على الإيمان، بل وضَحّوا من أجله.

- الثناء عليهم بالجهاد الصحيح الخالص ﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ﴾ فلو كان جهادهم لدنيا أو عرض دنيوي؛ لما سمّاه الله تعالى جهادًا وصبرًا.

- الثناء عليهم لصبرهم ومصابرتهم، وهي منزلة من منازل المتقين، أصحاب اليقين.

- لما صدقوا وتحققت فيهم صفات عظيمة: الهجرة، الثبات أمام الابتلاءات والفتن، الجهاد، الصبر.. كافأهم الله تعالى، وأثابهم مغفرة لذنوبهم، وتكفيرًا لسيئاتهم، ورحمة تغشاهم وتتغمدهم، وتفيض عليهم

---

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ١٤٤).

بالسكينة والطمأنينة، والدرجات العالية في جنات ونهر ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾[القمر:٥٥].

ج- الرزق الحسن والمدخل المرضي للمهاجرين رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ

الآيات ٥٨-٦٠ من سورة الحج

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ٥٩ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: "يُخبرُ تعالى عمَّن خَرَج مهاجرًا في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ ابتغاءَ مرضاته، وطلبًا لِمَا عنده، وتَرَكَ الأوطان والأهلين والخِلاَّن، وفارق بلاده في الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ، ونصرةً لدين

الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ﴾ أي: في الجهاد ﴿أَوۡ مَاتُواْ﴾ أي: حَتْفَ أَنفِهِم، أي: من غير قِتَال على فُرُشهم، فقد حَصَلُوا على الأجر الجزيل، والثناء الجميل، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[النساء:١٠٠].

وقوله: ﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًا﴾ أي: لَيُجْرِيَن عليهم من فَضْلِه ورِزْقِه من الجنة ما تَقَرُّ به أعينهم، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلًا يَرۡضَوۡنَهُۥ﴾ أي: الجنَّة، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوۡحٌ وَرَيۡحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾[الواقعة:٨٨-٨٩]، فأخبر أنه يَحصُل له الراحة والرزق وجنة نعيم، كما قال هاهنا: ﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾.

ثم قال: ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلًا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ أي: بمن يُهاجِر ويُجاهِد في سبيله، وبمن يَستحِقُّ ذلك، ﴿حَلِيمٌ﴾ أي: يَحْلُمُ ويَصْفَحُ ويَغفِر لهم الذنوب ويُكفِّرُها عنهم بهجرتهم إليه، وتَوَكُّلِهم عليه.

فأما من قُتِل في سبيل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى من مهاجر أو غير مهاجر، فإنه حَيٌّ عند ربه يُرزَق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾[آل عمران:١٦٩]، والأحاديث في هذا كثيرة، وأما من تُوُفّي في سبيل الله جَلَّجَلَالُهُ من مهاجر أو غير مهاجر، فقد تَضَمَّنَت هذه الآية الكريمة

مع الأحاديث الصحيحة إجراءَ الرِّزْق عليه، وعظيم إحسان الله عَزَّوَجَلَّ إليه.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ ذَكَر مقاتل وابن جريج أنها نَزَلَت في سَريَّة من الصحابة، لقوا جَمْعًا من المشركين في شهر محرم، فناشدهم المسلمون لئلا يقاتلوهم في الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا قتالهم وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمون، فنَصَرَهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عليهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾"[(١)].

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وذُكر أن هذه الآية نزلت في قوم من أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ اختلفوا في حكم من مات في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، فقال بعضهم: سواء المقتول منهم والميت. وقال آخرون: المقتول أفضل. فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ هذه الآية على نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، يعلمهم استواء أمر الميت في سبيله والمقتول فيها في الثواب عنده"[(٢)].

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وخص بالذكر منهم الذين هاجروا في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ ثم قتلوا أو ماتوا تنويها بشأن الهجرة، ولأجلها استوى أصحابها في درجات الآخرة سواء منهم من قتل في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ أو مات في غير

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٤٧-٤٤٩) مختصراً.

(٢) تفسير الطبري (١٨/ ٦٧٣-٦٧٤).

قتال بعد أن هاجر من دار الكفر"[1].

أوجه الثناء:

- معلوم أنه لم يهاجر قبل الآية إلا الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ ومن هذا يتبيَّن فضل المهاجرين من صحابة رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ورضي عنهم وأرضاهم.

- من مات من المهاجرين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ شهيدًا أو مات على فراشه، جميعهم موعودون بالرزق الحسن من الله تعالى في جنات النعيم.. بل أحسن الأرزاق، كيف لا، وقد ختم الله جَلَّ جَلَالُهُ الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

- ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا ﴾ كرامة مؤكدة بلام التوكيد الواقعة في جواب قسم مقدر، ومؤكدة بنون التوكيد، وبالمصدر المفعول المطلق، أي أن دخولهم هذا المدخل - وهو الجنة - دخول مؤكد لا شك فيه.

- ﴿يَرْضَوْنَهُۥ﴾ يا لها من مكرمة أن يصل الأمر إلى وعد الله جَلَّ جَلَالُهُ بأن يرضيهم وأن لا يكون لهم طلب إلا ويُجاب؛ إرضاءً لهم؛ فرضي الله تعالى

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٠٩).

عنهم ورضوا عنه.

- وعدهم الله تعالى بالنصر كونهم ظُلموا وبُغي عليهم ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ وقد تحقق الموعود وحَكَم الصحابة الأجلّاء بعد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم وهم الخلفاء الراشدون، وكان أول ملوك المسلمين معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

- وصف الهجرة بأنها في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يتضمن الحكم بصحتها وصحة غايتها، فهم تركوا أوطانهم وعشيرتهم وأموالهم، تصديقاً للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وما جاء به، فلا يمكن أن يخالط قلوبهم شك ناهيك عن نفاق؛ بل هجرتهم محض تصديق للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ؛ لأن المعطيات المادية والحسابات البشرية تدل على عدم قدرتهم على تغيير الواقع.

- الشيعة يقررون فضل الشهداء في عهد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، ويحصرون ما ورد في فضل الصحابة في هؤلاء الشهداء ونفر يسير بعد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وهذه الآية صريحة في الرد عليهم، وقاصمة ظهر لمن عنده عقل وهو حرٌّ في اتخاذ قراره ولا يعيش تحت الضغوط الاجتماعية والروايات المكذوبة في الكافي وغيره بدون أسانيد، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ﴾ قُتِلوا في عهد رسول الله

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ أو بعده، أو ماتوا في عهد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ أو بعده، فإن الآية تشملهم جميعـًا.

٤٣- بشارة المولى سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالمغانم والفتوحات للصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ

الآيات ٢٠-٢١ من سورة الفتح

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطًا مُّسۡتَقِيمًا ٢٠ وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ٢١﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال مجاهد في قوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا﴾: هي جميع المغانم إلى اليوم، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ﴾ يعني: فتح خيبر. وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ﴾ [يعني: صلح الحديبية]. ﴿وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ﴾ أي: لم يَنَلْكُم سُوْء ممَّا كان أعداؤكم أضْمَرُوه لكم من المحاربة والقتال. وكذلك كَفَّ أيدي الناس عنكم الذين خَلَّفْتُمُوهم وراء أَظْهُرِكم عن عِيالكم وحريمكم، ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

أي: يعتبرون بذلك، فإن الله عَزَّوَجَلَّ حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء، مع قلة عَدَدِهم، وليَعْلَمُوا بصنيع الله عَزَّوَجَلَّ هذا بهم أنه العليم بعواقب الأمور، وأن الخِيَرَةَ فيما يختاره لعباده المؤمنين، وإن كَرِهوه في الظاهر، كما قال: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾[البقرة:٢١٦].

﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ أي: بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته، وموافقتكم رسوله صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ.

وقوله: ﴿وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾ أي: وغنيمةً أخرى وفتحًا آخر مُعَيَّنًا لم تكونوا تقدرون عليها، قد يَسَّرها الله عَزَّوَجَلَّ عليكم، وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون.

وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة، ما المراد بها؟ فقال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا: [هي خيبر]. وهذا على قوله -في قوله تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ﴾-: [إنها صُلْح الحديبية]. وقاله الضحاك وابن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال قتادة: هي مكة. واختاره ابن جرير. وقال ابن أبي ليلى والحسن البصري: هي فارس والروم. وقال مجاهد: هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة"(١).

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٤١).





أوجه الثناء:

- وَعَد الله عَزَّوَجَلَّ الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين بمغانم كثيرة ينالونها، لم تخطر لهم ببال، وتحقق ذلك، فدل على أنهم لم يغيروا ولم يبدلوا في دينهم.

- عجَّل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم صلح الحديبية بما فيه من مكرمات.

- وصف الله عَزَّوَجَلَّ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بالإيمان، وأن ما جرى في الحديبية آية لهم، وقد عاشوا بإيمانهم لله سبحانه وبذلوا، وحقق الله عَزَّوَجَلَّ لهم وعده ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

- البشرى لهم بالهداية على الصراط المستقيم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

- تأييد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم؛ إذ لو قاتلهم الكافرون لَوَلَّوا الأدبار، فالنصر والظفر لمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وصحبه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.



٤٤- نعمة المولى سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ على أصحاب نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ بالكف عن القتال

الآيات ٢٤-٢٦ من سورة الفتح

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٢٤ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡىَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ٢٥ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمًا ٢٦﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ

﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ هذا امتنان من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على عباده المؤمنين حين كَفَّ أيدي المشركين عنهم، فلم يَصِلْ إليهم منهم سوء، وكَفَّ أيدي المؤمنين من المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صَان كُلًّا من الفريقين، وأَوْجَد بينهم صُلحًا فيه خيْرَةٌ للمؤمنين، وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة، وعن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: [لَمَّا كان يوم الحديبية هَبَطَ على رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ثمانون رجلًا من أهل مكة في السلاح، من قِبَل جَبل التنعيم، يريدون غِرَّة رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فدعا عليهم فأُخِذُوا، فعفا عنهم، ونَزَلَت: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾] [رواه مسلم].

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يقول تعالى مُخْبِرًا عن الكفار من مشركي العرب من قريش ومن مالأهم على نصرتهم على رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: هم الكفار دون غيرهم، ﴿وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي: وأنتم أحقُّ به، وأنتم أهله في نَفْس الأمر، ﴿وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أي: وصدوا الهدي أن يَصِلَ إلى مَحِلِّه، وهذا من بَغْيهم وعنادهم.

وقوله: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ﴾ أي: بين أظهرهم ممَّن يَكتُم إيمانه ويُخفيه منهم خِيْفَةً على أنفسهم من قومهم، لكنَّا سَلَّطناكم عليهم فقتلتموهم وأَبَدْتُم خضراءهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات

أقوام لا تعرفونهم حالة القتل؛ ولهذا قال: ﴿لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ﴾ أي: إِثْمٌ وغَرَامَة ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ أي: يُؤَخِّرُ عقوبتَهم لِيُخَلِّصَ من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام.

ثم قال تعالى: ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ﴾ أي: لو تميَّز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: لسلَّطناكم عليهم فلقتلتموهم قتلًا ذريعًا، عن جُنَيْد بن سَبُع رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: [قاتلتُ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓءَالِهِۦوَسَلَّمَ أول النهار كافرًا، وقاتلتُ معه آخر النهار مسلمًا، وفينا نَزَلَتْ: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ﴾. قال: كنا تسعة نفر: سبعة رجال وامرأتين] [قال الهيثمي: رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقات].

وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا: ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يقول: [لو تَزَيَّلَ الكفار من المؤمنين، لعذَّبهم الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عذابًا أليمًا بقتلهم إياهم]"[1].

وتأملوا في الآيات:

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٤٢-٣٤٥) مختصراً، وفي هذه الآية الرد المحكم الواضح على كل من رام التفجيرات في بلاد المسلمين، وقتل أهل القبلة بأي حجة كانت.

لأجل أفراد من المؤمنين والمؤمنات منع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من دخول مكة رأفة به وبمن معه أن يصيبوا أحدًا من المؤمنين الذين لا يعلمونهم، فهم قد أخفوا إيمانهم خوفًا من قريش، فما بالك بالذين يتعمدون قتل المسلمين؟! نسأل الله العافية!

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ وذلك حين أبوا أن يكتبوا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وأبوا أن يكتبوا: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾، وهي قول: (لا إله إلا الله).

وقال مجاهد: ﴿كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾: الإخلاص. وقال عطاء بن أبي رباح: هي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: [لا إله إلا الله، والله أكبر]. وكذا قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: [شهادة أن لا إله إلا الله، وهي رأس كل تقوى]. وقال سعيد بن جبير: لا إله إلا الله، والجهاد في سبيله. وقال عطاء الخراساني: هي: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. وقال الزهري: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ). وقال قتادة: لا إله إلا الله.

﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَا﴾: كان المسلمون أحقَّ بها، أي: أحقّ بها من كفار مكة وسائر الناس، لأن الله تعالى اختارهم لدينه وصحبة نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ[(١)].

﴿وَأَهۡلَهَا﴾ قال الفخر الرازي رَحِمَهُٱللَّهُ: "يحتمل أنه يفهم من معنى الأحق أنه يُثبت رجحانًا على الكافرين إن لم يُثبت الأهلية"[(٢)]، وقال الشوكاني رَحِمَهُٱللَّهُ: "أي: لأن الله سبحانه أَهَّلَهم لدينه وصحبة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ"[(٣)]، وقال السعدي رَحِمَهُٱللَّهُ: "لما يعلم الله عَزَّوَجَلَّ عندهم وفي قلوبهم من الخير، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾"[(٤)].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ أي: هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر"[(٥)].

---

(١) تفسير القرطبي (١٦/ ٢٨٩).

(٢) تفسير الرازي (٢٨/ ٨٥).

(٣) فتح القدير للشوكاني (٥/ ٦٤).

(٤) تفسير السعدي (ص:٧٩٥).

(٥) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٤٥-٣٤٦).



أوجه الثناء:

- مِنَّة الله تعالى على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وصحابته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بأن كف عنهم أيدي الناس، فلم تُرَق دماؤهم، ولم ينلهم قتال.

- إكرام الله تعالى للمؤمنين من الصحابة في مكة من المستضعفين، فتأخر فتح مكة رحمة بهم أن يطأهم جيش الحديبية فتصيبهم معرة بغير علم، ولولا وجودهم بين ظهراني المشركين لسلط الله عَزَّوَجَلَّ رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وصحبه على كفار مكة، وعذبهم الله جَلَّ جَلَالُهُ عذابًا أليمًا على أيدي المؤمنين.

- إنزال السكينة عليهم ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ والسكينة الوقورة الهادئة، كالتقوى كلتاهما تليق بالقلب المؤمن الموصول بربه، الساكن بهذه الصلة، المطمئن بما فيه من ثقة، المراقب لربه في كل خلجة[1] وكل حركة، فلا يبطر ولا يطغى ولا يغضب لذاته، إنما يغضب لربه ودينه، فإذا أُمِر أن يسكن ويهدأ خشع وأطاع في رضًا وطمأنينة.

- ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَا﴾ وهذا ثناء آخر من ربهم

(١) الاختلاج: الحركة والاضطراب. لسان العرب (٢/ ٢٥٨).

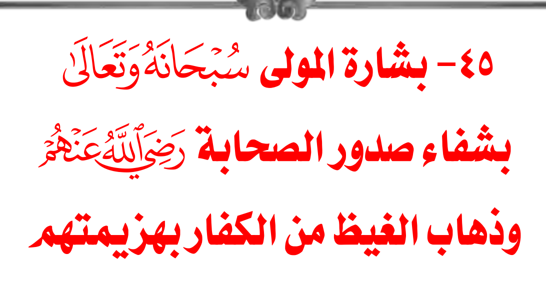
عليهم، إلى جانب الامتنان عليهم بما أنزل على قلوبهم من سكينة، وما أودع فيها من تقوى، فهم قد استحقوها في ميزان الله عَزَّوَجَلَّ، وبشهادة المولى سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهو تكريم بعد تكريم، وثناء بعد ثناء، وعطاء بعد عطاء، صادر عن علم وتقدير ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾.

- وصف الله تعالى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِوَسَلَّمَ وصحبه بالتقوى وصفًا بليغًا عميقًا في الدلالة وأكيداً في المعنى، فتأمل في قوله تعالى:

- ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ فهي لا تنفك عنهم.
- ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا﴾ فتأمل في أفعل التفضيل «أحق»، فلا يلحقهم غيرهم بهذه الأحقية.
- ﴿وَأَهۡلَهَا﴾ بذواتهم وكريم أفعالهم وأقوالهم.

فجمعت المكرمة: إلزامهم والتزامهم بكلمة التقوى، وأحقيتهم بها، وأنهم أهلها الجديرون بها.

﴿وَأَهۡلَهَا﴾ دفعًا لتوهم أن تفضيل الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ وأحقيتهم تفضيل مجرد بلا أهلية، كما تقدمت الإشارة لهذا في كلام الفخر الرازي.



٤٥- بشارة المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بشفاء صدور الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وذهاب الغيظ من الكفار بهزيمتهم

الآيتان ١٤-١٥ من سورة التوبة

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ يقتُلْهم الله تعالى بأيديكم، ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ ويُذلّهم بالأسر والقهر، ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ﴾ ويُبْرِئ داء قلوب قوم ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ مما كانوا ينالونه من الأذى منهم. وقال مجاهد والسدي: أراد صدور خزاعة حلفاء رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ حيث أعانت قريش بني بكر عليهم، حتى نكؤوا فيهم

فشفى الله تعالى صدورهم من بني بكر بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وبالمؤمنين.

﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ كَرْبها ووَجْدها بمعونة قريش بكرًا عليهم، ثم قال مستأنفًا: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ فيهديه إلى الإسلام كما فعل بأبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾"[1].

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذه الآية تدل على كون الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مؤمنين في علم الله تعالى إيمانًا حقيقيًا؛ لأنها تدل على أن قلوبهم كانت مملوءة من الغضب ومن الحمية لأجل الدين، ومن الرغبة الشديدة في علو دين الإسلام، وهذه الأحوال لا تحصل إلا في قلوب المؤمنين. واعلم أن وصف الله عَزَّوَجَلَّ لهم بذلك لا ينفي كونهم موصوفين بالرحمة والرأفة، فإنه تعالى قال في صفتهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[المائدة:٥٤] وقال أيضًا: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح:٢٩]"[2].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهذا يدل على محبة الله تعالى لعباده المؤمنين

---

(١) تفسير البغوي (٤/ ١٨).

(٢) تفسير الرازي (١٦/ ٦-٧).

واعتنائه بأحوالهم حتى إنه جعل -من جملة المقاصد الشرعية- شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم"[1].

أوجه الثناء:

- الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم كانوا من جند الله تعالى الذين يسلّطهم على أعدائه، وتأمل في قوله: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾، فهي أيدٍ مباركة يتحقق بها مراد الله تعالى وأمره.

- الشهادة للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالإيمان ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾، وأن صدورهم تتحرّق لأجل دين الله تعالى وغيظًا على الكفار، وهذه من أعظم معاني الإيمان: الحب في الله والبغض في الله عَزَّ وَجَلَّ.

- لطف الله تعالى بالصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وعنايته بهم إلى درجة العناية بشفاء صدورهم وذهاب غيظهم من أعدائهم وسعادتهم برؤية هزيمتهم ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾، وهذا دليل ظاهر على محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإكرامه لهم.

---

(١) تفسير السعدي (ص:٣٣١).



رابعاً: دفاع المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وحفظه لمكانتهم





تمهيد

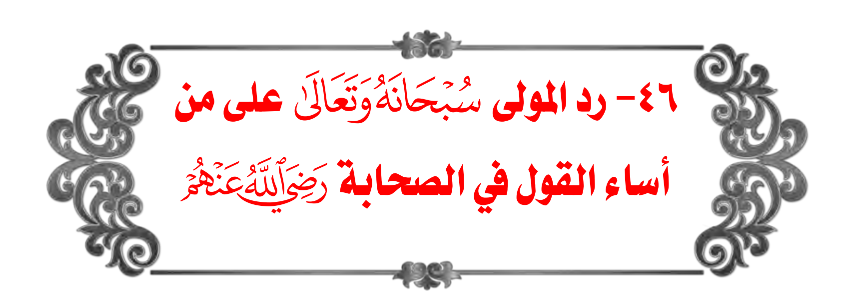
من صفات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ العظيمة: دفاعه عن أحبابه وأوليائه، وغيرته عليهم أن ينالهم أحد بسوء، وقد مدح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نفسه بهذا فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾.

فمن دافع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه فهو مؤمن حبيب لله جَلَّ وَعَلَا.

فماذا سيقول كارهو الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ومبغضوهم حين يرون أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يردُّ على من أساء إلى الصحابة بالقول أو الفعل، بل ويعاتب نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ لأجلهم، ويأمره بالإحسان إليهم والترفق معهم وحفظ مكانتهم، وينهاه عن التقليل من شأنهم أو الابتعاد عنهم؟!

هذا الدفاع وهذا الحرص على التأكيد على مكانتهم دليل واضح على فضلهم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذه الآيات القادمة تحكي وتبين هذا المعنى العظيم.



٤٦- رد المولى سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ على من أساء القول في الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ

الآية ١٣ من سورة البقرة

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣ ﴾

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ ﴾، في المقول لهم قولان:

أحدهما: أنهم اليهود، قاله ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، ومقاتل.

والثاني: المنافقون، قاله مجاهد، وابن زيد"(١).

وقال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإنما عَنَى المنافقون بقيلهم: ﴿أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ إذْ دُعوا إلى التصديق بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ، وبما جاء

(١) زاد المسير في علم التفسير (١/ ٣٣).

به من عند الله عَزَّوَجَلَّ، والإقرار بالبعث فقيل لهم: ﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ أصحاب محمدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ وأتباعه من المؤمنين المصدِّقين به، من أهل الإيمان واليقين، والتصديقِ بالله تعالى، وبما افترض عليهم على لسان رسوله محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ وفي كتابه، وباليوم الآخر. فقالوا إجابة لقائل ذلك لهم: أنؤمن كما آمَن أهل الجهل، ونصدِّق بمحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ كما صدّق به هؤلاء الذين لا عقولَ لهم ولا أفهام؟ كالذي عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وعن ناس من أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾، يعنون أصحابَ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ...

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ وهذا خبرٌ من الله تعالى عن المنافقين الذين تقدَّم نعتُه لهم، ووصفُه إياهم بما وصفهم به من الشك والتكذيب - أنَّهم هُم الجُهَّال في أديانهم، الضعفاء الآراء في اعتقاداتهم واختياراتهم التي اختاروها لأنفسهم، من الشكّ والريْب في أمر الله عَزَّوَجَلَّ وأمر رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ وأمر نبوته، وفيما جاء به من عند الله عَزَّوَجَلَّ، وأمر البعث، لإساءَتِهم إلى أنفسهم بما أتَوْا من ذلك وهم يحسبون أنَّهم إليها يُحْسِنون، وذلك هو عَيْنُ السَّفه؛ لأن السفيه إنما يُفسد من حيث يرى أنه يُصلحُ، ويُضيع من حيث يَرى أنه يحفظ، فكذلك المنافق: يَعصي رَبَّه من حيث يرى أنه يطيعُه، ويكفرُ به من حيث يرى أنه يُؤمن به، ويسيء إلى نفسه

من حيث يحسب أنه يُحسن إليها، كما وصفهم به ربنا جلّ ذكره، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢﴾[البقرة:١٢]، وقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ -دون المؤمنين المصدّقين بالله وبكتابه، وبرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ وثوابه وعقابه- ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾، وكذلك كان ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يتأول هذه الآية"[(١)].

وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟﴾ أي إيمانًا مقرونًا بالإخلاص بعيدًا عن النفاق".

وقال: "ثم إن الله تعالى قلب عليهم هذا اللقب، وقوله الحق لوجوه:

أحدها: أن من أعرض عن الدليل ثم نسب المتمسك به إلى السفاهة؛ فهو السفيه.

وثانيها: أن من باع آخرته بدنياه فهو السفيه.

وثالثها: أن من عادى محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ؛ فقد عادى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وذلك هو السفيه"[(٢)].

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٩٣-٢٩٥) مختصراً.

(٢) تفسير الرازي (٢/ ٦١-٦٢).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ أي: صدِّقوا بمحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِوَسَلَّمَ وشرعه، كما صدَّق المهاجرون والمحققون[1] من أهل يثرب"[2].

أوجه الثناء:

- دفاع رب العزة والجلال عن جناب صحابة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِوَسَلَّمَ، وردُّه تعالى على المنافقين واليهود بأنهم هم السفهاء وليس أصحاب محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِوَسَلَّمَ المؤمنين به.

- حرص الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ على دعوة غيرهم للإسلام، كما تقدم أنهم قالوا لليهود أو المنافقين: ﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾، وحثوهم على الدخول فيما دخل فيه الناس من الهدى والدين الحق، وذلك ناشئ عن أمرين:

١- يقينهم بصدق ما جاء به محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِوَسَلَّمَ، وإيمانهم الراسخ به.

---

(١) هم الذين حققوا الإيمان فلم يخالطه شك أو نفاق، وذلك احترازاً من المنافقين من أهل يثرب.

(٢) تفسير القرطبي (١/ ٢٠٥).

٢- حبهم للخير والدعوة إليه، وهذا من كمال إيمانهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

- أن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ هم ﴿ٱلنَّاسُ﴾ هم الأمة، هم الأكثر، هم الأغلب، ومن عدا الصحابة ليسوا إلا شاذين عن الهدى، ضالين عن طريق الحق، و(ال) في ﴿ٱلنَّاسُ﴾ وكذلك أصل كلمة الناس، يدلّ على الكثرة، وفي المدينة الكثير ممن آمن بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، من المهاجرين والأنصار.. وفي هذا ردٌّ على الشيعة الذين يقصرون الإيمان بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ على النزر اليسير، وحكموا بِردَّة بقية الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

- ومما يؤكد على أن هؤلاء الناس من أهل الإيمان، الآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾[البقرة:١٤]، إذ تضمنت الآية نسبة الإيمان للسواد الأعظم ممن هم حول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وكيف يعاملهم المنافقون؛ فإن القلة الشاذة تنافق الأكثر والسواد الأغلب، ولو كان المؤمنون قِلَّة ما احتاج المنافقون لممارسة التقية معهم.

- نيل المنافقين واليهود من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ واتهامهم لهم بالسفه ناتج عن المفاصلة بين الصحابة وبين المنافقين والكافرين، فلو كانوا على مودة بينهم لما اتهموهم بالسفه، وهذا يجسد مبدأ الولاء والبراء عند الصحابة الكرام، فليس لديهم أيَّةُ مودة لمن حادَّ الله تعالى ورسوله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وفيه إشارة إلى معرفة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لكثير من المنافقين.

- وصف الله تعالى للمنافقين واليهود بقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ يتضمن الثناء على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بمفهوم المخالفة، فلو كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جهلة؛ لما كان لوصف المنافقين واليهود بالجهل وعدم العلم كبير فائدة.

- حكم الله تعالى بالإيمان لجمهور أهل المدينة ممن آمن بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وتبنيهم للدعوة للدين الحق، مع أنهم لا يعتقدون عقيدة الشيعة في الإمامة والولاية مما يجعله الشيعة ركنًا وشرطًا في الإيمان؛ مما يدل على أن أصول الشيعة هي أصول باطلة، لم يجعلها ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شرطًا في الإيمان، لا شرط صحة ولا شرط كمال، ولا واجبة، ولا سنة، فلا دليل عليها، بل إنها منكرة كما دلت الآيات على ذلك.

- كل من طعن في الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَقُدْوَتُه اليهود وأهل النفاق.



٤٧- دفع المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ شر أعدائهم

الآية ١١ من سورة المائدة

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يُذَكِّر تعالى عباده المؤمنين بنعمه العظيمة، ويحثهم على تذكّرها بالقلب واللسان، وأنهم -كما أنهم يَعُدُّون قتلهم لأعدائهم، وأخذ أموالهم وبلادهم وسبيهم نعمةً- فليَعُدُّوا أيضًا إنعامه عليهم بكف أيديهم عنهم، ورد كيدهم في نحورهم نعمة؛ فإن الأعداء قد هموا بأمر، وظنوا أنهم قادرون عليه، فإذا لم يدركوا بالمؤمنين مقصودهم، فهو نصر من الله عَزَّوَجَلَّ لعباده المؤمنين ينبغي لهم أن يشكروا الله عَزَّوَجَلَّ



على ذلك، ويعبدوه ويذكروه، وهذا يشمل كل من هَمَّ بالمؤمنين بِشرّ، من كافر ومنافق وباغ، كفَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ شره عن المسلمين، فإنه داخل في هذه الآية.

ثم أمرهم بما يستعينون به على الانتصار على عدوهم، وعلى جميع أمورهم، فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ويتبرؤوا من حولهم وقوتهم، ويثقوا بالله تعالى في حصول ما يحبون، وعلى حسب إيمان العبد يكون توكله، وهو من واجبات القلب المتفق عليها"(١).

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وذكر محمد بن إسحاق بن يَسار، ومجاهد وعكْرِمَة، وغير واحد: أنها نزلت في شأن بني النَّضير، حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ الرحَى، لما جاءهم يستعينهم في دِيَةِ العامريين، ووكلوا عمرو بن جَحَّاش بن كعب بذلك، وأمروه إن جلس النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ تحت الجدار واجتمعوا عنده أن يلقي تلك الرحى من فوقه، فأطلع الله عَزَّوَجَلَّ رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ على ما تمالؤوا عليه، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا

---

(١) تفسير السعدي (ص:٢٢٥).

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ ثم أمر رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ أن يغدو إليهم فحاصرهم، حتى أنزلهم فأجلاهم.

قال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: "قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ يعني: من توكَّل على الله تعالى كفاه الله عَزَّوَجَلَّ ما أهمَّه، وحفظه من شر الناس وعَصمه"(١).

يقول رشيد رضا رَحِمَهُٱللَّهُ: "أي: اذكروا نعمة الله تعالى عليكم بعنايته بكم؛ إذ هَمَّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم؛ أي: شارفوا أن يمدوا أيديهم إليكم بالقتل، فكفّ أيديهم عنكم، فلم يستطيعوا تنفيذ ما همّوا به وكادوا يفعلونه من الإيقاع بكم.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ الذي أراكم قدرته على أعدائكم وقت ضعفكم وقوتهم، وتوكلوا عليه وحده، فقد أراكم عنايته بمن يَكِلون أمورهم إليه بعد مراعاة سننه، والسير عليها في اتقاء كل ما يخشى ضرَّه وسوء عاقبته.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ بقدرته وعنايته وفضله ورحمته، لا على

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٣-٦٤).

أنفسهم أنفسها، ولا على أوليائهم وحلفائهم؛ لأن هؤلاء قد يغدرون كما غدر بنو النضير وغيرهم؛ ولأن أنفسهم قد يكثر عليها الأعداء، وتتقطع بها الأسباب، فتقع بين أمواج الحيرة والاضطراب، حتى تفقد البأس، وتجيب داعي اليأس.

ولا يقع هذا للمؤمن المتوكل على الله تعالى؛ لأنه إذا هَمَّ أن ييأس من نفسه بتقطع الأسباب، وتغليق الأبواب، وتغلب الأعداء، وتقلب الأولياء، يتذكر أن الله تعالى وليه ووكيله، وأنه هو الذي بيده ملكوت كل شيء، وأنه هو الذي يجير، ولا يجار عليه، فتتجدد قوته، وتنفتق حيلته[(١)]، فيفر منه اليأس، ويتجدد عنه ما اخلولق[(٢)] من البأس، فينصره الله تعالى بما يستفيد من الإيمان والذكرى والتوكل، وما يخذل به عدوه ويلقي في قلبه من الرعب، وبغير ذلك من ضروب عنايته عَزَّوَجَلَّ، التي رآها كل متوكل من المؤمنين الكَمَلة، مع سيد المتوكلين محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أيام ضعفهم وقلتهم وفقرهم، وتألُّب الناس كلهم عليهم"[(٣)].

---

(١) الفتق: هو فتح في الشيء، والحيلة: ما يتوصل به إلى حالة ما في خفية، وأكثر استعمالها فيما في تعاطيه خبث، وقد تستعمل فيما فيه حكمة. مقاييس اللغة (٤/ ٤٧١)، المفردات في غريب القرآن (ص:٢٦٧).

(٢) اخلولق الشيء: لان واستوى حتى كأنه يضمحل. لسان العرب (١٠/ ٩٠).

(٣) تفسير المنار (٦/ ٢٣٠).

أوجه الثناء:

- تذكير الله تعالى النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ والصحابة بما منَّ عليهم من كفِّ أعداء الله عَزَّوَجَلَّ عنهم بني النضير وغيرهم.

- وصف الإيمان، إذ ناداهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بذلك الوصف الدالّ على تحلِّيهم بالإيمان وصدق الاتباع لما جاء به النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ عن ربه تعالى، وهذا مقام تشريف وثناء.

- أن الله عَزَّوَجَلَّ أثبت لهم عبادة التوكل، فخاطبهم ابتداءً بوصف الإيمان، ثم قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ مما يُبيِّن أن مقتضى التوكل أن يكون الإنسان مؤمنًا، فأثبت لهم عبادة التوكل، ومن نتائج توكلهم على الله جَلَّجَلَالُهُ أن أكرمهم الله عَزَّوَجَلَّ بأن كفّ أيدي الكفار عنهم.

من المواقف التي كفّ الله عَزَّوَجَلَّ شر الأعداء عن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ:

١- كف أيدي المشركين بمكة عن الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ وأبي بكر وبعض الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ في مكة.

٢- خروج الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ مهاجرين إلى المدينة وتمكنهم من الهجرة، ومنع أيدي قريش من النيل من أكثرهم.

٣- كف أيدي كفرة قريش عن المهاجرين إلى الحبشة، وردَّ الله عَزَّوَجَلَّ بالنجاشي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ما كانت قريش تريده.

٤- كف الله تعالى المشركين عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ وأبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ في الهجرة، مع بذل المشركين كل طاقتهم وتسخير كل ما أمكنهم لمنع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ من الوصول إلى المدينة.

٥- كف الله تعالى جيش المشركين في غزوة أحد عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ والصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، فبعد الهزيمة كان بإمكان المشركين إبادة المسلمين إبادة شاملة، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ كفَّهم عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ والصحابة، واكتفوا فقط بالثأر لبدر.

٦- ما ورد في حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: «غزونا مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ غزوةً قِبَل نجد، فأدركنا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ في واد كثير العضاه، فنزل رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ تحت شجرة، فعلق سيفه بغصن من أغصانها، قال: وتفرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر، قال: فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ: «إن رجلًا أتاني وأنا نائم، فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسي، فلم أشعر إلا والسيف صلتًا[1] في يده، فقال لي: من يمنعك مني؟ قال: قلت: الله، ثم

(١) أصلت السيف إذا جرده من غمده. النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٤٥).

قال في الثانية: من يمنعك مني؟ قال قلت: الله، قال: فَشَامَ السَّيْفَ[(١)] فها هو ذا جالس» ثم لم يعرض له رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ»[(٢)].

٧- في صلح الحديبية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[الفتح:٢٤] قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا امتنان من الله عَزَّوَجَلَّ على عباده المؤمنين حين كفَّ الله تعالى أيدي المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكفّ أيدي المؤمنين من المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان الله عَزَّوَجَلَّ كلا من الفريقين، وأوجد بينهم صلحًا فيه خيَرَةٌ للمؤمنين، وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة"[(٣)].

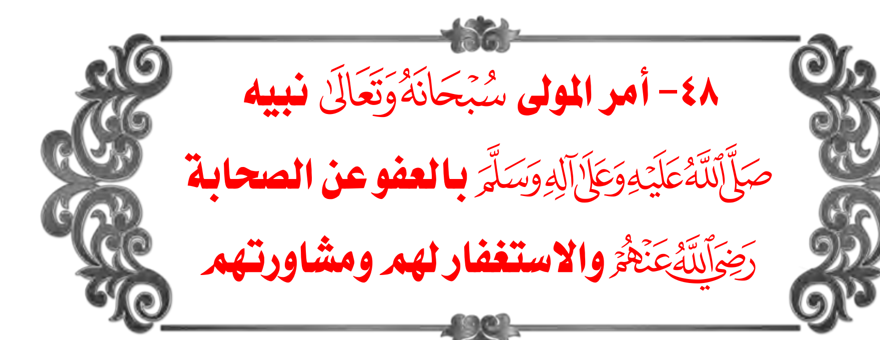
وهذا من عناية المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهم في تلك المواقف وغيرها حيث امتن الله تعالى على نبيه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ وصحابته الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بأن دفع عنهم كيد الكافرين، وكف عنهم أيدي المعتدين.

---

(١) أي: أدخله في غمده. شرح صحيح البخاري لابن بطال (٥/ ١٠١).

(٢) البخاري (٥/ ١١٦ رقم ٤١٣٩)، مسلم (٤/ ١٧٨٦ رقم ٨٤٣).

(٣) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٤٢).



٤٨- أمر المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بالعفو عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والاستغفار لهم ومشاورتهم

الآية ١٥٩ من سورة آل عمران

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "يقول تعالى مخاطبًا رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، ممتنًّا عليه وعلى المؤمنين، فيما ألان به قلبه على أمّته، المتبعين لأمره، التاركين لزَجْرِه، وأطاب لهم لفظه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ أي: أي شيء جعلك لهم ليّنًا لولا رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بك وبهم. قال قتادة: يقول: فبرحمةٍ من الله عَزَّوَجَلَّ لِنْتَ لهم. وقال الحسن البصري: هذا خُلُقُ محمد

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بعثه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ الفظ: الغليظ، والمراد به هاهنا غليظ الكلام؛ لقوله بعد ذلك: ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ أي: لو كنت سيِّئَ الكلام قاسي القلب عليهم لانفضُّوا عنك وتركوك، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ جمعهم عليك، وألَان جانبك لهم تأليفًا لقلوبهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ ولذلك كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يشاور أصحابه في الأمر إذا حَدَث، تطييبًا لقلوبهم؛ ليكونوا فيما يفعلونه أنشط لهم.

وقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: إذا شاورتَهم في الأمر وعزمتَ عليه فتوكل على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾"[1].

أوجه الثناء:

- منَّة الله عَزَّوَجَلَّ ورحمته على الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾، فخُلُق اللِّين والحلم من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ نعمة من الله تعالى عليهم، وهم بها جديرون، وقد ظهر كمال أخلاق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عليهم فاكتسوا بها.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/١٤٨-١٥٠) مختصراً.

- أمر الله تعالى نبيه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ بالعفو عمن يسيء منهم، وقد فعل ذلك صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ عليه مراراً.

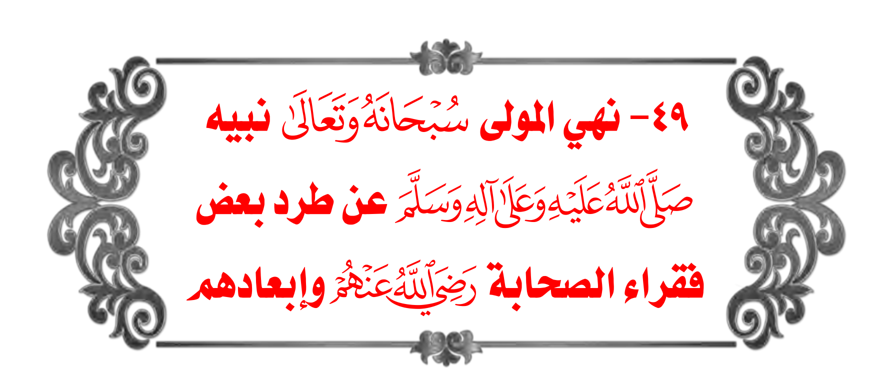
- أمر الله تعالى نبيه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ بالاستغفار لهم، وقد فعل ذلك الحبيب صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ ففاز الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ بهذا الفضل مراراً.

- أمر الله تعالى نبيه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ بإشراكهم في قضايا الأمة، ومشاورتهم فيما هو مجال المشورة، وفي هذا رفعة لشأنهم وعلو كعبهم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

- أمر الله تعالى نبيه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ باللين والعفو والاستغفار لأصحابه؛ كونهم أهل إيمان وتقوى وحب لله ولرسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ، وما يقع منهم من زلل فهو لأسباب بعيدة عن مربط الإيمان وحب الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ، بدليل أن الله تعالى أمره بمقابل ذلك بالغلظة والشدة على المنافقين والكافرين؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[التوبة:٧٣]، فدلالة الثناء واضحة جلية؛ رفق بالمؤمنين، وشدة على الكافرين والمنافقين، وليس للشانئين(١) للصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أي مستمسك أمام هذه الفضائل والثناء في القرآن الكريم. رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وأرضاهم.

---

(١) الشانئ هو المبغض. المفردات في غريب القرآن (ص:٤٦٥).



٤٩- نهي المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ عن طرد بعض فقراء الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وإبعادهم

الآيتان ٥٢-٥٣ من سورة الأنعام

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ﴾ أي: لا تُبْعِدْ هؤلاء المتَّصِفين بهذه الصفة عنك، بل اجعلهم جلساءك وأخِصَّاءك، كما قال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ

أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴾[الكهف:٢٨].

﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُم ﴾ أي: يعبدونه ويسألونه ﴿بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ ﴾ قال سعيد بن المسيب، ومجاهد، والحسن، وقتادة: المراد بذلك الصلوات المكتوبات، وهذا كقوله: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾[غافر:٦٠] أي: أتقبَّل منكم.

﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ أي: يبتغون بذلك العمل وجه الله الكريم، فهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات.

﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ ﴾ كما قال نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في جواب الذين قالوا: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٢ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴾[الشعراء:١١١-١١٣]، أي: إنما حسابهم على الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وليس عليَّ من حسابهم من شيء، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء.

﴿فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي: إن فعلت هذا والحالة هذه، عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: مرَّ الملأ من قريش برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وعنده: صهيب، وبلال، وعمار، وخبَّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد! أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين مَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ عليهم من بيننا؟ ونحن نكون تبعًا لهؤلاء؟ اطردهم عنك، فلعلك

إن طردتهم أن نتَّبعك! فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾ إلى آخر الآية [رواه أحمد]، وعن سعد قال: نَزَلت هذه الآية في ستة من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، منهم ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: كنا نَسْبِقُ إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وندنو منه ونسمع منه، فقالت قريش: يُدْنِي هؤلاء دوننا! فنَزَلَت: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾[رواه مسلم].

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾ أي: ابتلينا واختبرنا وامتحنّا بعضهم ببعض؛ ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ وذلك أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ كان غالب من اتبعه في أول البعثة، ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل، كما قال قومُ نوح لنوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ الآية [هود:٢٧]، وكما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حين سأله عن تلك المسائل، فقال له: [فهل اتبعه ضعفاء الناس أو أشرافهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال: هم أتباع الرُّسل].

والغرض: أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم، ويعذِّبون من يقدرون عليه منهم، وكانوا يقولون: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ

بَيۡنِنَآۗ﴾؟ أي: ما كان الله عَزَّوَجَلَّ ليهدي هؤلاء إلى الخير - لو كان ما صاروا إليه خيرًا - ويدَعُنا، كما قالوا: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِ﴾[الأحقاف:١١]، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾[مريم:٧٣]، قال الله تعالى في جواب ذلك: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا﴾[مريم:٧٤]، وقال في جوابهم -حين قالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾- ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم، فيوفِّقهم ويهديهم سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إليه صراطًا مستقيمًا، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[العنكبوت:٦٩]، وفي الحديث الصحيح: «إن الله عَزَّوَجَلَّ لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» [رواه مسلم] "[(١)].

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ حال من ضمير «يدعون»، أي: يدعون ربهم بالغداة والعشي مريدين بهذا الدعاء وجهه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، مبتغين مرضاته، أي يتوجهون به إليه وحده مخلصين له الدين، فلا يشركون معه أحدًا، ولا يرجون من غيره عليه ثوابًا، ولا يتوقعون به من أحد مدحًا ولا

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٩-٢٦١).

نفعًا، فهذا التعبير يدل على الإخلاص لله تعالى في العمل وابتغاء مرضاته به وحده وعدم الرياء فيه(١).

أوجه الثناء:

- ينهى الله تعالى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أن يُبعِد المؤمنين، أو أن ينأى عن مجالستهم، لاسيما الضعفاء منهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وفي هذا منقبة عظيمة، أن يختارهم الله تعالى جلساء لأكرم خلقه عليه، ولم يكتفِ الله عَزَّ وَجَلَّ بنهي الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عن إبعادهم ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾، بل جاء الأمر الصريح بأن يصبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ نفسه معهم ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[الكهف:٢٨].

- وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بأنهم أهل عبادة ودعاء لربهم تعالى بالغداة والعشي ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾.

- ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مخلصون في عبادتهم ودعائهم لا يرجون إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفي هذا دلالة على صلاح باطنهم.

---

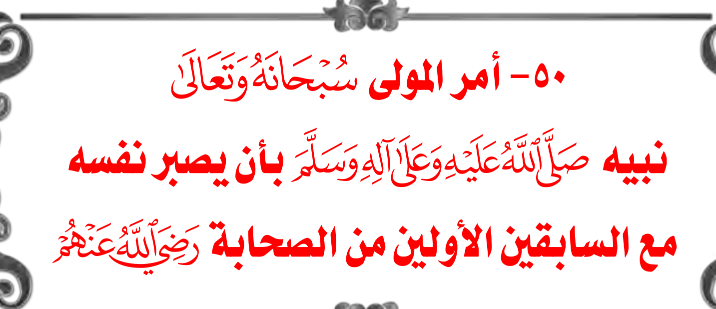
(١) تفسير المنار (٧/ ٣٦٤).

- عتاب الله تعالى لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وتهديده بأنه سيكون من الظالمين إن طردهم ونأى عن مجالستهم ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فتأمل ذلك فإنه عظيم الدلالة في تزكيتهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

- إنكار الله تعالى على الكافرين الذين قالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ يدل على عظيم منة الله عَزَّ وَجَلَّ على الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

- وصف الله تعالى الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بأنهم شاكرون، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

- الأقربون من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ الذين نهاه الله عَزَّ وَجَلَّ عن طردهم وأمره بمجالستهم قوم قد شهد لهم القرآن بأنهم أصحاب عبادة ودعاء وكثرة ذكر بالغداة والعشي، وأنهم مخلصون موحدون لا يرجون إلا وجه الله تعالى، وأنهم شاكرون؛ فكيف يقول الشيعة: إنهم منافقون؟!! ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[التوبة:٣٠].



٥٠- أمر المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بأن يصبر نفسه مع السابقين الأولين من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ

الآية ٢٨ من سورة الكهف

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن أكابر قريش اجتمعوا، وقالوا لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: إن أردت أن نؤمن بك فاطْرُد هؤلاء الفقراء من عندك، فإذا حضرنا لم يحضروا، وتعيّن لهم وقتًا يجتمعون فيه عندك فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

[الأنعام:٥٢] الآية، فبَيَّن فيها أنه لا يجوز طردهم، بل تجالسهم وتوافقهم وتعظّم شأنهم ولا تلتفت إلى أقوال أولئك الكفار ولا تقيم لهم في نظرك وزنًا سواء غابوا أو حضروا.

وهذه القصة منقطعة عما قبلها وكلام مبتدأ مستقل، ونظير هذه الآية قد سبق في سورة الأنعام وهو قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام:٥٢]، ففي تلك الآية نهى الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ عن طردهم وفي هذه الآية أمره بمجالستهم والمصابرة معهم"[(١)].

وقال الشنقيطي رَحِمَهُٱللَّهُ: "وقد نزلت هذه الآية الكريمة في فقراء المهاجرين كعمار، وصهيب، وبلال، وابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ونحوهم، لما أراد صناديد الكفار من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ أن يطردهم عنه، ويجالسهم بدون حضور أولئك الفقراء المؤمنين.

وقد قدمنا في سورة الأنعام أن الله عَزَّوَجَلَّ كما أمره هنا بأن يصبر نفسه معهم أمره بألا يطردهم، وأنه إذا رآهم يسلم عليهم، وذلك في قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ إلى قوله:

---

(١) تفسير الرازي (٢١/ ٤٥٥).

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾[الأنعام:٥٢-٥٤]، وقد أشار إلى ذلك المعنى في قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ﴾[عبس:١-١١]"(١).

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يأمر تعالى نبيه محمداً صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ - وغيره أسوته، في الأوامر والنواهي- أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد المنيبين ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ أي: أول النهار وآخره يريدون بذلك وجه الله تعالى، فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها، ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء فإن في صحبتهم من الفوائد، ما لا يحصى.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تجاوزهم بصرك، وترفع عنهم نظرك.

وفي الآية استحباب الذكر والدعاء والعبادة طرفي النهار، لأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مدحهم بفعله، وكل فعل مدح الله عَزَّوَجَلَّ فاعله، دلّ ذلك على أن الله عَزَّوَجَلَّ يحبه، وإذا كان يحبه فإنه يأمر به، ويرغب فيه"(٢).

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٢٦٣).

(٢) تفسير السعدي (ص:٤٧٥).

جعل الله عَزَّوَجَلَّ هذه الآيات العظيمة التي تتلى إلى قيام الساعة في بيان فضل الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وأرضاهم والرد على أصحاب الأساطير والقصص والروايات الكثيرة التي لا خطام لها ولا زمام، وقال لنبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: اصبر نفسك مع هؤلاء، صاحِبْهم وجالِسْهم وعلِّمْهم، ففيهم الخير، وعلى مثلهم تقوم الدعوات، فالدعوات لا تقوم على من يعتنقونها من باب السياسة والتغلب على خصومهم، ومن يعتنقونها ليقودوا بها الأتباع، أو يحققوا بها الأطماع، أو يتّجِروا بها في سوق الدعوات تُشترى منهم وتباع! إنما تقوم الدعوات بهذه القلوب التي تتجه إلى الله عَزَّوَجَلَّ خالصة له، لا تبغي جاهًا ولا متاعًا ولا انتفاعًا، إنما تبتغي وجهه وترجو رضاه.

ولا يتحول اهتمامك عنهم إلى مظاهر الحياة التي يستمتع بها أصحاب الزينة، فهذه زينة الحياة الدُّنْيا لا ترتفع إلى ذلك الأفق العالي الذي يتطلع إليه من يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه.

أوجه الثناء:

- نهيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ عن الإعراض والنأي عنهم، ويا له من ثناء من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وتكريم وتشريف أن يأمر الله جَلَّجَلَالُهُ خير خلقه بأن لا ينأى عن أولئك المؤمنين من الصحابة الأكرمين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، كما في سورة الأنعام

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[الأنعام:٥٢]، لكنه زاده هنا فأمره الله تعالى بمجالستهم، والاصطبار في تعليمهم، وفي هذه الآية مزيد فضل وثناء على الصحابة الكرام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

- أنهم مخلصون في عبادتهم ودعائهم لا يرجون إلا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

- امتثال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ أمر ربه تعالى فأدنى منه الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، سواءً قبل الهجرة أو بعدها؛ فقد كان يجتمع بهم ويجالسهم في مكة بدار الأرقم، ويعلمهم، ومنهم الصّدّيق أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والزبير، وطلحة، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وابن أم مكتوم، وعمار بن ياسر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وأرضاهم، وفي المدينة كانت جلساته صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ظاهرة علنية في مسجده، وجعل الصُّفَّة في المسجد للفقراء من المهاجرين وغيرهم، وكلهم تحقق فيهم وصف الله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، وكانت قلوبهم محلًا للإيمان، ومأوى للتقوى، فرَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وأرضاهم.

- لما قال الله جَلَّجَلَالُهُ ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ كان هذا مدحا للصحابة بيقظة القلوب، واتباع الهدى لا الهوى،

واجتماع شأنهم، إذ هم ضد من غفل قلبه، واتبع هواه، وشتّت أمره وضاع.

- هؤلاء المقربون من النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ الذين أمره بمجالستهم قوم قد شهد لهم القرآن بأنهم أصحاب عبادة ودعاء وكثرة ذكر بالغداة والعشي، وأنهم مخلصون موحّدون لا يَرْجون إلا وجه الله تعالى؛ فكيف يقول الشيعة في رواياتهم المزعومة: إنهم منافقون؟!! ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[التوبة:٣٠].

وهل يتصور عاقل أن تأتي هذه الآيات العظيمة، تأمر النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ بأن يصبر نفسه مع الصحابة ويكرمهم، والله جَلَّجَلَالُهُ يعلم أنهم سيرتدون ويحاربون دينه؟! تعالى الله عما يقوله الكاذبون! فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يعلم السر وأخفى، ويعلم ما كان وما سيكون، قد أحاط الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بكل شيء علمًا.



٥١- أمر المولى سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بالتسليم على الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وتبشيرهم برحمة الله

الآية ٥٤ من سورة الأنعام

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٤﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: فَأَكْرِمْهم بِرَدِّ السلام عليهم، وبَشِّرهم برحمة الله عَزَّوَجَلَّ الواسعة الشاملة لهم؛ ولهذا قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ أي: أوجبها على نفسه الكريمة، تفضلًا منه وإحسانًا وامتنانًا ﴿أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾، قال بعض السلف: كل من عصى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فهو جاهل. وقال

عِكْرِمة: الدنيا كلها جهالة.

﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ﴾ أي: رجع عما كان عليه من المعاصي، وأقلع وعزم على ألَّا يعود وأصلح العمل في المستقبل، ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾. عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ: «لما قضى الله الخَلْقَ، كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي» [متفق عليه].

ومما يناسب هذه الآية من الأحاديث أيضًا: قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ لمعاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: «أتدري ما حق الله على العباد؟ أن يعبدوه لا يشركوا به شيئًا»، ثم قال: «أتدري ما حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك؟ ألّا يعذبهم» [متفق عليه] "[1].

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد أكرمهم الله عَزَّ وَجَلَّ كرامتين:

الأولى: أن يبدأهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ بالسلام حين دخولهم عليه وهي مزية لهم، لأن شأن السلام أن يبتدئه الداخل، ثم يحتمل أن هذا حكم مستمر معهم كلما أدخلوا على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ، ويحتمل أنه للمرة التي يبلغهم فيها هذه البشارة، فنزل هو منزلة القادم عليهم؛ لأنه زف إليهم هذه البشرى.

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٦٢-٢٦٣) مختصراً.

والكرامة الثانية هي: بشارتهم برضا الله عَزَّوَجَلَّ عنهم بأن غفر لهم ما يعملون من سوء إذا تابوا من بعده وأصلحوا، وهذا الخبر وإن كان يعم المسلمين كلهم فلعله لم يكن معلومًا، فكانت البشارة به في وجوه المؤمنين يومئذ تكرمة لهم ليكونوا ميموني النقيبة على بقية إخوانهم والذين يجيئون من بعدهم"(١).

ولا يخفى عليك أخي القارئ أن الذين جاؤوا يؤمنون بالآيات هم الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، فهم المعنيون والمقصودون أصالة، وغيرهم يدخل في ذلك تبعًا.

أوجه الثناء:

- أمر الله تعالى نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ إذا جاءه الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ أن يكرمهم بابتداء السلام عليهم، ويبشرهم برحمة الله عَزَّوَجَلَّ الواسعة الشاملة لهم ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾.

- وصف الصحابة الكرام رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ بوصف الإيمان ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٢٥٧).

- أمر الله تعالى نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بأن يقول لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾، وتلك تحية تحمل مشاعر الود والسلام والإسلام، ومعلوم لدى الجميع أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ كان يخاطب الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الذين يشهدون معه الصلوات، ويحضرون مجالسه، وأما أهل النفاق فشهودهم للصلاة قليل، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى.

- فيه إشارة إلى عدم عصمة الصحابة ﴿مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وبيان ما يجب عليهم من التوبة والإصلاح إذا حصل منهم زلل أو سوء، ووعدهم المولى سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالمغفرة والرحمة.



٥٢- ذكر المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سؤالات الصحابة : (يسألونك) وجوابه تشريفاً لهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ ﴾[البقرة:١٨٩].

سبحان الله! لو قابلت عالمًا مشهورًا وأخذت عنه العلم أصبح ذلك مفخرة لك، فكيف لو انضاف لذلك أن أخذت منه سنداً في التلاوة!!

وهنا أعظم تخليد على مر الزمان يحظى به الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

الصحابة يسألون من؟ يسألون سيد البشر، ويأخذون الفتوى من سيد الخلق صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ..

أخذوا القرآن من فيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ مباشرة، وكذلك الحديث، فجاءت آيات كثيرة تَذْكر أسئلة الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وتجيب عنها

- ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾[البقرة:٢١٥].

- ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ



وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾[البقرة:٢١٩].

- ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ ۚ﴾[النساء:١٧٦].

- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾[المائدة:٤].

- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾[الأنفال:١].

وتأمل في هذه الأسئلة وهي كثيرة.

أوجه الثناء:

- أنها كلها أسئلة عمل وليست أسئلة جدل، فالقوم كانوا أهل جِدٍّ وتشمير، لا يسألون إلا عما يفيد وينفع ويثمر عملاً ويقرِّب إلى الله تعالى.

- أجابهم الله تعالى عن هذه الأسئلة ولم يَتْركها، وهذه شهادة عظيمة وتشريف جليل، فإن الجاهل والمتعنت حقُّه الإعراض ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[الأعراف:١٩٩]، وأما طالب العلم الصادق فحقه الإجابة

والإفادة ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ﴾[عبس:٨-١١].

- تأمل في هذه السؤالات فهي من البشر وهم الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، والمولى الخالق سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أجاب عنها، وأمر نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ بإبلاغ السائلين إجاباته، وهذا ثناء لا يحصر وشرف عظيم لهم رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ.

- كم للصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ من فضل على الأمة حين سألوا هذه الأسئلة فانتفعت الأمة بمعرفة حكم الله تعالى فيها، وصارت قرآنـًا يؤجَر مَن تلاه.



خامساً: عناية المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بتزكية الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وتوجيههم والعفو عنهم



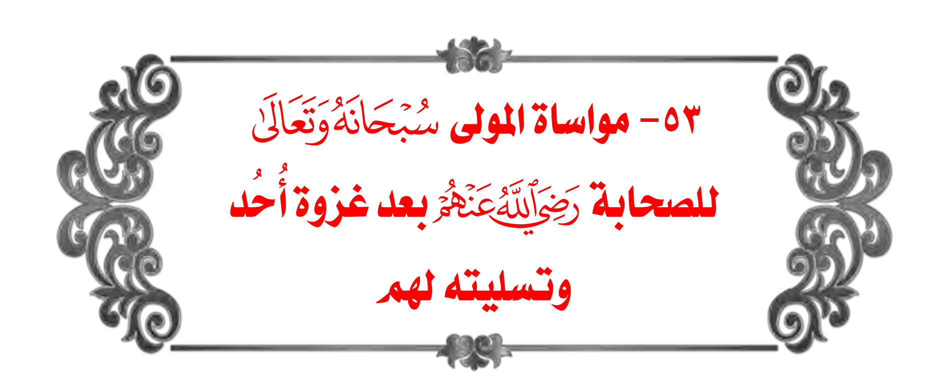


تمهيـد

عندما يقرأ المسلم في القرآن خطاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للناس يدرك الفرق الواضح بين خطاب الله جَلَّ وَعَلَا لمن يحب ويرضى، وبين خطابه لمن يكره ويبغض، ولا يلتبس الأمر إلا على من لا يفقه اللسان العربي ومعاني الكلام.

فمثلا حين نجد أن هناك فئة من الناس وقعوا في خطأ كبير، ثم نجد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعفو عنهم ويتجاوز، ويوفقهم للتوبة ويتوب عليهم، وإذا عاتبهم فعتابه لهم يكون لطيفا، بل ويواسيهم في مصيبتهم مع أنهم كانوا أحد أسبابها، ويبشرهم بالخير في الدنيا والآخرة، وأكثر من هذا أنه يعتني بتوجيههم ونصحهم وإرشادهم، ويأمر نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بالاعتناء بتزكيتهم، عندما نجد هذا كله هل يمكن أن نفهم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يكره هؤلاء القوم أو أنهم من أعدائه؟!

اقرأ الآيات والمواقف الآتية، وتأمل فيها وستجد الأمر واضحا كالشمس في رائعة النهار.



٥٣- مواساة المولى سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ للصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ بعد غزوة أُحُد وتسليته لهم

الآيات ١٣٩-١٤١ من سورة آل عمران

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال تعالى مُسلِّيًا للمؤمنين: ﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾ أي: لا تَضعُفوا بسبب ما جرى، ﴿وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي: العاقبة والنُّصرة لكم أيها المؤمنون.

﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾، أي: إن كنتم قد

أصابتكم جراحٌ وقُتل منكم طائفةٌ، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك مِن قتلٍ وجراح.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: نُديل[1] عليكم الأعداء تارة، وإن كانت العاقبة لكم، لِما لنا في ذلك من الحكمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: [في مثل هذا لِنَرى من يَصبر على مُناجزة الأعداء].

﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ يعني: يُقْتَلُون في سبيله، ويَبْذُلون مُهَجَهُم في مرضاته. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يُكفّر عنهم من ذنوبهم، إن كان لهم ذنوب وإلا رُفِعَ لهم في درجاتهم بحسب ما أُصِيبوا به.

وقوله: ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: فإنهم إذا ظَفِرُوا بَغَوا وبَطِروا فيكون ذلك سَبَبَ دمارهم وهلاكهم ومَحْقِهم وفنائهم"[2].

وقال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ثم نهى عَزَّوَجَلَّ المؤمنين عن الوهن لما أصابهم بأُحُد، والحزن على من فُقِد، وعلى مذمّة الهزيمة، وآنسهم بأنهم الأعلون

---

(١) أي: نجعل الغلبة لهم عليكم. لسان العرب (١١/ ٢٥٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٦-١٢٧).

أصحاب العاقبة"[1].



أوجه الثناء:

- ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ تسلية من الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنين، وجبر لخواطرهم، ورفع لمعنوياتهم، فلا يضعفوا لما أصابهم، وهذا يدل على لطف الله عَزَّوَجَلَّ بهم ومحبته لهم.

- ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ علو مشروط بالإيمان، لا بالقرابة ولا بالأنساب، وقد حقق الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ ذلك الإيمان واليقين؛ فعلامَ يحزنون؟ ولماذا يِهنون أو يضعفون؛ ما داموا هم الأعلى بإيمانهم، والعاقبة لهم بإذن ربهم؟! وقد أتمّ الله لهم النعمة ومكَّن لهم.

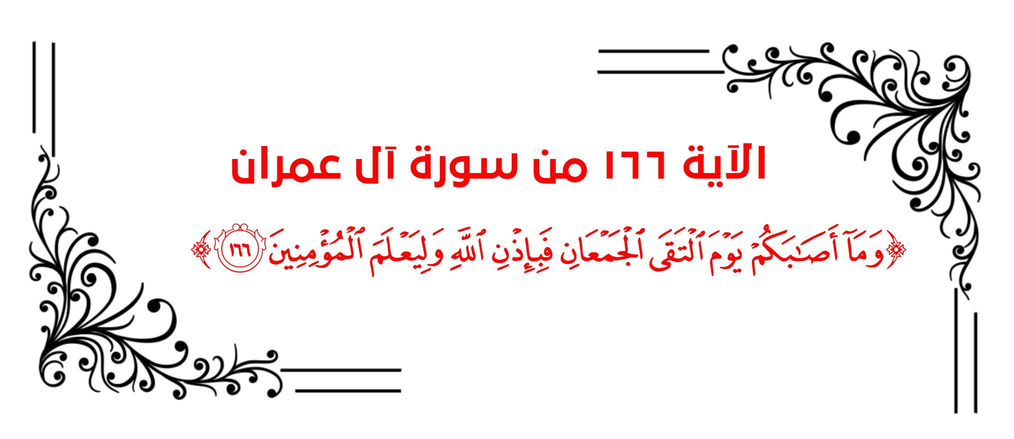
- ابتلاء الصحابة الكرام في غزوة أحد بقتل بعضهم وجرح آخرين، كلّ ذلك ليكفّر عنهم ذنوبهم ويتخذ منهم شهداء ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ﴾ وهذا فضل عظيم أن يكون الابتلاء لأجل رفعة الدرجات، وهو شأن المؤمنين.

- كرامة الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ على الله تعالى أن يتخذ منهم شهداء ويصطفيهم بهذه المنزلة العظيمة.

---

(١) تفسير ابن عطية (١/ ٥١٢).

- وَصْف الإيمان لمن كان مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في غزوة أحد ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ سواء كان ممن خالف أمره من الرماة، أو ممن رجع إلى المدينة، أو ممن وضع سيفه ولم يقاتل، أو ممن قاتل وصبر مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.



الآية ١٦٦ من سورة آل عمران

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لآخرين كان بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقدره، وله الحكمة في ذلك"(١).

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الذين جاهدوا مع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ من المنافقين، وهذا علم ظهور وبيان.

والمراد من الآية تسلية للمؤمنين مما أصابهم، والتسلية إنما تحصل إذا قيل إن ذلك وقع بقضاء الله تعالى وقدره، فحينئذ يرضون بما قضى الله(٢).



أوجه الثناء:

- ابتلاء الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ بفرار بعضهم وقتل بعض آخر وجرح آخرين،

---

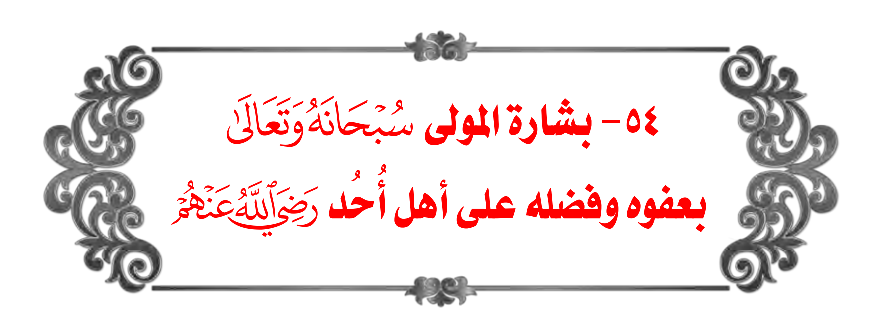
(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٥٩).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (٩/ ٤٢٢).

أخبرهم الله عَزَّوَجَلَّ أن ذلك كان بقضاء الله وقدره، وقد أراد ذلك وقدَّره لحكمة بالغة، وذلك حتى تطمئن قلوبهم، وتسكن نفوسهم، ويخف الألم والحزن الذي في صدورهم.

- أن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وصفهم بالإيمان، وهم من كان مع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ يوم أُحُد، بخلاف من تخلفوا ووصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾[آل عمران:١٦٧-١٦٨].

- عظيم مكانتهم رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ عند ربهم تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ظاهرة في إنزاله هذه الآية وما بعدها، ليسليهم ويمحو من قلوبهم آثار ما لحق بهم من مصيبة.



٥٤- بشارة المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعفوه وفضله على أهل أُحُد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

الآية ١٥٢ من سورة آل عمران

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: [وَعَدَهم الله النصر]. وذلك كان يوم أحُد، فلما واجهوا عدوهم كان الظفَر والنصر أول النهار للإسلام، فلما حَصَل ما حَصَل - مِن عصيان الرُّماة وفشَل بعض المقاتلة - تأخّر الوعد

الذي كان مشروطًا بالثبات والطاعة؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ ﴾ أي: أول النهار.

﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم ﴾ أي: تقتلونهم ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بتسليطه إياكم عليهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: [الفشل: الجُبن].

﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم ﴾ كما وقع للرماة ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾ وهو الظفر بهم ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا ﴾ وهم الذين رغبوا في المغنم حين رأوا الهزيمة.

﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾: ثم أدالهم عليكم ليختبركم ويمتحنكم ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ أي: غفر لكم ذلك الصَّنِيع، وذلك - والله أعلم - لصحة إيمانهم وصدقهم.

عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: [لو حلفتُ يومئذ رجوت أن أبَر: أنه ليس أحد منا يريد الدنيا، حتى أنزل الله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾]، وعن البراء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: لقينا المشركين يومئذ، وأجْلَس النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓالِهِوَسَلَّمَ جَيْشًا من الرماة، وأَمَّر عليهم عبد الله بن جبير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا»، فلما لقيناهم هربوا، حتى رأينا النساء

يشتددن في الجبل، رفعن عن سوقهن، وقد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة، فقال عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عهد إلي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ألا تبرحوا. فأبوا، فلما أبوا صرف وجوههم، فأُصِيب سبعون قتيلًا، فأشرف أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: «لا تُجِيبُوهُ»، فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: «لا تُجِيبُوهُ». فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قد قُتِلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نفسه فقال: كذبت يا عدو الله، قد أبقى الله عَزَّ وَجَلَّ لك ما يحزنك. فقال أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اعل هبل! فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أجيبوه». قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل»، فقال أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لنا العزى ولا عزى لكم! فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أجيبوه». قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم»، قال أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يومٌ بيوم بدر، والحرب سجال(١)، وتجدون مثلةً لم آمر بها ولم تسؤني(٢).

---

(١) سِجال جمع سَجْل: الدلو الملأى ماء، والمعنى: مرة لنا ومرة علينا، وأصله أن المستقين بالسجل يكون لكل واحد منهم دور. النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٣٤٤).

(٢) البخاري (٥/ ٩٤ رقم ٤٠٤٣).

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن عمه - أنس بن النضر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - غاب عن بدر، فقال: غبت عن أول قتال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، لئن أشهدني الله عَزَّ وَجَلَّ مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ليرين الله عَزَّ وَجَلَّ ما أجد، فلقي يوم أحد، فهزم الناس، فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما جاء به المشركون، فتقدم بسيفه فلقي سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: أين يا سعد؟ إني أجد ريح الجنة دون أحد. فمضى فقتل، فما عرف حتى عرفته أخته ببنانه بشامة، وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسَهْم"[(١)][(٢)].

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهذا عَوْد إلى التسلية على ما أصابهم، وإظهار لاستمرار عناية الله تعالى بالمؤمنين، ورمز إلى الثقة بوَعْدهم بإلقاء الرعب في قلوب المشركين، وتبيين لسبب هزيمة المسلمين؛ تطميناً لهم بذكر نظيره ومماثله السابق، فإن لذلك موقعاً عظيماً في الكلام، وليتوسَّل بذلك إلى إلقاء تبعة الهزيمة عليهم، وأن الله عَزَّ وَجَلَّ لم يُخْلفهم وعده، ولكن سوء صنيعهم أوقعهم في المصيبة"[(٣)].

---

(١) البخاري (٥/ ٩٥ رقم ٤٠٤٨)، مسلم (٣/ ١٥١٢ رقم ١٩٠٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٣٣-١٣٦).

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ١٢٦-١٢٧).



أوجه الثناء:

- وَعَد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الصحابةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ النصر لإيمانهم وإخلاصهم؛ فلما وقع البعض في مخالفة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ انقلب النصر إلى هزيمة تمحيصًا وتأديبًا من الله عَزَّ وَجَلَّ لهم ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾.

- عفو الله تعالى عنهم، عفوًا لا يُبقي لعاذل مقالًا، ولا لمتقوّل مجالًا؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾، مؤكدًا بلام التوكيد و(قد) الدالة على التحقيق؛ ولهذا لما عاب بعض المرجفين على أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فراره يوم أحد؛ قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: [أما فراره يوم أحدٍ، فأشهد أن الله عَزَّ وَجَلَّ عفا عنه وغفر له][1]، وقد فصَّل الله جَلَّ جَلَالُهُ في ذكر الأخطاء حتى إذا جاء العفو لا يقال بأنه خاص لبعض الأخطاء، بل هو عام لهم على كل ما صدر منهم.

- الشهادة الضمنية لهم بالإيمان، ففَضْل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليهم وعفوه عنهم إنما كان لإيمانهم وصِدْق اتّباعهم للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وليس لأي اعتبار آخر؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١) البخاري (٥/ ١٥ رقم ٣٦٩٨).



٥٥- عفو المولى سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن كل من فرَّ يوم أُحُد من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ

الآية ١٥٥ من سورة آل عمران

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٥٥ ﴾

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ ﴾ ولَّوا عن المشركين، من أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يوم أحد وانهزموا عنهم.

﴿إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ أي: إنما دعاهم إلى الزّلة الشيطانُ[1]، وهذا خطاب للمؤمنين خاصةً الذين انهزموا يوم أحد[2].

(١) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٢٦).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (٩/ ٣٩٨).

﴿بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾ أي: ببعض ذنوبهم السالفة، كما قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنةِ الحسنةَ بعدها، وإن من جَزَاء السيئةِ السيئةَ بعدها.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ﴾ أي: عَمّا كان منهم من الفرار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ أي: يغفر الذنب ويحلُم عن خلقه، ويتجاوز عنهم(١).

وفي سبب فرارهم يومئذ قولان:

أحدهما: أنهم سمعوا أن النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قد قتل، فترخَّصوا في الفرار، قاله ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا في آخرين.

والثاني: أن الشيطان أذكرهم خطاياهم، فكرهوا لقاء الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ إلا على حال يرضونها، قاله الزجّاج(٢).

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والله تعالى لم يبيِّن أن الشيطان في أي شيء استزلهم، وذلك لأن مع العفو لا حاجة إلى تعيين المعصية، لكن العلماء جوَّزوا أن يكون المراد بذلك تحوّلهم عن ذلك الموضع، بأن يكون رغبتهم في الغنيمة، وأن يكون فشلهم في الجهاد وعُدُولهم عن الإخلاص، وأي ذلك كان، فقد صحّ أن الله تعالى عفا عنهم.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٦).

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (١/ ٣٣٨).

واعلم أن هذه الآية دلت على أن تلك الزلّة ما كانت بسبب الكفر، فإن العفو عن الكفر لا يجوز؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[النساء:٤٨] فالكافر لا بد أن يتوب ويقلع من الكفر وسببه.

ثم قال تعالى: ﴿غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي: غفور لمن تاب وأناب، حليم لا يَعجَل بالعقوبة"(١).

أوجه الثناء:

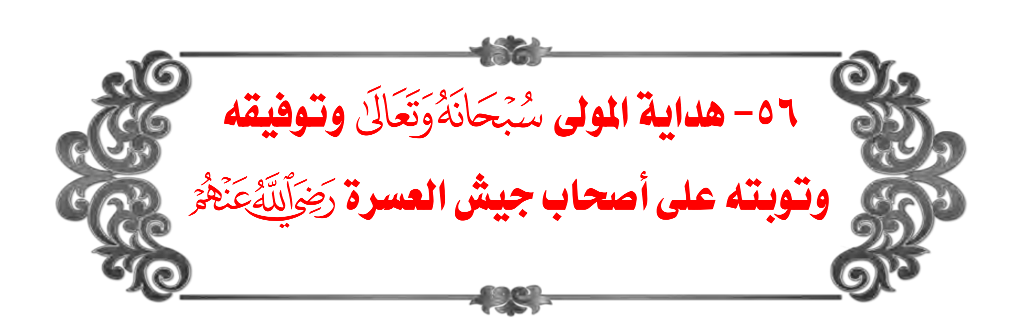
- هذا العتاب من الله تعالى لبعض الصحابة الذين فرّوا يوم أُحُد بتسلُّط الشيطان عليهم جراء تقصير أو ذنوب سابقة، عتاب يحمل في طياته الحث على الاستزادة من الطاعات، ومجانبة المعاصي؛ حتى لا تكون سببًا في إزلال الشيطان إياهم، وذلك دليل على حب الله تعالى لهم؛ حين يرشدهم إلى ما ينفعهم ويحذرهم مما يضرهم.

- أتبع العتاب الإلهي بعفو مؤكد بلام التوكيد، و(قد) التحقيقية؛ ﴿وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.. عفو لا يدع لعاذل مقالًا، ولا لمتقولٍ مجالًا.

(١) تفسير الرازي (٩/ ٣٩٨-٣٩٩).

- ختم الله عَزَّوَجَلَّ الآية باسمي الغفور والحليم؛ لكي يبين أن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أولى من يُغفر له ويُحلم عنه لسابقتهم ونصرتهم.





٥٦- هداية المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتوفيقه وتوبته على أصحاب جيش العسرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ

الآية ١١٧ من سورة التوبة

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مُجدِبة وحَرٍّ شديد، وعُسْر من الزاد والماء[(١)].

وبوب البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه في كتاب المغازي: باب غزوة تبوك

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٢٨).

وهي غزوة العسرة، ثم سرد الأحاديث الدالة والمفصلة لذلك.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال الزجاج: هم الذين اتبعوه في غزوة تبوك، والمراد بساعة العسرة: وقت العسرة، لأن الساعة تقع على كل الزمان، وكان في ذلك الوقت حرٌّ شديدٌ، والقوم في ضيقة شديدة، كان الجمل بين جماعة يعتقبون عليه، وكانوا في فقر، فربما اقتسم التمرةَ اثنان، وربما مصَّ التمرةَ الجماعة ليشربوا عليها الماء، وربما نحروا الإبل فشربوا من ماء كروشها من الحر.

وقيل لعمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: حدثنا عن ساعة العسرة فقال: «خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلًا أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستتقطع، حتى إن الرجل ليذهب يلتمس الماء، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده. فقال أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: يا رسول الله! إنّ الله تعالى قد عوَّدك في الدعاء خيرًا، فادع لنا. قال: «تحب ذلك؟» قال: نعم. فرفع يديه، فلم يرجعهما حتى قالت السماء، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر، فلم نجدها جاوزت العسكر» "[1].

---

(١) زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٣٠٧).

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أما عسرة الظهر: فقال الحسن: كان العشرة من المسلمين يخرجون على بعير يعتقبونه بينهم، وأما عسرة الزاد، فربما مص التمرة الواحدة جماعة يتناوبونها حتى لا يبقى من التمر إلا النواة، وكان معهم شيء من شعير مسوس، فكان أحدهم إذا وضع اللقمة في فيه أخذ أنفه من نتن اللقمة. وأما عسرة الماء: فقال عمر: خرجنا في قيظ شديد وأصابنا فيه عطش شديد، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه ويشربه"(١).

ولعل التعبير بـ(ساعة العسرة) إشارة إلى أن الشدة ولو طالت فهي قصيرة.

قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾، قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: تميل إلى التخلف عنه، وهم ناس من المسلمين هَمُّوا بذلك، ثم لحقوه، قاله أبو صالح عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا.

والثاني: أن القلوب مالت إلى الرجوع للشدة التي لقوها، ولم تَزِغ عن الإيمان، قاله الزجاج.

والثالث: أن القلوب كادت تزيغ تلفًا بالجهد والشدة، ذكره الماوردي.

---

(١) تفسير الرازي (١٦/ ١٦٢).



قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ كرّر ذكر التوبة، لأنه ليس في ابتداء الآية ذكر ذنبهم، فقدّم ذِكر التوبة فضلًا منه، ثم ذكر ذنبهم، ثم أعاد ذكر التّوبة"(١).

وقال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾: "رزقهم جلّ ثناؤه الإنابة والرجوع إلى الثبات على دينه، وإبصار الحق الذي كان قد كاد يلتبس عليهم ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾"(٢).

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "دلت الأخبار على أن هذا السفر كان شاقًا شديدًا على الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وعلى المؤمنين، وهذا يوجب الثناء، فكيف يليق بها قوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾؟

والجواب من وجوه: الأول: أنه صَدَر عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ شيء من باب ترك الأفضل، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[التوبة:٤٣] وأيضًا لما اشتد الزمان في هذه الغزوة على المؤمنين على ما سيجيء شرحها، فربما وقع في قلبهم نوع نفرة عن تلك السفرة، وربما وقع في خاطر بعضهم أنا لسنا نقدر على الفرار.

ولست أقول: عزموا عليه، بل أقول: وساوس كانت تقع في قلوبهم، فالله

---

(١) زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٣٠٧).

(٢) تفسير الطبري (١٤/ ٥٣٩).

تعالى بيّن في آخر هذه السورة أنه بفضله عفا عنها. فقال: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾[التوبة:١١٧].

والوجه الثاني: في الجواب أن الإنسان طول عمره لا ينفكّ عن زلات وهفوات، إما من باب الصغائر، وإما من باب ترك الأفضل.

ثم إن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وسائر المؤمنين لما تحملوا مشاق هذا السفر ومتاعبه، وصبروا على تلك الشدائد والمحن، أخبر الله تعالى أن تحمل تلك الشدائد صار مكفرًا لجميع الزلات التي صدرت عنهم في طول العمر، وصار قائمًا مقام التوبة المقرونة بالإخلاص عن كلها. فلهذا السبب قال تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾[التوبة:١١٧] الآية.

والوجه الثالث: في الجواب: أن الزمان لما اشتد عليهم في ذلك السفر، وكانت الوساوس تقع في قلوبهم، فكلما وقعت وسوسة في قلب واحد منهم تاب إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ منها، وتضرع إلى الله جَلَّ جَلَالُهُ في إزالتها عن قلبه، فلكثرة إقدامهم على التوبة بسبب خطرات تلك الوساوس ببالهم، قال تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ الآية.

والوجه الرابع: لا يبعد أن يكون قد صدر عن أولئك الأقوام أنواع من المعاصي، إلا أنه تعالى تاب عليهم وعفا عنهم لأجل أنهم تحملوا مشاق

ذلك السفر، ثم إنه تعالى ضم ذكر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إلى ذكرهم تنبيهًا على عظم مراتبهم في الدين، وأنهم قد بلغوا إلى الدرجة التي لأجلها ضم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إليهم في قبول التوبة"(١).

والأظهر - والله أعلم – أن التوبة ضَرْبٌ من الهداية، وكما قال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: "رجوع من حالة طاعة إلى أكمل منها"(٢)، فالعبد لا يتوب إلا بتوفيق من الله عَزَّ وَجَلَّ، والله يقول: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، فمن تاب الله عليه فقد هداه، والله عَزَّ وَجَلَّ تاب على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من الكفر وغيره، فهم قوم اختارهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لصحبة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وقرنهم به.

وتكرار ذكر التوبة في أول الآية –مؤكَّدة بلام التوكيد، و(قد) الدالة على التحقيق- قبل ذكر مُتعَلَّقها تفضّلًا وتطييبًا لقلوبهم، ثم أعاد ذكرها في آخر الآية تأكيدًا لمحو سيئاتهم، وتشريفًا لهم، وهذا أحد وجوه فائدة تكرار التوبة في الآية –كما قال الفخر الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ– وأضاف: "الوجه الثاني: أنه إذا قيل: عفا السلطان عن فلان ثم عفا عنه، دلّ ذلك على أن ذلك العفو عفو

(١) تفسير الرازي (١٦/ ١٦١-١٦٢).

(٢) تفسير ابن عطية (٣/ ٩٢).

متأكد بلغ الغاية القصوى في الكمال والقوة، وهذا معنى قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ [يريد: ازداد عنهم رضًا].

والوجه الثالث: أنه قال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ وهذا الترتيب يدل على أن المراد أنه تعالى تاب عليهم من الوساوس التي كانت تقع في قلوبهم في ساعة العسرة، ثم إنه تعالى زاد عليه فقال: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ فهذه الزيادة أفادت حصول وساوس قوية، فلا جرم أتبعها تعالى بذكر التوبة مرةً أخرى لئلا يبقى في خاطر أحدهم شك في كونهم مؤاخذين بتلك الوساوس"(١).

أوجه الثناء:

- المهاجرون والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تبعوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في أشق الأحوال وأصعب الظروف، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وهذا دليل إخلاصهم وصدقهم مع الله تعالى.

- فَضْل من غزا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في جيش العسرة ولا يقل

(١) تفسير الرازي (١٦/ ١٦٣).

عددهم عن ثلاثين ألف صحابي جليل تاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهم أجمعين.

- أكرم الله جَلَّ جَلَالُهُ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بأنهم لم يتأثروا بالمنافقين الذين وصفهم الله بقوله: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾[التوبة:٨١].

- توبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهم، وتكفير سيئاتهم، ورفع درجاتهم، وقد كرّر ذكر توبته عليهم تفضلا وتكريما كما تقدم.

- ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وإن كان الله رؤوفًا رحيمًا بعباده المؤمنين عمومًا؛ إلا أن الرأفة والرحمة هنا خاصة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ومن كان معه من المهاجرين والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

وتأمل في تلك الرأفة والرحمة الخاصة بهم، أي فرحة وسعادة غمرت نفوسهم وهم يسمعون تلك الآية من فم سيد الخلق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يتلوها عليهم؟! ورب العزة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الرؤوف الرحيم يبشرهم من فوق سبع سموات بأنه بهم رؤوف رحيم.

- وفي ذكرهم بمعيّة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وضمّهم جميعًا في توبة

واحدة إشارة إلى عظيم مكانتهم ومنزلتهم عند الله تعالى، وبقية الصحابة لهم تبع، فكل من شارك في الغزوة من غيرهم فهو تابع لهم بإحسان، فالتوبة والفضل والثناء يشملهم جميعًا.



٥٧- رحمة المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالمخلَّفين من الصحابة وفضله عليهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ

الآية ١١٨ من سورة التوبة

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾

هذه الآية نزلت في الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك.

نعم. ثلاثة رجال لم يخرجوا، وصَدَقوا مع رسولهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وطلبوا العفو من خالقهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فتولَّى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمرهم، وحصل لهم التأديب والتزكية الفريدة في مدة زمنية مقاربة لمدة الغزوة.

وهنا مسألة جليلة:

إذا كانت الآيات نزلت في هؤلاء الثلاثة بالذين تخلفوا عن الغزوة، فهل يتصور عاقل أن يعيش منافقون بكنف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ويكونون جلساءه وأصهاره وقادته ولا يُنَزّل فيهم قرآن ويتم استبعادهم عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ؟!

ونَدَعُ كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وهو أحدهم- يحدِّث عن قصتهم حين تخلفوا عن غزوة تبوك، وسبب نزول الآية، قال كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لم أتخلف عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحدًا تخلف عنها، إنما خرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يريد عير قريش، حتى جمع الله عَزَّ وَجَلَّ بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

ولقد شهدت مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ليلة العقبة، حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذْكَرُ في الناس منها، كان من خبري: أني لم أكن قطّ أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط، حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يريد غزوةً إلا ورَّى[(١)]

---

(١) يقال: ورَّى، إذا ستر خبرا وأظهر غيره. المفردات في غريب القرآن (ص:٨٦٦).



بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في حر شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا، ومفازًا وعدوًا كثيرًا، فجلَّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ، يريد: الديوان، قال كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي الله عَزَّ وَجَلَّ، وغزا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال.

وتجهز رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئًا، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئًا، فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصَلوا[(١)] لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئًا، ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئًا، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو[(٢)]، وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله

(١) أي: خرجوا. مختار الصحاح (ص:٢٤٠).

(٢) أي: فات وقته وتقدم. النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٤٣٥).

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ فطفت فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلًا مغموصًا عليه النفاق، أو رجلًا ممن عذر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ من الضعفاء.

ولم يذكرني رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ حتى بلغ تبوك، فقال: وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب؟» فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله! حبسه برداه، ونظره في عطفه، فقال معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: بئس ما قلت، والله يا رسول الله! ما علمنا عليه إلا خيرًا، فسكت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ.

قال كعب بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: فلما بلغني أنه توجَّه قافلًا حضرني همي، وطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدًا؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ قد أظل قادمًا زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبدًا بشيء فيه كذب، فأجمعت صِدْقَه، وأصبح رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ قادمًا.

وكان إذا قدم من سفر، بدأ بالمسجد، فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعةً وثمانين رجلًا، فقبل منهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال: «تعال» فجئت

أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «ما خلفك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟». فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعْطيتُ جدلًا، ولكني -والله- لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله عَزَّوَجَلَّ أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق، تجد علي فيه، إني لأرجو فيه عفو الله عَزَّوَجَلَّ، لا والله، ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى، ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله عَزَّوَجَلَّ فيك».

فقمت، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ لك، فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان، قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، فذكروا لي رجلين صالحين، قد شهدا بدرًا، فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي.

ونهى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من

بين من تخلَّف عنه، فاجتَنَبَنا الناس، وتغيَّروا لنا حتى تنكَّرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً.

فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا، فكنت أشبّ القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرّك شفتيه بردّ السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني.

حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي، فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقلت: يا أبا قتادة! أنشدك بالله! هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار.

قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نبطي من أنباط أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدلُّ على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إلي كتابًا من ملك غسان، فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بِدار هَوَان، ولا

مضيعة، فالْحَقْ بنا نُواسِك، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضًا من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرته بها.

حتى إذا مضت أربعون ليلةً من الخمسين، إذا رسول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يأتيني، فقال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها؟ أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فتكوني عندهم، حتى يقضي الله جَلَّ جَلَالُهُ في هذا الأمر.

قال كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فقالت: يا رسول الله! إن هلال بن أمية شيخ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربك». قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره، ما كان إلى يومه هذا، فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه؟ فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وما يدريني ما يقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب؟

فلبثت بعد ذلك عشر ليال، حتى كملت لنا خمسون ليلةً من حين نهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صبح

خمسين ليلةً، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ، أوفى على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر! قال: فخررت ساجدًا، وعرفت أن قد جاء فرج، وآذن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بتوبة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبْل صاحبي مبشرون، وركض إليَّ رجل فرسًا، وسعى ساع من أسلم، فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت له ثَوْبَي، فكسوته إياهما، ببشراه والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فيتلقاني الناس فوجًا فوجًا، يهنوني بالتوبة، يقولون: لتَهْنِك توبة الله عليك!

قال كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ جالس حوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يهرول حتى صافحني وهناني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة.

قال كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فلما سلمت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قال: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر

بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك»، قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله».

وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إذا سر استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله! إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسول الله، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك». قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، فقلت: يا رسول الله! إن الله عَزَّ وَجَلَّ إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقًا، ما بقيت.

فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إلى يومي هذا كذبًا، وإني لأرجو أن يحفظني الله جَلَّ جَلَالُهُ فيما بقيت، وأنزل الله على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾[التوبة:١١٧] إلى قوله ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة:١١٩] فوالله ما أنعم الله عَزَّ وَجَلَّ علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، أن لا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا -حين أنزل الوحي- شر ما قال لأحد، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ﴾[التوبة:٩٥] إلى قوله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٩٦].

قال كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ أمرنا حتى قضى الله عَزَّوَجَلَّ فيه، فبذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾[التوبة:١١٨]. وليس الذي ذكر الله عَزَّوَجَلَّ مما خلفنا عن الغزو، إنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه»[١].

وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا معطوف على الآية الأولى، والتقدير: لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا، والفائدة في هذا العطف أنا بينا أن من ضم ذكر توبته إلى توبة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ، كان ذلك دليلاً على تعظيمه وإجلاله، وهذا العطف يوجب أن يكون قبول توبة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ وتوبة المهاجرين والأنصار في حكم واحد، وذلك يوجب إعلاء شأنهم

(١) البخاري (٦/ ٣ رقم ٤٤١٨)، مسلم (٤/ ٢١٢٠ رقم ٢٧٦٩).



وكونهم مستحقين لذلك"[1].

أوجه الثناء:

- فَضْلُ الثلاثة: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم، إذ قَبِل الله عَزَّ وَجَلَّ توبتهم، وعَطَفها على توبة النبي والمهاجرين والأنصار.

- مَحَّص الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى هؤلاء الثلاثة بهجر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ والصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لهم خمسين ليلة، وتَرْك أزواجهم لهم مزيدًا من الابتلاء لتظهر توبتهم وتمحى ذنوبهم.

- نزول الآيات في ثلاثة رجال لم يشاركوا في الخروج للجهاد يدل على فضل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأنه لم يتخلف منهم إلا معذور.

- تأمل في حال هؤلاء الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تسويفًا وليس استعلاءً وترفعًا عن الطاعة، كيف كشف الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أمرهم لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وبيَّن حالهم حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم، وكانت العاقبة أن جعل

---

(١) تفسير الرازي (١٦/ ١٦٤).

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قبول توبتهم معطوفة على توبة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ومن معه في الغزوة، فإذا كشف الله عَزَّوَجَلَّ حال هؤلاء الثلاثة فهل يتصور أن يكون جلساء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وخلصاءه وأصهاره ووزراءه وقادة جيشه يسرحون ويمرحون وهم منافقون دون أن يكشف الله تعالى حالهم لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، حاشا وكلا!



الآيتان ٢٥-٢٦ من سورة التوبة

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢٦﴾

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وحُنَين اسم وادٍ بين مكة والطائف قرب ذي المجاز، كانت فيه وقعة عظيمة عقب فتح مكة بين المسلمين مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وكانوا اثني عشر ألفًا، وبين هوازن وثقيف وألفافهما[(١)]،

---

(١) أي: من انضم إليهم. المفردات في غريب القرآن (ص:٧٤٣).

إذ نهضوا لقتال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حميةً وغضباً لهزيمة قريش ولفتح مكة، وكان على هوازن مالك بن عوف، أخو بني نصر، وعلى ثقيف عبد ياليل بن عمرو الثقفي، وكانوا في عدد كثير وساروا إلى مكة فخرج إليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حتى اجتمعوا بحنين فقال المسلمون: لن نغلب اليوم من قِلَّة، ووثقوا بالنصر لقوتهم، فحصلت لهم هزيمة عند أول اللقاء كانت عتاباً إلهياً على نسيانهم التوكل على الله عَزَّ وَجَلَّ في النصر، واعتمادهم على كثرتهم؛ ولذلك روي أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لما سمع قول بعض المسلمين (لن نغلب من قلة) ساءه ذلك، فإنهم لما هبطوا وادي حنين كان الأعداء قد كمنوا لهم في شعابه وأَحْنائِه[(١)]، فما راع المسلمين وهم منحدرون في الوادي إلا كتائب العدو وقد شدَّت عليهم، وقيل: إن المسلمين حملوا على العدو فانهزم العدو فلحقوهم يغنمون منهم، وكانت هوازن قوماً رماة فأكثبوا المسلمين بالسهام فأدبر المسلمون راجعين لا يلوي أحد على أحد، وتفرقوا في الوادي، وتطاول عليهم المشركون، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ثابت في الجهة اليمنى من الوادي ومعه عشرة من المهاجرين والأنصار، فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ العباس عمه

---

(١) أحناء جمع حَنو، وهو كل شيء فيه اعوجاج مثل: منعرج الوادي. لسان العرب (١٤/ ٢٠٤).

أن يصرخ في الناس: يا أصحاب الشجرة- أو السمرة- يعني أهل بيعة الرضوان- يا معشر المهاجرين- يا أصحاب سورة البقرة- يعني الأنصار- هلموا إلي، فاجتمع إليه مائة، وقاتلوا هوازن مع من بقي مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ واجتلد الناس، وتراجع بقية المنهزمين واشتد القتال، وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ «الآن حمي الوطيس» [رواه مسلم] فكانت الدائرة على المشركين وهُزِموا شرَّ هزيمة وغنمت أموالهم وسبيت نساؤهم"[١].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وثبت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وثبت معه أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومن أهل بيته علي والعباس وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وابنه جعفر، وأسامة بن زيد، وأيمن بن عبيد- وهو أيمن بن أم أيمن قتل يومئذ بحنين- وربيعة ابن الحارث، والفضل بن عباس، وقيل في موضع جعفر بن أبي سفيان: قثم بن العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فهؤلاء عشرة رجال، وثبتت أم سليم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في جملة من ثبت محتزمة ممسكة بعيراً لأبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفي يدها خنجر، ولم ينهزم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ولا أحد من هؤلاء"[٢].

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ١٥٦).

(٢) تفسير القرطبي (٨/ ٩٧-٩٨).

أوجه الثناء:

- تأييد الله تعالى للصحابة الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، حيث نصرهم في معارك وغزوات كثيرة، حتى غزوة حنين التي وقع لهم فيها هنّة[1]، ومع ذلك نصرهم على عدوهم ولم يخذلهم، فكان هذا علامة محبته وولايته لهم.

- قدَّم ذكر نعمته وفضله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليهم قبل أن يعاتبهم فقال: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾، ثم عاتبهم، وهذا من اللطف بهم، حتى لا يظن أحد أن هذا العتاب يتضمن إسقاطاً لمكانتهم عند الله تعالى، والتي نصرهم من قبل لأجلها.

- فضل من ثبت مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ومنهم أهل بيعة الرضوان الذين أضافوا فضيلة أخرى لفضيلتهم السابقة بالبيعة تحت الشجرة.

- في هذا العتاب دليل جليل على محبة الله عَزَّ وَجَلَّ وإرادته الكمال لهم، فإن الإعجاب بالكثرة أمر لا يكاد يسلم منه أحد، ومع ذلك لم يَدَعْ الله تعالى هذا الأمر يمر دون تنبيه، فهم القدوة التي ينبغي أن تكون على أعلى

(١) أي: شيء مكروه. مشارق الأنوار على صحاح الآثار (٢/ ٢٧١).

درجات الكمال والمثالية.

- في هذا العتاب أيضاً شهادة ضمنية لهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بصلاح نيتهم وإرادتهم وجه الله تعالى، وأنهم ما خرجوا بطراً ولا كبراً ولا رئاء الناس، وإنما خرجوا لله تعالى، إذ لو كانت نياتهم مدخولة لكانت أولى وأحق بالعتاب والتوبيخ من مجرد العتاب على الإعجاب بالكثرة، فأين هذا من ذاك؟!



٥٩- توجيه المولى سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ للصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ على العفو والصفح

الآية ٢٢ من سورة النور

﴿ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٢ ﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿ وَلَا يَأۡتَلِ ﴾ من الأَلِيَّة، وهي: الحَلِفِ، أي: لا يَحلِف ﴿أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ﴾ أي: الطَّوْل والصَّدَقَة والإحسان ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ أي: الجِـــدَة؛ ﴿أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تَحلِفُوا ألَّا تَصِلُوا قراباتكم المساكين والمهاجرين.

وهذه في غاية التَّرَفُّق والعَطْف على صِلَة الأرحام؛ ولهذا قال تعالى:

﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْ﴾ أي: عمَّا تقدَّم منهم من الإساءة والأذى، وهذا من حِلْمِه تعالى وكَرَمه ولُطْفِه بخَلقِه مع ظلمهم لأنفسهم.

وهذه الآية نزلت في الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، حين حلف ألا ينفع مسطح بن أثاثة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ بنافعةٍ أبدًا بعدما قال في عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا ما قال، فلما أنزل الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ براءة أم المؤمنين عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأقيم الحد على من أقيم عليه - شرع تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يعطف الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ على قريبه ونسيبه، وهو مسطح بن أثاثة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، فإنه كان ابن خالة الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، وكان مسكينًا لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد ولق ولقة[1] تاب الله عَزَّوَجَلَّ عليه منها، وضرب الحد عليها.

وكان الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ معروفًا بالمعروف، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب، فلما نزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ الآية -أي: فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر ذنب من أذنب إليك

(١) الولق: الإسراع في الشيء، والمعنى: أنه أسرع بالخوض في حديث الإفك، وعلى هذا جاءت قراءة: (تَلِقُونه بألسنتكم). مقاييس اللغة (٦/ ١٤٥).

يغفر الله عَزَّوَجَلَّ لك، وكما تصفح يصفح عنك، فعند ذلك قال الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بلى، والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا. ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا، في مقابلة ما كان قال: والله لا أنفعه بنافعة أبدًا، فلهذا كان الصديق هو الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن ابنته"(١)، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[الشورى:٤٠].

قوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور:٢٢]، قال عبد الله بن المبارك: "هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى"(٢).

ووجهه أن فيها أمرًا بالإحسان والعطف والصدقة على من قدح وقذف، مع أنها كبيرة من كبائر الذنوب، فليس العطاء لمجرد الرضا عن المعطى، وإنما ابتغاء مغفرة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ورضوانه، وما أجدر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمغفرة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ورضوانه.

وأهل السنة يفرقون بين من تثبت له العصمة من الخطأ، وبين من يمكن أن يقع منه اقتراف الذنوب والكبائر، فمع منزلة الصديق والصحابة وأهل بدر ومن بعدهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم ، لم يقل أهل السنة بعصمتهم، بل وقع

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣١).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (١٢/ ٢٠٧).

منهم أخطاء وذنوب.

قال الشعراوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن فعل مسطح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: "وهذا نموذج لمن ينكر الجميل ولا يُقدِّر صنائع المعروف، وهذا الفعل يُزهِّد الناس في الخير، ويصرفهم عن عمل المعروف، والله تعالى يريد أنْ يُصحِّح لنا هذه المسألة، فهذه نظرة لا تتفق وطبيعةَ الإيمان؛ لأن الذي يعصي الله عَزَّوَجَلَّ فيك لا تكافئه إلا بأنْ تطيع الله عَزَّوَجَلَّ فيه.

وحين تترك مَنْ أساء إليك لعقاب الله عَزَّوَجَلَّ وتعفُو عنه أنت، فإنما تركتَه للعقاب الأقوى؛ لأنك إنْ عاقبته عاقبته بقدرتك وطاقتك، وإنْ تركتَ عقابه لله عَزَّوَجَلَّ عاقبه بقدْر طاقته تعالى وقدرته؛ ومن هنا يجب عليك أن تُسَرَّ بمَنْ جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في جانبك، وتُحسن إليه، لا أن تردّ له الإساءة بمثلها.

إذن: نزلت هذه الآية في مسطح بن أثاثة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حين أقسم أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَلاَّ ينفق عليه وعلى أهله، وأنْ يمنع عنه عطاءه وبِرّه، نزلت لتصحح للصِّديق هذه النظرة وتُوجِّه انتباهه إلى جانب الخير الباقي عند الله عَزَّوَجَلَّ لا عند الناس"(١).

وليس هذا في شأن الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فحسب، وإنما يشرع الإحسان من

---

(١) تفسير الشعراوي (١٦/ ١٠٢٢٨).

جميع الأمة على من يستحقه بغض النظر عما قد يبدر من المعطى، بل إن باب التوبة مفتوح لمن تاب وأناب، والله غفور رحيم.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الآية تتناول الأمة إلى يوم القيامة بألا يغتاظ ذو فضل وسعة فيحلِف ألا ينفع من هذه صفته غابر الدهر"(١).

أوجه الثناء:

- فضل أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ خصوصًا، فإن صدقة أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ على مسطح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كانت إحسانًا لا لزامًا، ومع ذلك أرشده الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلى العفو والصفح وإجراء الصدقة لعظم الثواب فيها ورجاء نيل المغفرة والرحمة منه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

- فضل مسطح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فلو كان من غير المؤمنين لما ندب الله تعالى إلى إعادة الإنفاق عليه.

- فضل المهاجرين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فوَصْفُهم بالمهاجرين في سبيل الله يتضمن صحة العمل، وصحة القصد، وفضل الهجرة.

(١) تفسير القرطبي (١٢/ ٢٠٧).



٦٠- عناية المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بطهارة قلوب الصحابة الكرام وأمهات المؤمنين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ

الآية ٥٣ من سورة الأحزاب

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذه آية الحجاب، وفيها أحكام وآداب شرعية،

وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه أنه قال: «وافقت ربي في ثلاث، فقلت: يا رسول الله! لو اتخذت من مقام إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ مصلى؟ فأنزل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[البقرة:١٢٥] وقلت: يا رسول الله! إن نساءك يدخل عليهن البَرُّ والفاجر، فلو حجبتهن؟ فأنزل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ آية الحجاب. وقلت لأزواج النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ لما تمالآ عليه في الغيرة: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾[التحريم:٥] فنزلت كذلك».

وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ بزينب بنت جحش رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، التي تولى الله تعالى تزويجها بنفسه، عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «لما تزوج رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ زينب بنت جحش رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام من قام، وقعد ثلاثة نفر. فجاء النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقت، فجئت فأخبرت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية»[متفق عليه].

فقوله: ﴿لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل

رسول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِوَسَلَّمَ بغير إذن، كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام، حتى غار الله تعالى لهذه الأمة، فأمرهم بذلك، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة؛ ولهذا قال رسول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِوَسَلَّمَ: «إياكم والدخول على النساء» [متفق عليه].

ثم استثنى من ذلك فقال: ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ قال مجاهد وقتادة وغيرهما: أي غير متحيّنين نُضْجه واستواءه، أي: لا ترقبوا الطعام حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول، فإن هذا يكرهه الله جَلَّجَلَالُهُ ويذمه.

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ﴾ قيل: المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به، لكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِوَسَلَّمَ، حتى أنزل الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ عليه النهي عن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ أي: ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ﴾ أي: وكما نهيتكم عن الدخول عليهن، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب.

﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي: هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب"[1].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين! أي: غير لائق ولا مستحسن منكم، بل هو أقبح شيء.

﴿أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي: أذية قولية أو فعلية، بجميع ما يتعلق به.

﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ هذا من جملة ما يؤذيه، فإنه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، له مقام التعظيم، والرفعة والإكرام، وتَزَوُّج زوجاته بعده مُخِلّ بهذا المقام.

وأيضًا، فإنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، والزوجية باقية بعد موته، فلذلك لا يحل نكاح زوجاته بعده لأحد من أمته.

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ وقد امتثلت هذه الأمة هذا الأمر، واجتنبت ما نهى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه منه، ولله الحمد والشكر"[2].

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٥٠-٤٥٥) مختصرا.

(٢) تفسير السعدي (ص:٦٧٠-٦٧١).



أوجه الثناء:

- الشهادة للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالإيمان وخطابهم بوصفه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾.

- مكرمة دخول بيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ والأكل من طعامه لا ينالها أي أحد، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «ولا يأكل طعامك إلا تقي»[1].

- كرامة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، حيث كان يستحي أن يواجههم بما يحرجهم، ويتحمّل المشقة حرصاً على مشاعرهم، وهذا ما يُشْعِر به قوله تعالى: ﴿فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ﴾.

- طهارة قلوب الصحابة الكرام وقلوب أزواج نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فهي قلوب قد تطهرت من أدران الشرك والكفر والأهواء، وقطعت في طريق الطهارة شوطًا كبيراً حتى لم يبق إلا أن تحفظ نفسها من صغائر الملوثات، كالنظر الذي قد يثير النفس ويحركها، فأين هذا من قلوب المنافقين التي لا زالت تتخبط في أدناس الشك والريب ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة:٤٥]!

---

(١) أبوداود (٤/ ٢٥٩ رقم ٤٨٣٢) والترمذي (٤/ ١٧٨ رقم ٢٣٩٥) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن إنما نعرفه من هذا الوجه".

- عنايـة الله تعـالى بصـلاح وطهـارة قلـوبهم ﴿ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾ دليل جلي على محبته لهم ومكانتهم عنده رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

- تعظـيم الصـحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لحـقِّ النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وحرمتـه، فبمجرد أن نزلت الآيات امتثلوها، وحفظوا حقَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وحرمته حيـاً وميتـاً ولـم ينَلْه منهم أذى بقول ولا فعل، ولـم يتعرض أحد منهم لأزواجه من بعده أبداً، فـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.



٦١- توجيه المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بأهمية تزكية أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ

الآيات ١-١٠ من سورة عبس

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ١٠﴾

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وسبب نزول هذه الآيات الكريمات: أنه جاء رجل من المؤمنين أعمى يسأل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ويتعلم منه، وجاءه رجل من الأغنياء، وكان حريصاً على هداية الخلق، فمال وأصغى إلى الغني، وصدَّ عن الأعمى الفقير، رجاء لهداية ذلك الغني، وطمعاً في تزكيته، فعاتبه الله عَزَّ وَجَلَّ بهذا العتاب اللطيف، فقال: ﴿عَبَسَ﴾ أي: في وجهه

﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في بدنه، لأجل مجيء الأعمى له، ثم ذكر الفائدة في الإقبال عليه، فقال: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ﴾ أي: الأعمى ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ أي: يتطهر عن الأخلاق الرذيلة، ويتصف بالأخلاق الجميلة؟

﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾ أي: يتذكر ما ينفعه، فيعمل بتلك الذكرى.

وهذه فائدة كبيرة هي المقصودة من بعثة الرسل، ووعظ الوعاظ، وتذكير المذكِّرين، فإقبالك على من جاء بنفسه مفتقراً لذلك منك هو الأليق، الواجب، وأما تصدِّيك وتعرُّضك للغني المستغني الذي لا يسأل ولا يستفتي لعدم رغبته في الخير، مع تركك من هو أهم منه، فإنه لا ينبغي لك، فإنه ليس عليك أن لا يزّكى، فلو لم يتزَكّ، فلستَ بمحاسَب على ما عمله من الشر.

فدل هذا على القاعدة المشهورة، أنه: (لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة) وأنه ينبغي الإقبال على طالب العلم، المفتقر إليه، الحريص عليه أزيد من غيره"[(١)].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٩١٠).




أوجه الثناء:

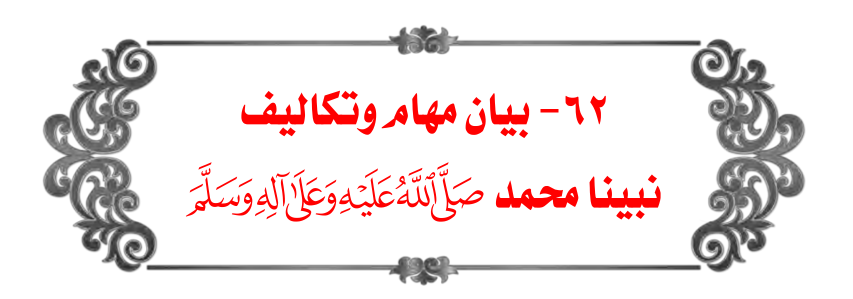
- عتاب الله تعالى لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ على انشغاله عن ابن مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وترك الاحتفاء به وجوابه، وهذا فيه فضيلة ابن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكرامته على الله عَزَّ وَجَلَّ حتى عاتب بسببه رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

- وصف الله تعالى ابن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأوصاف عظيمة من أنه جاء يسعى حثيثًا ليدرك العلم ويسأل عنه مع كونه أعمى، وهو يخشى الله تعالى، وأخبر أنه ممن يتزكى، و(لعل) من الله تعالى للتحقيق.

- بيان أن هذا الصحابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكل من آمن بك وطلب العلم والتوجيه والتذكير فعليك القيام به وبذل جهدك، فهؤلاء هم الذين سيحملون الدين، فلا بد من إعدادهم وتزكيتهم والعناية بهم لكي يتحملوا الأمانة في التلقي ويبلِّغوها لمن بعدهم.

- كما لا يخفى فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والآيات وإن كانت نزلت في ابن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إلا أنه شامل لجميع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهو توجيه من المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بأهمية تزكية أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولذا اجتهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في تزكية أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، وخاصة السابقين الأولين من المهاجرين

والأنصار، الذين صحبوه وجالسوه وعاشوا معه السراء والضراء، ونالوا من تزكيته وبركة دعائه واستغفاره لهم.



٦٢- بيان مهام وتكاليف نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ

الآيات ١٢٩ من سورة البقرة

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾

قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "﴿يَتْلُواْ﴾ يقرأ ﴿عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ كتابك، يعني: القرآن، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ قال مجاهد: فهم القرآن، وقال مقاتل: مواعظ القرآن وما فيه من الأحكام، قال ابن قتيبة: هي العلم والعمل، ولا يكون الرجل حكيمًا حتى يجمعهما، وقيل: هي السنة[1]، وقيل: هي الأحكام والقضاء وقيل: الحكمة الفقه، قال أبو بكر بن

---

(١) فإن الله عَزَّوَجَلَّ قال لأمهات المؤمنين: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ ومعلوم أنه لا يوجد في بيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كتاب لا زبور ولا إنجيل ولا شعر، فتعين أن المراد هو السنة.

دريد: كل كلمة وعَظَتْك أو دَعَتْك إلى مكرمة أو نَهَتْك عن قبيح فهي حكمة.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أي: يطهرهم من الشرك والذنوب، وقيل: يأخذ الزكاة من أموالهم، وقال ابن كيسان: يشهد لهم يوم القيامة بالعدالة إذا شهدوا للأنبياء بالبلاغ، من التزكية وهي: التعديل"[1].

قال رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ذكَّر الله تعالى العرب أولاً بنعمته عليهم بهذا البيت، أن جعله مثابة للناس وأمنـًا، وبدعاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لبلد البيت، واستجابة الله تعالى دعاءه، إذ جعله بلداً آمنًا تُجْبى إليه[2] الثمرات من البلاد البعيدة فيتمتع أهله بها، وهي نعم يعرفونها لا ينكرها أحد، وانتقل منها إلى التذكير بالنعم المعنوية، فذكر عهده إلى إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ بأن يطهرا بيته للطائفين والعاكفين والرُّكَّع السجود؛ لينبههم بإضافة البيت إلى نفسه أنه لا يليق أن يُعبَد فيه غيره، وبتطهيره لأجل الطواف والاعتكاف والصلاة أنه يجب تنزيهه عن الأصنام والتماثيل وعبادتها الفاسدة، وعن سائر الأعمال الذميمة كطواف العريان، وكانوا يفعلونه.

ثم ذكَّرهم بعد هذا بأن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو الذي بنى هذا البيت

---

(١) تفسير البغوي (١/ ١٥١-١٥٢).

(٢) أي: تجمع إليه. تفسير الطبري (١٩/ ٦٠٢).

بمساعدة ابنه إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وذكَر لهم من دعائهما هنالك ما يرشدهم إلى العبادة الصحيحة والدين الحق، ويجذبهم إلى الاقتداء بذلك السلف الصالح الذي ينتمون إليه ويفاخرون به، فإن قريشًا كانت تنتسب إلى إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ بحق، وتدَّعي أنها على ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولذلك كانت ترى أنها أهدى من الفرس والروم، وسائر العرب تبع لقريش"(١).



أوجه الثناء:

- فضل الصحابة الذين من قريش، فإن قريشًا من ذرية إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ فهم أعلى الناس نسبًا وأفضلهم حسبًا، وخصوصا من كان منهم من بني هاشم أفضل قريش، ومنهم قدماء وكبار الصحابة، ونبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ خيرة بني هاشم بل خيرة الله عَزَّ وَجَلَّ من خلقه.

- اقتران هذه الدعوة منهما ببناء أفضل بيت وضع للناس يدل على مكانة هذا الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وأنه سيكون مرتبطًا به أكثر من غيره من الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وأصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ معه لا ينفكون عنه، وقد اختار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مكة وهي أفضل البقاع لنشأته وبعثته، والمدينة - وفضلها مشهور - مكان هجرته، واختار له خير الأصحاب في الجاهلية والإسلام.

(١) تفسير المنار (١/ ٣٨٣).

الآية ١٥١ من سورة البقرة

﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾

هذه هي مهام الحبيب صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وقد قام بها، فقد علَّم أصحابه القرآن، وسنته وزكاهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ خير تزكية.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ إليهم، يتلو عليهم آيات الله مبينات ويزكيهم، أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب -وهو القرآن- والحكمة -وهي السنة -ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون.

فكانوا في الجاهلية الجهلاء يسفهون بالقول الفرى، فانتقلوا ببركة رسالته، ويُمْن سفارته - وتزكيته لهم وتعليمه إياهم - إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء فصاروا أعمَق الناس علمًا، وأبرَّهم قلوبًا، وأقلَّهم تكلفًا، وأصدَقهم لهجة"[(١)].

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٦٤).

قال رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: يُتِمّ نعمته عليكم باستيلائكم على بيته الذي جعله قبلة لكم، وتطهيركم إياه من عبادة الأصنام والأوثان، وهو البيت الذي في قلب بلادكم، وموضع شرفكم وفخركم، كما أتمها عليكم بإرساله رسولاً منكم، فالقبلة في بلادكم، والرسول من أمتكم، والخطاب للعرب كما هو ظاهر.

ثم وصف هذا الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بالأوصاف التي كان بها نعمة تامة، ورحمة شاملة فقال: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الدالة على أن ما جاء به من التوحيد والهداية هو الحق من عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

الآيات تتعلق بإثبات العقائد وأصول الدين وهي المقصد الأول، ويليها تهذيب الأخلاق؛ ولذلك قال: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ أي: يطهر نفوسكم من الأخلاق السافلة، والرذائل الممقوتة، ويُخلّقها بالأخلاق الحميدة بما لكم فيه من حسن الأسوة لا بالقهر والسطوة، وخصّ المفسر (الجلال)[(١)] التزكية بالتطهير من الشرك.

قال الأستاذ الإمام[(٢)]: وهذا لا يصح فإن الإسلام كما جاء بالتوحيد الماحي للشرك، جاء بالتهذيب المطهر من سفساف الأخلاق وقبائح

---

(١) يعني الإمام جلال الدين السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) يعني شيخه الشيخ محمد عبده رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

العادات والمعاصي التي كانت فاشية في العرب، فقد كانوا يئدون بناتهم يدفنونهن حيَّات ويقتلون أولادهم للتخلص من النفقة عليهم وذلك نهاية القسوة والشح، وكانوا يسفكون الدماء فيما بينهم لأهون سبب يثير حميتهم الجاهلية؛ لما اعتادوه من البغي في الثارات ومن شن الغارات ونهب بعضهم بعضًا، وكان عندهم من التسفل أن أحدهم يتزوج زوج أبيه أو يعضلها حتى تفتدي منه، إلى غير ذلك. وقد زكَّاهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ من ذلك كله باقتدائهم بأخلاقه العظيمة في عباداته الكاملة وآدابه العالية، وجمعهم بعد تلك الفرقة، وألَّف الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بينهم على يديه حتى صاروا كرجل واحد، وجعلت شريعته ذمتهم واحدة يسعى بها أدناهم، فإذا أعطى مولى أو رقيق لهم أمانًا لأي إنسان محارب كان ذلك كتأمين أمير المؤمنين له، فأي تزكية أعلى من هذه التزكية؟

وبعد ذكر التربية العملية بالأسوة الحسنة ذكر أمر التعليم فقال: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أي: الكتاب الإلهي، أو الكتابة التي تخرجون بها من ظلمة الأمية والجهل إلى نور العلم والحضارة، ويجوز الجمع بين المعنيين على القول الصحيح باستعمال المشترك في معنييه أو فيما يقتضيه المقام من معانيه، وأما الحكمة: فهي العلم المقترن بأسرار الأحكام ومنافعها، الباعث على العمل، وفسرها بعضهم بالسنة[1].

---

(١) وهو الصواب.

ثم قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ أي: ويعلمكم مع الكتاب والحكمة ما لم يسبق لكم به علم من شؤون العالم ونظام البيوت والمعاشرة الزوجية وسياسة الحروب والأمم"(١).

والعجب كل العجب أن يأتي أقوام يدَّعون محبة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ثم يزعمون فشله في تلك التزكية، وأنه لم يحسن تربية أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وصوروا الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بصورة الساذج، حيث قرروا أن جلساءه وقادته ومستشاريه (خونة)، وبمجرد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى ظهرت خيانتهم وغدروا بالإمام علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فجعلوا الخلافة في أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وزعموا بأن صحابة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ حذفوا آيات من القرآن وأخفوا الوصية، فوقعوا في المصيبة الكبرى باتهامهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أنه لم يزكِّ ويعلِّم أصحابه، ولا يوجد لديهم إلا أساطير مختلقة مكذوبة جعلوها روايات ولا يوجد لها أسانيد، فإلى الله المشتكى.

أوجه الثناء:

- بيَّن الله تعالى أن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ عربي منهم، فهم أولى به أن يصدِّقوه، إذ إنهم من معاشرته يعلمون دلائل صدق نبوته، وكذلك فيه منَّة

(١) تفسير المنار (٢/ ٢٢-٢٦) مختصراً.

عليهم إذ يصعب على النفس أن تنقاد للغريب.

- ذكر مهمته الرسالية في تلاوة القرآن؛ وهذا يشمل كيفية القراءة ولفظ حروفه ومعرفة الوقوف، والتزكية بالتأسي به واتخاذه قدوة حسنة لهم ثم تعليمهم معاني القرآن الكريم والسنة النبوية.

- نشهد بأن الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ قام بتلك التكاليف خير قيام؛ فقد علّم أصحابه القرآن والحكمة ومعانيها وما يتعلق بها، وهم في الأصل عرب فصحاء، وشهدوا تنزيل القرآن، وتعلموا ناسخه ومنسوخه، فأصبحوا هم كبار العلماء المجتهدين، وبذل جهده في تزكيتهم، وأفلح صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ فأصبح أصحابه سادة عظماء، علماء قادة، أهل ورع وتقوى، لم تغرّهم الدنيا وزينتها، كيف لا وهم ثمرة جهاد رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ وعمله الذي كلفه الله به؟!

- تأمل أخي الحبيب في هذا التسلسل لهذه الآيات الأربعة:

كانت دعوة إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[البقرة:١٢٩].

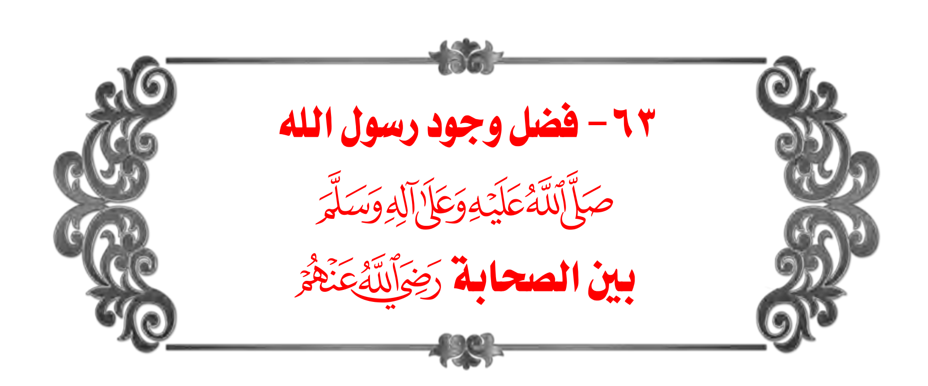
واستجاب الله دعاءه: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾[البقرة:١٥١].

ونجح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في دعوته وتزكيته فامتن المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليهم بعد غزوة أحد: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾[آل عمران:١٦٤].

مع تأكيد استمرارية هذه المهام وهذا الفضل وهذه البشارة مع الذين لم يلحقوا بهم فضلاً وزمناً: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾[الجمعة٢-٤].

- الطعن في علم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأنهم كانوا على جهل وغفلة، ولم يتفقه منهم إلا نزر يسير مع أن الله تعالى قال: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ يلزم منه الطعن في معلمهم وهو رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

- الطعن في عدالة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والقدح في أمانتهم ونسبتهم إلى الخيانة مع أن الله تعالى قال: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ﴾ يلزم منه الطعن في مزكيهم وهو رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.



٦٣- فضل وجود رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بين الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

الآيتان ٧-٨ من سورة الحجرات

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي: اعلموا أن بين أَظْهُرِكم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فعظِّموه ووقِّروه، وتَأَدَّبوا معه، وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، وأَشْفَق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتمُّ من رأيكم لأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾[الأحزاب:٦]. ثم بَيَّن أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم

فقال: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ أي: لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدَّى ذلك إلى عَنَتِكُم وحَرَجكم.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ أي: حَبَّبَهُ إلى نفوسكم وحَسَّنَهُ في قلوبكم.

﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾ أي: وبَغَّضَ إليكم ﴿ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ﴾، وهي: الذنوب الكبار. ﴿وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾ وهي جميع المعاصي. وهذا تدريج لكمال النعمة، وهذا بيان وكشف من الله عَزَّوَجَلَّ بحقيقة ما في قلوبهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وشهادة عظيمة من الله عَزَّوَجَلَّ بتزكية باطنهم، ثم أحكم الله عَزَّوَجَلَّ الثناء عليهم بتزكية عقولهم بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ أي: المُتَّصِفُون بهذه الصفة هم الراشدون، الذين قد آتاهم الله عَزَّوَجَلَّ رُشْدَهم، فالرُّشْد كمال العقل.

ثم ذكر الله عَزَّوَجَلَّ أن هذا الفضل منه فقال تعالى: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ﴾ أي: هذا العطاء الذي منحكموه هو فَضْل منه عليكم ونعمة من لدنه.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الهداية ممَّن يستحق الغواية، ﴿حَكِيمٞ﴾ في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره"[(١)].

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٧٢-٣٧٤) بتصرف.

واختيار الله عَزَّوَجَلَّ لفريق من عباده، ليشرح صدورهم للإيمان، ويحرك قلوبهم إليه، ويزيّنه لهم فتهفو إليه أرواحهم، وتدرك ما فيه من جمال وخير - هذا الاختيار فضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ونعمة، دونها كل فضل وكل نعمة، وقد قام الموتورون على الصحابة والحاقدون عليهم بتأليف قصص وأساطير من نسج الخيال، وجعلوها روايات بلا أسانيد ولا تدقيق ولا تمحيص، ويكفي ردُّ الله عَزَّوَجَلَّ عليهم في محكم آياته من مثل هذه الآية، وأمثالها كثير.

أوجه الثناء:

- الأمر بالعلم هنا ليس فقط علم وجوده فيهم فهذا يدركونه حسًا، وإنما كذلك فضل وشرف صحبتهم له ووجوده معهم ومكانته فيهم، وهي نعمة عظيمة تستحق الشكر والامتنان.

- نفي العَنَت عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأن الله عَزَّوَجَلَّ يدفع عنهم العنت بوجود النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بين أظهرهم، وعدم طاعته لهم في كثير من الأمر، وليس ذلك فحسب بل أبدلهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن العنت: حب الإيمان وتزيينه في قلوبهم، وكرَّه في قلوبهم كل ما ينافي الإيمان أو ينقصه من الكفر والفسوق والعصيان، وقد اجتباهم بأن جعلهم أصحاب رشد وهدى.

- عناية الله تعالى بصحابة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وتربيتهم بعناية وتدرُّج في منازل الإيمان، فبغَّض وكرَّه إليهم المعاصي بالتدريج، كما تقدم في قول ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ﴾ أي: وبغَّض إليكم ﴿ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ ﴾، وهي: الذنوب الكبار. ﴿وَٱلْعِصْيَانَ ﴾ وهي جميع المعاصي. وهذا تدريج لكمال النعمة.

- مِنَّة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ..﴾ ففي هذه الآية الكريمة بيّن تعالى أنه حبّب إلى أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الإيمان وزيّنه في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم راشدين، وذلك لكي يكونوا أهلًا لشرف الصحبة، فأعدهم الله جَلَّ جَلَالُهُ ذلك الإعداد الرفيع، فاستحقوا بذلك أن يقول عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾، كما نطقت به الآية.

- فضل الصحابة الكرام على من بعدهم، فقد قرأ أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾[الحجرات:٧] قال: [هذا نبيكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يوحى إليه وخيار أمتكم لو أطاعهم في كثير من الأمر لعنتوا؛ فكيف بكم اليوم؟!][١].

(١) ينظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٧/ ٥٥٩).

- جمع الله تعالى للصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ معاقد الفلاح، إيجابًا وسلبًا، فالإيجاب ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾، والسلب ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾.

- إيتاء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رشدهم، ووصفهم بالراشدين وصفًا يدل على الكمال، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾، وناهيك بالرَّشَد منةً ونعمةً، فقد وصف الله بها خليله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سياق الامتنان والتفضيل؛ فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾[الأنبياء:٥١]، وسألها الفتية المؤمنون أصحاب الكهف، قال تعالى: ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[الكهف:١٠].

- تأكيد تلك النعم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقوله: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ كما تقدم في قول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: هذا العطاء الذي منحكموه هو فَضْل منه عليكم ونعمة من لدنه، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الهداية ممَّن يستحق الغواية، ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره".

- الذي يظهر لي - والعلم عند الله - أن هذه الآية من أعظم الآيات في فضل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والثناء عليهم، ولذا أكد المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن هذا هو فضل ونعمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو واسع العطاء والمن، ولا سيما إذا

علمنا أن هذه السورة هي من أواخر ما نزل على نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في عام الوفود فشملت المهاجرين والأنصار والطلقاء ومن قدم إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وافداً مسلماً رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.



سادساً: فضل أمهات المؤمنين زوجات رسول الله ﷺ



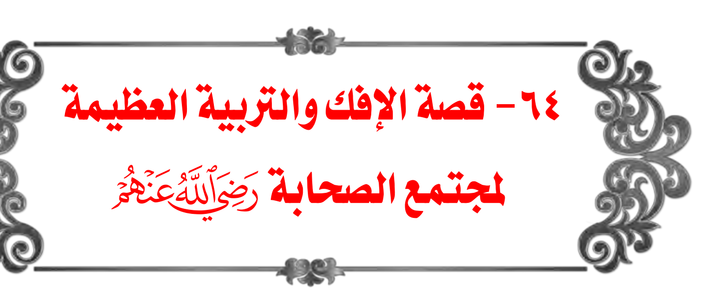


تمهيد

يتعجب المرء حين يسمع عمن يتكلم عن زوجات النبي ﷺ بالسوء، ويشكك في صدقهن وإيمانهن، بل ربما يصل الأمر بالبعض إلى الطعن في العفة والشرف والعياذ بالله، ومع أن هذه القضية لها شأنها الكبير وحساسيتها الشديدة لدى العرب في الجاهلية والإسلام، وتعد من العظائم التي يفكر الإنسان ألف مرة قبل أن يخوض فيها، إلا أن الأمر يتجاوز قضية العرف والعادات إلى قضية الإيمان والعقيدة، فهذا الذي يتهم أمهات المؤمنين ألم يقرأ كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويتأمل فيه؟!

ماذا يمكن أن يقول مثل هذا الخائض في أعراض أمهات المؤمنين حين يجد في القرآن غيرة الله تعالى العظيمة على أعراضهن، وعتابه الشديد وتهديده المُخيف لمن تكلّم فيهن، ويجد أن الله جَلَّ وَعَلَا قد بشرهن بالخير الكثير، وأخبر أنه يريد تطهيرهن ورفعة درجاتهن، ويجد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نهى نبيه ﷺ عن الزواج عليهن، وأمره بما فيه جبر خواطرهن وحفظ قلوبهن، ماذا سيقول الخائض فيهن عندما يجد كل هذا في آيات كثيرة واضحة محكمة بينة؟!

تعالَ إلى الآيات القادمة وتأمل الفرق العظيم بين حديث الله جَلَّوَعَلَا عن أزواج نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ، وبين حديث الخائضين المفترين عليهن الكذب والبهتان.



٦٤- قصة الإفك والتربية العظيمة لمجتمع الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ

الآيات ١١-٢٠ من سورة النور

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١﴾ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴿١٢﴾ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٠﴾﴾

أنزل الله تعالى بيانًا لكثير من الأحداث والمعارك التي عاشها الصحابة مع إمامهم وقائدهم ومعلمهم الذي تولى تزكيتهم صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاَلِهِۦوَسَلَّمَ، وهنا في هذه السورة آيات تتلى لعلاج حدث كبير يخص بيت النبوة، وجاءت الآيات من مطلع السورة في التوجيه والعتاب وبيان الأحكام الشرعية التي تضبط صيانة أعراض المجتمع، وفي مقدمتهم آل البيت والمهاجرون والأنصار رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ أجمعين.

والمجتمع المدني يأخذ التوجيهات والأوامر من رب العزة سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ومن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاَلِهِۦوَسَلَّمَ، **فأي فخر وأي شرف وأي كرامة وأي منزلة واصطفاء حازه القوم** رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ**؟!**

وفي ثنايا السورة الكريمة تشديد على حفظ الأعراض، وتقدُّم تعظيم الرمي بالزنا عمومًا كأنه مقدمة القصة التي وقعت على أشرف النساء أم المؤمنين رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا[(١)].

فالأعراض من الحُرُمات، والطعن فيها محرم، والإساءة إليها محرمة، وهي من الكليات الخمس، التي نص عليها أهل العلم، وهي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال[(٢)]، وقد حكى الغزالي وغيره إجماع

---

(١) ينظر: تفسير السعدي (ص:٥٦٣).

(٢) ينظر: الموافقات (ص:٢٠).

الملل على اعتبارها[(١)].

وشدَّد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ على أهمية الحقوق - ومنها الأعراض- ففي أكبر مجمع للمسلمين في عهده صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ حجة الوداع قام في الناس فقال: «أي شهر هذا؟! أليس ذي الحجة؟! قالوا: بلى. أي بلد هذا؟! أليس البلدة الحرام؟! قالوا: بلى. أي يوم هذا؟! أليس يوم النحر؟! قالوا: بلى. قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام؛ كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا -إلى قوله:- ألا ليبلغ الشاهد الغائب.. ألا هل بلغت»[(٢)].

فحفظ العرض واجب في الشريعة، وهو صيانة للمجتمع الإسلامي، ولشدة أمر العرض فإن الطعن في العرض يستوجب حدًا، سواءً كان الحد يقع على القاذف أو المقذوف، فإذا طعن شخص في عرض شخص ورماه بالفاحشة، فإما أن يستوفي شروط الشهادة أو يعترف المشهود عليه فيقام عليه الحد، وإلا أقيم على المدعي حد القذف. يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ

(١) ينظر: المستصفى (١/ ١٧٤)، الإحكام للآمدي (٣/ ٢٧٤).

(٢) البخاري (٥/ ٢١١٠ رقم ٥٢٣٠)، مسلم (٣/ ١٣٠٥ رقم ١٦٧٩) عن أبي بكرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور:٤]، فعقوبته الجَلْد، وإسقاط عدالته فلا تقبل شهادته، وهو في عداد الفاسقين، وهذا يدل على أهمية الأعراض وصيانتها في الشريعة الإسلامية.

فإذا كان هذا في عرض أي أحد من المسلمين؛ فما بالنا بالعرض الشريف عرض محمد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، سيد الأولين والآخرين؟!!

يقول الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولقد برّأ الله تعالى أربعة بأربعة: برّأ يوسف بلسان الشاهد ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾، وبرّأ موسى من قول اليهود فيه بالحَجَر الذي ذهب بثوبه، وبرّأ مريم بإنطاق ولدها حين نادى من حجرها: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، وبرّأ عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلوّ على وجه الدهر، مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات، فانظر، كم بينها وبين تبرئة أولئك؟ وما ذاك إلا لإظهار علوّ منزلة رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، والتنبيه على إناقة[1] محل سيد ولد آدم، وخيرة الأوّلين والآخرين، وحجة الله على العالمين، ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وتقدّم قدمه وإحرازه لقصب السبق دون كل سابق،

---

(١) الشيء له إناقة: أي: حسن معجِب، بمعنى: يثير الإعجاب بحسنه. لسان العرب (١٠/ ١٠).

فليتلق ذلك من آيات الإفك، وليتأمّل كيف غضب الله عَزَّوَجَلَّ في حرمته، وكيف بالغ في نفى التهمة عن حجابه"[1].

وبعد نزول تلك الآيات البينات، فإن كل من سار على درب عبد الله بن أبي ابن سلول في الطعن على أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا واستنقاص قدرها، له عذاب عظيم في جهنم، والعياذ بالله، يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد أجمع العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ، قاطبة على أن من سبَّها بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية، فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن"[2].

وهذه الآيات التي نزلت في هذه الحادثة بضع عشرة آية، يقول الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول

---

(١) الكشاف (٣/ ٢٢٣-٢٢٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٣١-٣٢)، وقد نقل هذا الإجماع عدد من العلماء مثل: ابن تيمية في الصارم المسلول (ص:٥٦٦) - من الحنابلة - وذكر أن هذا الإجماع قد نقله عدد من الأئمة، بل قال النووي - من الشافعية - : "براءة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من الإفك وهي براءة قطعية بنص القرآن العزيز **فلو تشكك** فيها إنسان- والعياذ بالله- صار كافراً مرتداً بإجماع المسلمين" شرح مسلم (١٧/ ١١٧)، وقال ابن العربي - من المالكية- "كل من سبها بما برأها الله عَزَّوَجَلَّ منه فهو مكذب لله عَزَّوَجَلَّ، ومن كذب الله عَزَّوَجَلَّ فهو كافر. فهذا طريق قول مالك. وهي سبيل لائحة لأهل البصائر" أحكام القرآن (٣/ ٣٦٦).

الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ، وتسلية له، وتنزيه لأم المؤمنين رضوان الله عليها، وتطهير لأهل البيت"[1].

وقال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: "هذه العشر الآيات كلها نَزَلَت في شأن عائشة أم المؤمنين رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا حين رَمَاها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكَذِب البَحْتِ والفِرْيَة التي غَارَ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لها ولنبيِّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ، فأَنزَل الله تعالى براءتها صيانةً لعِرْض الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ﴾ أي: جماعة منكم، يعني: ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة، فكان المقدَّم في هذه اللعنة عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول رأس المنافقين، فإنه كان يَجْمَعُه ويَسْتَوْشِيه، حتى دَخَلَ ذلك في أذهان بعض المسلمين، فتكَلَّموا به، وبقي الأمر كذلك قريبًا من شهر - ابتلاء عظيم للرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ وزوجته وأهلها والمجتمع كله - حتى نَزَلَ القرآن، وسياق ذلك في الأحاديث الصحيحة.

﴿بِٱلۡإِفۡكِ﴾ بالكذب والبَهْتِ والافْتِرَاء ﴿عُصۡبَةٞ﴾ أي: جماعة منكم ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ﴾ أي: يا آل أبي بكر، ﴿بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، لسانُ صِدْقٍ في الدنيا ورِفعَةُ منازل في الآخرة، وإظهار شَرَف لهم باعتناء الله

---

(١) الكشاف (٣/ ٢١٧).

تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بعائشة أم المؤمنين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، حيث أنزل الله تعالى براءتها في القرآن العظيم الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾[فصلت:٤٢].

وقوله: ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ﴾ أي: لكل من تكلَّم في هذه القضية ورَمَى أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا بشيء من الفاحشة، نصيبٌ عظيمٌ من العذاب.

﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ ﴾ قيل: ابتدأ به. وقيل: الذي كان يَجْمَعُه ويَسْتَوْشِيه ويُذِيعه ويُشِيعه ﴿ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي: على ذلك. ثم الأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول قَبَّحَه الله ولَعَنَه.

﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ هذا تأديب من الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ للمؤمنين في قضية عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السوء، وما ذُكر من شأن الإفك، فقال تعالى: ﴿ لَّوْلَآ ﴾ بمعنى: هَلَّا ﴿ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ أي: ذلك الكلام الذي رُمِيَت به أم المؤمنين، ﴿ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ أي: قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإنْ كان لا يَلِيقُ بهم فَأُمُّ المؤمنين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أولى بالبراءة منه بطريق الأَولى والأَحْرَى.

وقوله: ﴿ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي: هَلَّا ظَنُّوا الخير؛ فإن أم المؤمنين أهله وأولى به، هذا ما يتعلق بالباطن، ﴿وَقَالُواْ﴾ أي: بألسنتهم، ﴿هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ أي: كَذِبٌ ظاهرٌ على أم المؤمنين، فإن الذي وَقَع لم يَكُن ريبةً، وذلك أن مجيء أم المؤمنين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا راكبةً جَهْرَةً على راحلة صفوان بن المعطل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ في وقتِ الظهيرة، والجيش بكماله يشاهدون ذلك، ورسول الله صَلَّىٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ بين أظهرهم، لو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جَهْرَة، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، فتَعَيَّن أن ما جاء به أهل الإفك ممَّا رَمَوا به أم المؤمنين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا هو الكذب البَحْت، والقول الزور، والرّعُونة الفاحشة، والصفقة الخاسرة.

قال الله تعالى: ﴿لَّوۡلَا﴾ أي: هَلَّا، ﴿جَآءُو عَلَيۡهِ﴾ أي: على ما قالوه، ﴿بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ يشهدون على صحة ما جاؤوا به، ﴿فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ أي: في حكم الله عَزَّوَجَلَّ كاذبون فاجرون.

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ أيها الخائضون في شأن عائشة ﴿وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بأنْ قَبِلَ توبَتكم وإنابتكم إليه في الدنيا، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة، ﴿لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ﴾ من قضية الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وهذا فيمن عنده إيمان رزقه الله عَزَّوَجَلَّ بسببه التوبة إليه، كمِسْطَح، وحسان، وحَمْنَةَ بنت جحش رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ؛ فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أُبَيّ ابن سلول وأضرابَهُ، فليس أولئك مرادين في هذه الآية؛ لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه.

ثم قال: ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير: أي: يرويه بعضكم عن بعض، يقول هذا: سمعته من فلان، وقال فلان كذا، وذَكَر بعضهم كذا.

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ أي: تقولون ما لا تعلمون. ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾ أي: تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، وتحسبون ذلك يسيرًا، ولو لم تكن زوجة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ لَـمَّا كان هَيِّنًا، فكيف وهي زوجة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين؟!

﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦﴾

هذا تأديب آخر بعد الأوَّل: الأمر بالظَنِّ خيرًا، أي: إذا ذُكِر ما لا يَلِيق من القول في شأن الـخِيَرَة، فأَوْلَى يَنْبَغي الظن بهم خيرًا، وألَّا يُشْعِر نفسه سوى ذلك، ثم إنْ عَلِق بنفسه شيء من ذلك -وسوسةً أو خيالًا- فلا ينبغي أن يَتكَلَّم به.

وقال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ أي: ما ينبغي لنا أن نَتَفَوَّهَ بهذا الكلام ولا نَذكُره لأحد ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ أي: سبحان الله أن يُقَال هذا الكلام على زوجةِ رسوله وحليلَةِ خليلِهِ.

ثم قال: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي: ينهاكم الله مُتوَعِّدًا أن يَقَع منكم ما يُشبِه هذا أبدًا، أي: فيما يُستَقْبَل. ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه، وتُعَظِّمُون رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فأمَّا من كان مُتَّصِفًا بالكفر فذاك له حكم آخر.

ثم قال: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي: يُوضِّحُ لكم الأحكام الشرعية والحِكَمَ القَدَريّة، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يُصلِحُ عباده، ﴿حَكِيمٌ﴾ في شَرْعه وقَدَره.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ وهذا تأديب ثالث لمن سَمِعَ شيئًا من الكلام السيئ، فقام بذهنه شيء منه، وتَكَلَّمَ به، فلا يُكْثِر منه ويُشِيعه ويُذِيعه، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بالحد، وفي الآخرة بالعذاب ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: فرُدُّوا الأمور إليه تَرْشُدُوا.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ ﴾ أي: لولا هذا لكان أمر آخر، ولكنه تعالى رؤوف بعباده، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية وطَهَّر من طَهَّر منهم بالحَدِّ الذي أُقِيم عليه"[1].

أوجه الثناء:

- في الآيات ثناء الله تعالى على أم المؤمنين رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، ويتضمن الثناء على كل زوجات رسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِوَسَلَّمَ، وعلى الصحابة الذين صانوا ألسنتهم وطهَّروا قلوبهم عن الوقوع في العرض الشريف، عرض محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِوَسَلَّمَ.

- في هذه الآيات فضيلة لأبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأهل بيته، فعائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا ابنته، وقد أصابه ما أصابه من الهمّ والغمّ بسبب هذه الحادثة، فجاءت هذه الآيات تطييباً لخاطره، وكذلك هي براءة لصفوان بن المعطل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذي اتُّهِم مع عائشة[2].

- تزكية الصحابة رجالاً ونساءً بوصف الإيمان مع كون المقام مقام

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ١٩-٣٠) مختصراً.

(٢) ينظر: روح المعاني (٩/ ٣١٠-٣٢٨).

عتاب وتأديب، ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾.

- النص الصريح الواضح على فضل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ورحمة الله عَزَّ وَجَلَّ بهم في الدنيا والآخرة ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.



٦٥- عظمة شأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وأعراض المؤمنين عند المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

الآيات ٢٣-٢٦ من سورة النور

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا وعيدٌ من الله تعالى للذين يَرمُون المُحْصَنَات الغافلات المؤمنات -خُرِّج مَخرَج الغالب- فأُمَّهات المؤمنات أولى بالدخول في هذا من كل مُحصَنَة، ولا سيِّما التي كانت سبب النزول،

وهي عائشة بنت الصِّدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

وقد أجمع العلماء قاطبةً على أن مَن سَبَّها بعد هذا فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن.

وقوله تعالى: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ﴾ الآية، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية [الأحزاب:٥٧]. وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وقد اختار ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عمومها، وهو الصحيح.

وقوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ الآية عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ [في الحديث القدسي مرفوعًا]: «...فيقول الله: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام عليك شهودًا. فيُخْتَم على فِيه، ويُقَال لأركانه: انطِقي، فتَنطِق بعمله، ثم يُخَلَّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعدًا لَكُنَّ وسُحْقًا، فعَنْكُنَّ كُنتُ أُناضل»[رواه مسلم].

وقال قتادة: ابنَ آدم، والله إن عليك لَشُهودًا غيرَ مُتَّهَمَة مِن بَدَنِك، فرَاقِبهم، واتَّقِ الله في سِرِّك وعلانيتك، فإنه لا يَخفَى عليه خافية، الظُّلمة عنده ضَوء، والسِّرُّ عنده علانية، فمن استطاع أن يَموتَ وهو بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حَسَنَ الظَّنِّ، فَلْيَفْعَل، ولا قوة إلا بالله.

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: [أي: حسابهم]. وكذا قال غير واحد.

وقوله: ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: وَعْدُه ووعيده وحسابه هو العدل، الذي لا جَوْرَ فيه.

﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: [الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول، والطيبات من القول للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من القول. قال: ونزلت في عائشة وأهل الإفك].

وهكذا رُوي عن مجاهد وعطاء وسعيد بن جُبَير وغيرهم. واختاره ابن جرير، ووجَّهَهُ بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس، فما نَسَبَه أهل النفاق إلى عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا هم أولى به، وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾.

وقال ابن أسلم: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء.

وهذا - أيضًا - يرجع إلى ما قاله أولئك باللازم، أي: ما كان الله عَزَّوَجَلَّ

ليجعل عائشة زوجةً لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إلا وهي طيبة؛ لأنه أطيب من كل طَيِّب من البَشَر، ولو كانت خبيثةً لَمَا صَلُحَتْ له، لا شَرعًا ولا قَدَرًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: هم بُعَداء عمَّا يقوله أهل الإفك والعدوان، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: بسبب ما قِيل فيهم من الكَذِب، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: عند الله عَزَّ وَجَلَّ في جنات النعيم. وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في الجنة"[1].

أوجه الثناء:

- وصف أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -ومثلها زوجات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الآخريات- بالعفة، والبعد حتى عن التفكير في المعصية، والإيمان ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، وهذا دليل على مكانتهن عند الله تعالى.

- دفاع الله عَزَّ وَجَلَّ عن زوجات نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وغيرته عليهن، ووعيده الشديد لمن تجرأ وتطاول عليهن، وهذا تأكيد آخر لعظيم مكانتهن عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣١-٣٥) مختصراً.

- التوعّد بالعذاب العظيم لمن قذَفها، ولَعْن قاذفها في الدنيا والآخرة، دليل على براءتها مما نسب إليها.

- الثناء على زوجات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بالطيب، إذ ما كان للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الطيب أن يكون تحته إلا طيبة العرض عفيفة.

- التصريح بالبراءة لهن، ووَعْدُهن بالمغفرة والجنة، دليل استمرارهن على هذه الصفات الحسنة حتى يلقين الله تعالى فيوفيهن ما وعدهن، والله عَزَّ وَجَلَّ لا يخلف الميعاد.



٦٦- أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ هن أمهات المؤمنين بنص القرآن الكريم

الآية ٦ من سورة الأحزاب

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٦ ﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قد علم الله تعالى شفقة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ على أمته، ونُصْحه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحُكْمه فيهم مُقَدّمًا على اختيارهم لأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾[النساء:٦٥]، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ عن النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾» [رواه البخاري].

قوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي: في الحرمة والاحترام، والإكرام والتوقير والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع"[1].

وقال أبو السعود رَحِمَهُ اللَّهُ: "أي: في كل أمر من أمور الدين والدنيا كما يشهد به الإطلاق، فيجب عليه أن يكون أحب إليهم من أنفسهم، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها، وحقه آثر لديهم من حقوقها، وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها، وأزواجه منزلات منزلة الأمهات في التحريم واستحقاق التعظيم، وأما فيما عدا ذلك فهن كالأجنبيات"[2].

أوجه الثناء:

- لمَّا علم الله تعالى شفقة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ على أمته، ونصحه لهم، جعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيهم مُقَدّمًا على اختيارهم

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٨٠-٣٨٢) مختصرا.

(٢) تفسير أبي السعود (٧/ ٩١) مختصرا بتصرف.

لأنفسهم، فما بالك بقومٍ رسولُ الهدى والرحمة والخلق القائم عليهم، وهو بهذه الأوصاف وغيرها - يعيش بينهم ويجالسهم ويكرمهم ويشاورهم ويستغفر لهم ويصلي بهم ويجاهد معهم؟!

- الثناء على أزواج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ في الآية جليّ، وهو يندرج ضمن الثناء على الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وفيه الرد على الطاعنين في الإسلام من خلال انتقاص الصحابة الكرام عمومًا، أو بعض الصحابة رجالًا أو نساءً، والمنافقون في كل زمان ومكان دأبهم وديدنهم استهداف الإسلام ورسول الإسلام صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ بالقدح في واسطة الإسلام إلى كل العالم وهم أصحابه الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

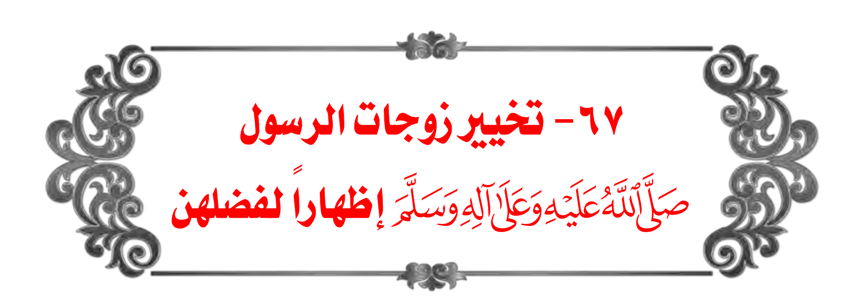
- جَعْل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ أبًا للمؤمنين الذين يدخل فيهم الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ دخولًا أوليًا.

- أنه عَزَّوَجَلَّ جعل أزواج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ أُمَّهات المؤمنين، وهذا منطوق الآية، والمفهوم أن من أنكر أنهن أمهاته فليس من المؤمنين، فاعتبروا يا أولي الأبصار!

- جَعْل الله تعالى زوجات النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ أمهات للمؤمنين فيه مزية من وجهين:

الأول: تقرير استمرار زوجية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لهؤلاء النسوة، إذ إن الأمومة دائمة مستمرة لا يمكن أن تنقطع بحال.

والثاني: وَصْف من سيكون ابنًا لهؤلاء النسوة بأنه مؤمن، فمن تبرّأ من تلك الأمومة فهل يبقى له شيء من الإيمان؟ ومن طعن في أمّه فلا شك أنه بلغ الذروة في العقوق، وتبرأ من أبوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وهذا شامل للدنيا والآخرة، فكيف يرجو شفاعته بعد ذلك؟!



الآيات ٢٨-٢٩ من سورة الأحزاب

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

بنص القرآن أمهات المؤمنين لسن مثل باقي النسوة، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اختارهن زوجات لسيد الخلق، وقد خيَّرهن في هذه الآيات بين البقاء في عصمة الحبيب صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ولهُنَّ الآخرة، والفراق ولهُنَّ الدنيا، وقد لطف الله عَزَّوَجَلَّ بهن فرَغِبن كُلُّهن بالحبيب صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

ثم تأمَّل في الآيات، آياتٌ كريمة تتحدث عن الصحابيات الجليلات



أمهات المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ وأرضاهن، أفردهن الله تعالى بآيات خاصة بهن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ، تتضمن الأمر والنهي والتأديب لهن بالأدب الأسمى اللائق ببيت النبوة، وهذا يدل على عناية الله تعالى وتفضيله لأزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ على من سواهن من النساء.

ومع منزلة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ومع حبّه للنساء جاء النهي الصريح ومنعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أن يتزوج عليهن، وأمرهن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بطاعته وطاعة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ لأنهن قدوات النساء، وذكر لهن المنزلة العظيمة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[الأحزاب:٣٣] فطلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من ربه وابتهل ودعا لفاطمة وابنيها وزوجها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن تشملهم الآية لأنهم أهل بيته، وهذا ظاهر في سياق حديث الكساء المشهور(١)، واستجاب الله عَزَّ وَجَلَّ له، فهذا والله الفخر والمجد والرفعة، فضل الله عَزَّ وَجَلَّ يؤتيه من يشاء.

---

(١) عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ جلل على الحسن والحسين وعلي وفاطمة كساء، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، فقالت أم سلمة: وأنا معهم يا رسول الله؟ قال: إنك إلى خير». الترمذي (٦/ ١٨٢ رقم ٣٨٧١) وقال: "هذا حديث حسن صحيح وهو أحسن شيء روي في هذا الباب". وقد جاء من روايات عدة من الصحابة.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا أمر من الله تعالى لرسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بأن يخيّر نساءه بين أن يفارقهن، فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهنّ عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في ذلك الثواب الجزيل، فاخترْن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُنَّ وأرضاهن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ والدار الآخرة، فجمع الله عَزَّوَجَلَّ لهنّ بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة.

عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا زوج النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قالت: أُنْزِلت آية التخيير فبدأ بي أول امرأة من نسائه، فقال: «إني ذاكر لك أمراً، فلا عليك ألا تعجلي حتى تستأمري أبويك» قالت: قد علم أن أبويّ لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: إن الله قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ الآيتين، قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: فقلت: أفي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، ثم خيّر نساءه كلهنّ، فقلن مثل ما قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُنَّ.

قال عكرمة: وكان تحته يومئذ تسع نسوة، خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وكانت تحته صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ صفية بنت حيي النضرية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُنَّ وأرضاهن.

ولم يتزوج واحدة منهن إلا بعد أن توفيت خديجة بنت خويلد بن أسد

بن عبد العزى بن قصي بن كلاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تزوجها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بمكة وهو ابن خمس وعشرين سنة، وبقيت معه إلى أن أكرمه الله عَزَّ وَجَلَّ برسالته فآمنت به ونصرته، وكانت له وزير صدق، وماتت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قبل الهجرة بثلاث سنين في الأصح.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ يقول تعالى واعظًا نساء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، اللاتي اخترن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ والدار الآخرة، واستقرّ أمرهن تحت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أن يخبرهن بحكمهن، وتخصيصهن دون سائر النساء بأنَّ من يأتِ منهن بفاحشة مبينة -قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وهي النشوز وسوء الخلق- وعلى كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[الزمر:٦٥]، وكقوله: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾[الأنعام:٨٨]، ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[الزخرف:٨١]، ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾[الزمر:٤]، فلما كانت محلتهن رفيعة، ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظًا، صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع؛ ولهذا قال: ﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾. قال مالك عن زيد بن

أسلم قال: في الدنيا والآخرة.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠﴾ أي: سهلاً هيناً.

ثم ذكر عدله وفضله في قوله: ﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: يطع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ويستجب ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝٣١﴾ أي: في الجنة، فإنهن في منازل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في أعلى عليين، فوق منازل جميع الخلائق، في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش"(١).

أوجه الثناء:

- لما خُيِّرْن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُنَّ اخترن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والدار الآخرة، على متاع الدنيا الزائل.

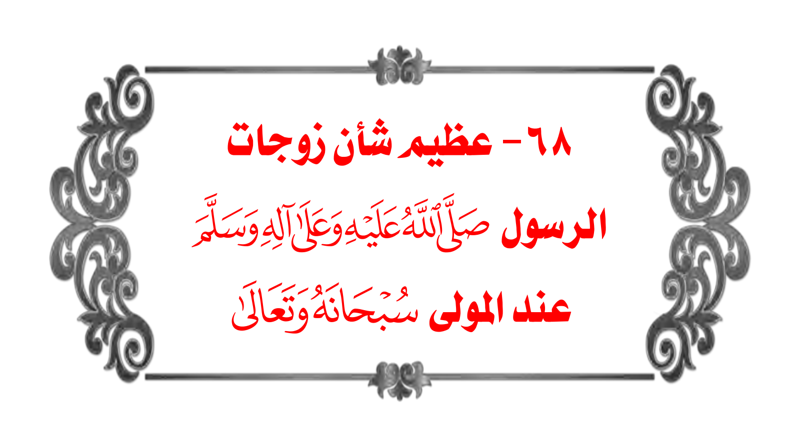
- الوعد من الله تعالى لهن بالأجر العظيم، والثواب الجزيل المضاعف، والرزق الكريم.

- مضاعفة الثواب والعقاب لعظم منزلتهن، فهن القدوات رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُنَّ، واختيارُهن البقاء مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ واختيار الدار الآخرة دليل

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٠١-٤٠٨) مختصراً.

على تقواهن، فأكرمهن الله عَزَّوَجَلَّ بنهي نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ عن الزواج عليهن ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾[الأحزاب:٥٢].

- منقبة الخطاب المباشر من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لهنّ ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ تكريماً وتفضيلاً ونصحاً وتأديباً وإرشاداً.



٦٨- عظيم شأن زوجات الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ عند المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

الآيات ٣٢-٣٤ من سورة الأحزاب

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، فقال مخاطبًا لنساء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بأنهن إذا اتقين الله عَزَّوَجَلَّ كما أمرهن فإنه لا يشبههن أحد



من النساء، ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة، ثم قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ قال السدي وغيره: يعني بذلك ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال، ولهذا قال: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي: دغل، ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ قال ابن زيد: قولاً حسنًا جميلاً معروفًا في الخير، ومعنى هذا: أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أي: لا تخاطب المرأةُ الأجانبَ كما تخاطب زوجها.

وقوله: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: الزَمْن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ قال قتادة: إذا خرجتن من بيوتكن - وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج - فنهى الله عَزَّوَجَلَّ عن ذلك.

وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ والتبرج: أنها تلقي الخمار على رأسها ولا تشدّه فيواري قلائدها وقرطها وعنقها، ويبدو ذلك كله منها، وذلك التبرج، ثم عمّت نساء المؤمنين في التبرج.

وقوله: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، نهاهن أولاً عن الشر ثم أمرهن بالخير، من إقامة الصلاة - وهي: عبادة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وحده لا شريك له - وإيتاء الزكاة، وهي: الإحسان إلى المخلوقين، ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، وهذا من باب عطف العام على الخاص.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ٣٣﴾ وهذا نصٌّ في دخول أزواج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في أهل البيت هاهنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً، إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح، عن عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ قال: [نزلت في نساء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ خاصة] ، وقال عكرمة: من شاء باهلته أنها نزلت في أزواج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

فإن كان المراد أنهن كن سبب النزول دون غيرهن فصحيح، وإن أريد أنهنّ المراد فقط دون غيرهن، ففي هذا نظر؛ فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك:

عن واثلة بن الأسقع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ومعه علي وحسن وحسين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ آخذ كل واحد منهما بيده حتى دخل، فأدنى علياً وفاطمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وأجلسهما بين يديه، وأجلس حسناً وحسيناً رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا كل واحد منهما على فخذه، ثم لف عليهم ثوبه - أو قال: كساءه - ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ٣٣﴾: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، وأهل بيتي أحق»، وعن زيد بن أرقم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قام فينا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يوماً خطيباً بماء

يدعى خمًا - بين مكة والمدينة - فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، وأولهما كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحث على كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ورغب فيه، ثم قال: «وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي» ثلاثًا، فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس، قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم.

ثم الذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ داخلات في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾ فإن سياق الكلام معهن، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله:

﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾[الأحزاب:٣٤]

أي: اعملن بما ينزل الله عَزَّوَجَلَّ على رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ في بيوتكن من الكتاب والسنة، قاله قتادة وغير واحد، واذكرن هذه النعمة التي خُصِصْتُنَّ بها من بين الناس، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس، وعائشة الصديقة

بنت الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أولاهن بهذه النعمة، وأحظاهن بهذه الغنيمة، وأخصُّهن من هذه الرحمة العميمة، فإنه لم ينزل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الوحي في فراش امرأة سواها، كما نص على ذلك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: واذكرن نعمة الله عَزَّ وَجَلَّ عليكن بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والحكمة، فاشكرن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على ذلك واحمدنه.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ أي: ذا لطف بِكُنَّ، إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آياته والحكمة وهي السُّنَّة، خبيراً بكن إذ اختاركن لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أزواجاً"(١).

أوجه الثناء:

- تفضيل نساء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ على سائر النساء بقوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾[الأحزاب:٣٢].

- نصت الآيات أنهن من أهل بيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٠٨-٤١٦) مختصراً.

ﭐللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾[الأحزاب:٣٣]؛ فيشملهن ما ورد في فضائل أهل البيت.

- أن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أكرمهن بإذهاب الرجس والتطهير من كل دنس، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾[الأحزاب:٣٣].

- امتنَّ عليهن بقوله: ﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ ﴾[الأحزاب:٣٤]، آيات الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ هي القرآن، والحكمة هي أقواله وأفعاله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ، وما يحصل في بيته، فألزم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أمهات المؤمنين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُنَّ بحفظه وتبليغه.

- عناية الله تعالى بهن وتأديبه إياهن؛ حيث منعهن من الخضوع في القول، وأمرهن بأن يقُلْن قولًا معروفًا، وأن يقررن في بيوتهن، ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى؛ رفعًا لمكانتهن وتنزيهًا لجناب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ، وجعل هذا قرآنًا يتلى لتصبح زوجات النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ قدوة لمن بعدهن من النساء.



٦٩- جبر المولى تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لخواطر أمهات المؤمنين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُنَّ

الآيتان ٥١-٥٢ من سورة الأحزاب

﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنها كانت تُعَيِّر النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ، قالت: [ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق؟] فأنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾. قالت: [إني أرى

رَبَّك يسارع لك في هواك] [رواه البخاري ومسلم].

قوله: ﴿تُرۡجِي﴾ أي: تؤخر ﴿مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾ أي: من الواهبات أنفسهن ﴿وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ أي: من شئت قَبِلتها، ومن شئت ردَدَّتها، ومن رددتها فأنت فيها أيضًا بالخيار بعد ذلك، إن شئت عُدْتَ فيها فآويتها؛ ولهذا قال: ﴿وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَ﴾.

وقال آخرون: بل المراد: من أزواجك، لا حرج عليك أن تترك القَسْم لهن، فتقدّم من شئت، وتؤخّر من شئت، وتجامع من شئت، وتترك من شئت، ومع هذا كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ يَقْسِم لهن. عن عائشة أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ كان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية [رواه البخاري]، فهذا الحديث عنها يدل على عدم وجوب القسم، ومن هاهنا اختار ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الآية عامة في الواهبات وفي النساء اللاتي عنده أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم.

وهذا الذي اختاره حسن جيد قوي، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي: إذا علمن أن الله عَزَّوَجَلَّ قد وضع عنك الحَرَج في القَسْم، فإن شئت قسمت، وإن شئت لم تقسم، لا جناح عليك في أي ذلك فعلت، ثم مع هذا أنت تقسم لهن اختيارًا منك، لا

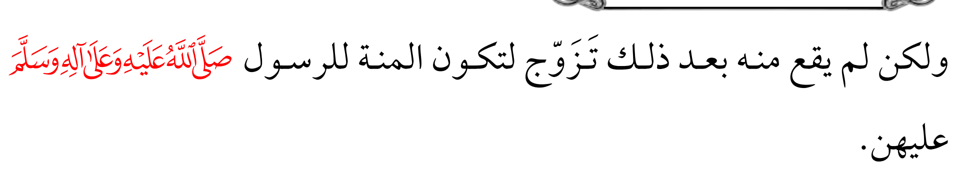
أنه على سبيل الوجوب، فَرِحْن بذلك واستبشرن به وحَمَلْن جميلك في ذلك، واعترفن بمِنّتك عليهن في قسمك لهن، وتسويتك بينهن، وإنصافك لهن، وعدلك فيهن.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ أي: من الميل إلى بعضهن دون بعض، مما لا يمكن دفعه. عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا قالت: كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا فعلي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» [رواه أحمد وأهل السنن] وإسناده صحيح، ورجاله كلهم ثقات، ولهذا عقَّب ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ أي: بضمائر السرائر، ﴿حَلِيمًا﴾ أي: يحلم ويغفر.

﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ ﴾ ذكر غير واحد من العلماء أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ورضِي عنهن على حسن صنيعهن في اختيارهن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ والدار الآخرة، لمَّا خيرهن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فلما اخترن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ كان جزاؤهن أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَصَره عليهن، وحرَّم عليه أن يتزوج بغيرهن، أو يستبدل بهن أزواجًا غيرهن، ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء والسراري فلا حَجْر عليه فيهن.

ثم إنه رفع عنه الحجر في ذلك ونسخ حكم هذه الآية، وأباح له التزوج،





ولكن لم يقع منه بعد ذلك تَزَوّج لتكون المنة للرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ عليهن.

وقال آخرون: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي: بعدما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتي أحللنا لك من نسائك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك، وبنات العم والعمات والخال والخالات والواهبة، وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك.

واختار ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الآية عامة فيمن ذُكر من أصناف النساء، وفي النساء اللواتي في عصمته وكن تسعًا. وهذا الذي قاله جيد.

قوله: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ نهاه عن الزيادة عليهن، أو طلاق واحدة منهن واستبدال غيرها بها إلا ما ملكت يمينه"[(١)].

أوجه الثناء:

- رعاية الله جَلَّ جَلَالُهُ لخواطر هؤلاء النسوة الكريمات زوجات النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، فيوجه نبيه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ من فوق سبع سموات ويأمره، ثم يبين له أن هذا التوجيه لأجل أن تقر أعين هؤلاء النسوة وحتى لا

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٤٥-٤٤٩) مختصراً.

يدخل الحزن إلى قلوبهن ولأجل أن يرضين، فما أجلَّ مكانتهن عند الله تعالى!!

- نهي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِوَسَلَّمَ عن الزواج عليهن رعاية لخواطرهن، فخواطرهن لها مقام عند الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

- أَمْر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِوَسَلَّمَ بإمساكهن ونهيه عن طلاقهن دليل أجلى من الشمس على صدق إيمانهن، وأن الله سبحانه قد ارتضاهن أزواجًا لخير خلقه وأحبهم إليه، وعلم أنهن أهل لهذه الزوجية الشريفة، فهل يرتضي الله تعالى لنبيه زوجة تسيء إليه أو تخونه حيًا أو ميتًا؟!

وإذا كان إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ قد أمر ولده إسماعيل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ أن يطلق امرأته لمَّا وجد فيها قلة صبر على قدر الله عَزَّوَجَلَّ ولم يرتضها زوجة لولده(١)، فهل تكون عناية إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ بعرض ولده أعظم من عناية الله جَلَّجَلَالُهُ

(١) والحديث في البخاري (٤/ ١٤٢ رقم ٣٣٦٤) من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، وفيه: "فجاء إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ بعدما تزوج إسماعيل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بِشَرٍّ، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له يغير عتبة بابه" يعني: يطلقها، فتأمل: هل هذا الذي قالته هذه المرأة أعظم أم الذي ينسبه الشيعة إلى زوجات النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وخصوصا عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا؟ فلو كانوا صادقين فيما يدَّعون فلماذا لم يأمره الله تعالى بطلاقها، بل وأمره بإمساكها؟!

بعرض نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ؟!!



الخاتمة

إن المتأمل في الآيات القرآنية التي تحدثت عن الصحابة (وهي بالعشرات) ليجد فيها من الدلالة على عدالتهم وفضلهم ومكانتهم ما لا يمكن لعاقل أن ينكره، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يصفهم بأنهم ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[البقرة:٢٨٥] و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[الأنفال: ٧٢] و﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ﴾[الأنفال:٧٤] ويجعل إيمانهم هو معيار الهداية ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ﴾[البقرة:١٣٧] ومخالفهم هو الضال ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[النساء:١١٥]، بل ويخبر أنه هو الذي جعل الإيمان في قلوبهم ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ﴾[الفتح:٤]، ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[الحجرات:٧].

ويثني عليهم فيقول: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾[الفتح:٢٩]، ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾[الحشر:٨]، ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ

هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[الحشر:٩]، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[التوبة:٢٠]، ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران:١٧٢-١٧٤].

ويخبر عن نعمته عليهم فيقول: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[البقرة:١٤٣]، ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[آل عمران:١٠٣]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾[الفتح:١٠].

ويحدثنا أنه قد رضي عنهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ﴾[التوبة:١٠٠]، ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ

يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[الفتح:١٨].

ويعدهم بالمغفرة والثواب العظيم ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[الأنفال:٧٤]، ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾[الحديد:١٠]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[الحجرات:٣].

ويخبر عن توبته عليهم فيقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[آل عمران:١٥٥]، ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ﴾[آل عمران:١٥٢]، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[التوبة:١١٨]، ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾[التوبة:١١٧].

ويخبر أنهم ردء الإسلام ونصيره فيقول: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾[الأنفال:٦٢-٦٤].

ويمنَّ عليهم بأنه نصرهم وأيّدهم فقال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[آل عمران:١٢٣]، ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ



ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾[الأنفال:٩]، ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَـٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[الأنفال:١١-١٢]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ ﴾[الأحزاب:٩]، ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾[التوبة:٢٦]، ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[الأنفال:٢٦]، ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[الفتح:١٨]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[المائدة:١١].

ويوصي رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ بهم خيراً فيقول: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[آل عمران:١٥٩]، ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[الأنعام:٥٢]، ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ ﴾[الأنعام:٥٤]، ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم

بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾[الكهف:٢٨].

وغير ذلك الكثير من الآيات، فهل يمكن لعاقل أن يتصور أن هذا الحديث العاطر كان عن جماعة من المنافقين الذين سرعان ما أظهروا الكفر بعد وفاة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ؟!

أم هل يعقل أن يكون هذا الثناء كله هو لأربعة نفر فقط كما يدعي الشيعة؟!

أليس الفرق واضحاً كالشمس بين حديث القرآن عن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وحديثه عن غيرهم؟!

ألم يذكر مساوئ وقبائح بني إسرائيل حتى عرَّاهم للناس؟

ألم يبين جهل النصارى وانحرافهم وضلالهم؟

ألم يذكر فضائح المنافقين ودسائسهم حتى كشفهم وجلّاهم؟

ألم يوبخ مشركي العرب ويعاتبهم ويُسفّه عقولهم وأحلامهم؟

ألم يذكر سيئات وخطايا قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط؟

فأين نجد مثل هذا أو حتى جزءاً منه في الحديث عن الصحابة؟!!

هل يستطيع عاقل أن يقول: إن القرآن قد ذمَّ الصحابة؟ حقاً إن من يدَّعي

مثل هذه الدعوى لا يمكن أن يكون شخصًا يعرف الفرق بين المدح والقدح، والفرق بين الثناء والذم!!

وإن من يتفكر في علم الله تعالى وحكمته وصدق حديثه، ويتأمل في فصاحة القرآن وبيانه، سيدرك تمام الإدراك أن الصحابة في القرآن أمةٌ فاضلة، وقومٌ عدول، ورجالٌ مؤمنون، وفئةٌ هي محل رضًا من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ٦﴾[الجاثية:٦].

والحمد لله رب العالمين.

الفهرس